مكتبة المشورة الكتابية

ارعَ قلب طفلك

بقلم:

Tedd Tripp

الكتاب الأفضل في مجال تنشئة الأطفال

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

مركز دراسات
المشورة الكتابية
NOUTHETIC

اسم الطبعة باللغة العربية

ارعَ قلب طفلك

الإعداد الفني: خدمة «ذهن جديد»

New Renovaré Ministry
www. nermo.net
email:info@nermo.net

المسئول : د. ياسر فرح

المترجم : عادل ذكري

التليفون : 01203084135 (2+) - 22040809 (202+) - 22040827 (202+)

Original English Title:

Shepherding a Child's Heart

Publisher: Shepherd Press
Author: Tedd Tripp
© 1995
ALL RIGHTS RESERVED

«**Renovaré**» كلمة لاتينية بمعنى «**to Renew**» أي «**يجدد**»
رسالتنا هي: فاتركوا سيرتكم الأولى بترك الإنسان القديم الذي أفسدته
الشهوات الخادعة، و**تجددوا** روحًا وعقلًا، والبسوا الإنسان الجديد الذي
خلقه الله على صورته في البر وقداسة الحق. (أفسس ٤: ٢٢-٢٤)

الناشر باللغة العربية: **مركز دراسات المشورة الكتابية «Nouthetic»**
E-mail: Noutheticegypt@gmail.com

«**Nouthetic**» كلمة يونانية بمعنى **المواجهة الشخصية**
(بالتوبيخ أو الانذار أو التعليم أو النصح) **بمحبة شديدة**
واهتمام **بغرض التغير والتطبيق الشخصي** لحق الله
رسالتنا هي: «وأنا نفسي متيقن من جهتكم يا إخوتي أنكم أنتم مشحونون
صلاحًا ومملوؤن كل علم. قادرون أن **ينذر (ينصح)**
بعضكم بعضًا.» (رومية ١٥: ١٤)

مطبعة: سلفر ستار : 01221066730
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٦٧٥٧ /٢٠١٤
الترقيم الدولي: 1-0-9663786-0

The project of securing the publication rights to, raising the funds for, and overseeing the translation of biblical counseling-related books and training materials is a ministry of Overseas Instruction in Counseling (www.DiscoverOIC.org) a United States-based mission agency that trains biblical counseling trainers around the world.

© جميع حقوق النشر والتدريب والتعليم محفوظة للناشر

إلى زوجتي Margy التي مكّنتني مساعدتها
ومساندتها لأتعلَّم ولأكتب
ما ستجدونه فيما يلي.

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية ٧

مقدمة الطبعة الأولى ٩

تمهيد ١١

مقدّمة الكتاب ١٣

- السلطة – الرعاية - مركزية الإنجيل – ترسيخ رسالة الإنجيل
– تبادلية كشعب خاضع لله

الجزء الأول: أساسات التربية الكتابية

١- الوصول إلى جذور السلوك (قلب المشكلة) ٢٣

٢- نمو طفلك: المؤثرات التي تشكِّل حياتهم ٢٩

المؤثرات التي تشكِّل حياتهم - أخطاء في فهم المؤثرات التي تشكِّل حياتهم

٣- نمو طفلك: التوجه نحو الله ٣٩

التوجه نحو الله - مضامين تربية الأطفال - أهمية التوجه نحو الله - ملخّص

٤- أنت المسؤول ٤٧

مغالطات حول السلطة - دعوة لتولّي المسؤولية - دعوة للطاعة - تعريف التربية - ملخّص

٥- دراسة أهدافك ٦١

أهداف غير كتابية - التحذير الكتابي من التأثيرات الثقافية - إشارات مختلطة

٦- إعادة ترتيب أهدافك ٧١

إعادة النظر في الأهداف غير الكتابية - الإجابة على الاعتراضات

٧- نبذ الأساليب غير الكتابية ٨١

أساليب غير كتابية - تقييم الأساليب غير الكتابية

٨- تبنّي أساليب كتابية: التواصل ٩٥

التواصل يعني ديالوج وليس مونولوج - التركيز على التفهُّم

٩- تبنّي أساليب كتابية: أنواع من التواصل ١٠٥

أنواع من التواصل - ملخّص

١٠- تبنّي أساليب كتابية: حياة من التواصل ١١٥
حياة من التواصل - رعاية القلب- حساب النفقة - إحصاء بركات دفع التكلفة -
هل يستحق الأمر هذه التكلفة؟
١١- تبنّي أساليب كتابية: العصا ١٢٥
المنطق وراء العصا – ما هي العصا؟ - مفاهيم مغلوطة عن العصا –
اعتراضات شائعة عن استخدام العصا - ثمر العصا – الأفضل في الاثنين
١٢- تبنّي أساليب كتابية: الاحتكام إلى الضمير..... ١٤٣
الاحتكام إلى الضمير – تقويم مع تركيز على الفداء
١٣- رعاية القلب – تلخيص ١٤٩
الجزء الثاني: الرعاية خلال مراحل الطفولة
١٤- من الرضاعة إلى الطفولة: أهداف التربية ١٥٣
سمة أساسية – تغيير فهم السلطة - دائرة البركة – تعريف الإكرام –
تعريف الطاعة – دعوة لعدم التناقض - عملية الاحتكام – أهمية القدوة – رعاية طفلك
في توجهات حياة التقوى – مكاسب تعلُّم الخضوع للسلطة - وفّر الوقت - قم بفعل الصواب.
١٥- من الرضاعة إلى الطفولة: أساليب التربية ١٦٩
- «متى» الضرب - «كيف» الضرب - «لماذا» الضرب - أسئلة متكررة
١٦- الطفولة: أهداف التربية ١٨٧
- الطفولة – أداة ثلاثية للتشخيص
١٧- الطفولة: أساليب التربية ١٩٩
- مخاطبة القلب – الاحتكام للضمير - بناء الشخصية – ترجمة السلوك
من خلال الشخصية - رؤية طويلة المدى
١٨- المراهقون: أهداف التربية ٢١١
- علامات الأزمنة – التمرد – ثلاثة أساسيات للحياة
١٩- المراهقون: أساليب التربية ٢٢٥
- ترسيخ رسالة الإنجيل – رعاية ترسيخ رسالة الإنجيل - بناء علاقة رعاية مع المراهقين

مقدّمة الطبعة الثانية

خلال عشر سنوات منذ نشرت كتابي «**ارعَ قلب طفلك**»، قمتُ بتدريس محتواه مئات المرات. وتحدثتُ مع عشرات الشباب والشابات ممَن يخوضون غمار عملية تربية الأطفال. هذه الفرص تركتني مقتنعًا أكثر فأكثر ببعض الأساسيات الكتابية لفهم مهمة تربية الأطفال.

الله يهتم بالقلب - منبع الحياة (أمثال ٤: ٢٣). بينما يميل الآباء والأمهات إلى التركيز على السلوكيات الخارجية بدلاً من الفيض الداخلي للقلب. نحن نميل إلى الانشغال أكثر بـ «صفات» السلوك بدلاً من «أسباب» السلوك. وبناءً على ذلك نضيّع طاقة هائلة في محاولة السيطرة على السلوك وكبح جماحه. وبقدر تركيزنا على السلوك، فإننا نغفل القلب.

وعندما نغفل القلب، فنحن نغفل أوثانًا مستترة في القلب. توضح رسالة رومية الأصحاح الأول هذا الأمر.. إن كل البشر يعبدون شيئًا ما: إمّا أننا نعبد الله ونخدمه، أو نستبدله ونعبد ونخدم أشياءً بديلة عوضًا عن الله: المخلوقات عوضًا عن الخالق (رومية ١: ٢٥-٢٨). عندما تقتصر التربية على السلوكيات، فإننا نفقد فرصة مساعدة أبنائنا على فهم أن السلوك المنحرف يُظهر قلبًا منحرفًا. أبناؤنا أيضًا يعبدون شيئًا ما: إمّا الله أو بديل عن الله: وثن في القلب.

عندما نغفل القلب، فإننا نغفل رسالة الإنجيل. إن هدف التربية أعمق بكثير من ضمان سلوكيات لائقة لدى أبنائنا، لن نساعد أبناءنا أبدًا على فهم الأمور الداخلية، أي مشاغل القلب، التي تدفع لظهور سلوك ما أو الإحجام عن سلوك آخر. هذه الأمور الداخلية من محبة الذات، والتمرد، والغضب، والتذمر، والحسد، وغرور القلب.. كلها تُظهر عمق احتياج أبنائنا للنعمة. إذا كانت مشكلة أبنائنا أعمق من مجرد سلوك غير لائق، إذا كانت المشكلة في فيض القلب، فإن الاحتياج للنعمة يصبح أمرًا مؤكدًا. جاء المسيح

إلى الأرض، وعاش حياة كاملة، ومات كذبيحة غير محدودة، حتى ينال الأطفال (وآباؤهم وأمهاتهم أيضًا) الغفران، والتغيير، والحرية، ولكي يتمكنوا من محبة الله والآخرين.

عندما نغفل القلب، فإننا نغفل مجد الله. إن احتياج الأطفال (أو الكبار) الذين سقطوا في أشكال مختلفة من عبادة الذات لا يتمثل فقط في تحطيم المرتفعات والآلهة الغريبة، وإنما لتنصيب الله ملكًا على عرشه. الأطفال يميلون للعبادة بطبيعتهم. أحد أهم الدعوات التي وهبها الله للوالدين هي أن يظهروا عظمة الله وصلاحه ومجده.. ويملك الآباء والأمهات، من خلال القول والعقل، أن يظهروا للأطفال موضوعًا حقيقيًا واحدًا للعبادة ألا وهو: إله الكتاب المقدّس. نحن نعلم أن أعظم المباهج التي قد يختبرها أبناؤنا توجد في التلذذ بالرب الذي خلقهم لمجده.

في أوقات كثيرة حين أعلِّم عن هذه الأشياء الواردة في هذا الكتاب يأتي الأشخاص إليّ ويقولون لي: «هذه الحقائق التي تعلِّمها ليس لها علاقة بأبنائنا، بل لها علاقة بنا». نحن نحتاج أن نجسِّد هذه الحقائق لأبنائنا.

ومن ثَم، أهلاً بكم في الطبعة الثانية من «**ارعَ قلب طفلك**». ما ستقرأه في هذا الكتاب قد يغيِّر نمط تفكيرك، ولكنه سيثمر ثمارًا جيدة في حياتك وفي حياة أبناءك.

صلاتي لك عبَّر عنها آساف في مزمور ٧٨، وهي ألا تعلِّم وتجسِّد هذه الحقائق لأبناءك فقط، وإنما تقوم الأجيال الآتية التي لم تولد بعد وتعلِّمها لأبنائهم، حتى يضعوا رجاءهم في الله.

Tedd Tripp

يوليو (تموز) ٢٠٠٥

مقدّمة الطبعة الأولى

لقد تحفزت للكتابة في هذا الموضوع؛ لأنني أعتقد أن مجتمعنا وكذلك كنيستنا بحاجة ماسة لمنظور كتابي في قضية التربية.

لقد سعيتُ إلى تطبيق المبادئ التي رأيتها تحمل ثمارًا جيدة في حياتي وفى خدمتي الشخصية والمشورية التي أُعطيت إياها من الله.

لابد أن أوجه شكري بالترتيب. كانت عائلتي، ولازالت، مصدر دعم لا ينقطع لي في خضم عملية التأليف المضنية. ليس من السهل على أي واعظ أن يصبح كاتبًا. لقد قرأت زوجتي Margy هذا الكتاب عددًا من المرات لا يتخيله أيٌّ منا. وإذا ظننت أن الكتاب طويل، فلابد أن تقدّم لها الشكر على مجهودها في تلخيص الجمل، بينما كانت تبسط أفكاري مرات عديدة. كذلك أولادي الكبار الآن: Aaron، Heather، Tedd، أصبحوا موافقين الآن لذكر أسمائهم وتحليل ما حدث لهم كأمثلة أوردها في كتاباتي. كما أظهرت Heather زوجة ابني Tedd استعدادًا وعونًا غاليًا في المراحل الأخيرة قبل نشر هذا الكتاب. إن حيويتهم ومحبتهم الغيورة للرب كانتا مصدر تشجيع لي في أوقات كثيرة كنتُ أشعر فيها باليأس من القيام بهذه المهمة.

شعب كنيسة «أخوية النعمة» الذين أحببتهم وتعلمتُ منهم على مدار ٢١ سنة، كان لهم تأثير هائل على مسيرتي مع الرب وكذلك محتوى هذا الكتاب. لقد ساعدوني على تنقيح الأشياء التي درستها خلال مرات كثيرة من الوعظ والتعليم. الشيوخ زملائي والشمامسة الذين ساعدوني بإخلاص وشجعوني على «التفرغ» للعمل على هذا في مناسبات كثيرة كنت سأترك فيها فكرة هذا المشروع لتموت.

كان هناك قرّاء مخلصون مثل: دانيال بوهرت، جين كانون، مارسيا تشيشك، جون وجوس هويني، كيلي نولدين، جين نيل، تيد فيناتيرى، جاي وروث يونتس. التعليقات

القوية والملاحظات المقنعة لهؤلاء الأشخاص قد أوضحت لي كثير من الأمور، وجعلت المحتوى أكثر تركيزًا.

شكر خاص لكل من David Powlison، Jay E. Adams من مؤسسة التعليم والمشورة المسيحية (Christian Counseling and Educational foundation). إن تعاليم *David Powlison هي نموذج للروحانية الحقيقية التي سعيت أن أتمثل بها وأطبقها على مهمة تربية الأطفال. لقد حددني Jay E. Adams* كما أن «الحديد بالحديد يحدد»، وأنا مدينٌ له.

ليت الرب يبارك في هذا العمل، حتى نستطيع أن نربي أبناءنا ليكونوا بذرة مقدّسة للكنيسة.

Tedd Tripp

يوليو (تموز) ١٩٩٥

* قمنا في مركز دراسات المشورة الكتابية (التابع لخدمة **ذهن جديد**) بطباعة ونشر عدة كتب لكل من Jay Adams & David Powlison

تمهيد

هذا الكتاب يمثل عملاً متقنًا. يعرف Tedd Tripp ما يتحدث عنه، ويعرف مَن يتحدث إليهم. إنه يعرف طبيعة الأطفال، ويعرف طبيعة الآباء والآمهات..

معظم الكتب عن التربية تقدّم لك نصائح إمّا عن كيف تشكّل سلوكيات أبناءك أو تقيدها، أو كيف تجعلهم راضين عن أنفسهم. وإمّا أن تكون السيطرة أو تحقيق الذات هو هدف التربية. السيطرة تجعل رغبات الوالدين أهم من أي شيء آخر، بينما تحقيق الذات يجعل رغبات الأبناء أهم من أي شيء آخر.

أمّا كتاب «**ارعَ قلب طفلك**» فيقدِّم شيئًا مختلفًا تمامًا. يعلِّمك الكتاب ماذا يجب أن تكون أهدافك كأب أو أم، وكيف تحقق هذه الأهداف بشكل عملي. إنه يعلِّمك كيف تشارك أبناءك بالأمور الهامة في الحياة، وكيف تخاطب قلب طفلك بكلماتك وأفعالك. ويعلِّمك كيف يعمل التواصل مع التأديب. عندما يحب الآباء والأمهات بقلب حكيم. ويعلِّمك كيف تغيّر أهدافك عندما ينضج الأبناء من سن الرضاعة إلى الطفولة، وبينما ينضجون من الطفولة إلى مرحلة المراهقة. سيساعدك كتاب «**ارعَ قلب طفلك**» على أن تتحلى بالتواضع. وسيشجعك على أن تصبح أبًا وأمًا من نوع مختلف. وسيعلِّمك بوضع قواعد وأمثلة عليها.

معظم الكتب عن التربية لا تفهم بالضبط طبيعة الأبناء أو الوالدين. وتبني نصائحها على أساسيات غير متوافقة مع الكتاب المقدّس، وغير متوافقة مع الطبيعة البشرية. لذا تختلط النصائح الجيدة بالرديئة منها، لأن الرؤية العامة غير واضحة ومغلوطة، وبالتالي فإن النصائح الجيدة تترنح وتخفق في إحداث التأثير المطلوب؛ لأن المكونات التي تحدث التوازن للتربية الحكيمة يتم تجاهلها. إن كتاب Tedd Tripp كتاب مختلف؛ فحجر الأساس موضوع في مكانه بدقة. إن كتاب «**ارعَ قلب طفلك**» يفهَمك ويفهَم أطفالك بشكل حقيقي، وبالتالي فهو يقودك في طرق مستقيمة وحكيمة. يقدِّم لك Tedd Tripp رؤية، ويجعل منها شيئًا عمليًا. لا تحتاج أكثر من ذلك.

Tedd Tripp هو أبٌ وراعٍ ومشير ومدير مدرسة متمرس. لكن الأكثر من ذلك، إنه رجل يصغي جيدًا للرب، وخاض بنفسه تجربة تربية الأبناء ويعرف صراعاتها. اصغِ جيدًا له، واسعَ بكل قوة لفهم معنى أن ترعى قلب طفلك.

David Powlison

مؤسسة التعليم والمشورة المسيحية -لافروك بنسيلفانيا

مقدّمة الكتاب

كانت Jennifer عاجزة عن اتمام واجباتها المدرسية، فدعت معلّمتها زملاءها لتقديم المساعدة. لأن والديها لم يكن بوسعهما تقديم المساعدة. وكانت Jennifer، البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة لا تطيعهما، ولم تكن خاضعة لسلطتهما. لذا تمنّى الأبوان أن تقوم المدرسة بدور التوجيه والتحفيز، الدور الذي عجزا عن تقديمه لابنتهما.

هذه القصة متكررة. هناك الكثير من الأطفال يتركون المنزل في سن العاشرة أو الثانية عشرة. لا أقصد مأساة «أطفال ميدان التايمز» في مدينة نيويورك أو «أطفال الشوارع» في مجتمعك. بل أشير إلى الأطفال الذين تركوا الأب أو الأم كسلطة أو كنقطة مرجعية لحياتهم، بحلول العاشرة أو الثانية عشرة.

لقد ضلت ثقافتنا الطريق بشأن احترام دور الأب والأم. نحن أشبه بسفينة بدون رادار وبدون بوصلة. نحن نفتقر للشعور بالتوجيه والقدرة على توجيه أنفسنا.

كيف حدث هذا؟ هناك مشكلات عديدة تشابكت عند هذه النقطة في الظرف التاريخي والثقافي الذي نعيش فيه.

كثير من الناس لديهم أبناء، لكنهم لا يريدون أن يكونوا آباء وأمهات. أقنعتهم الثقافة المحيطة بهم أنهم بحاجة إلى إشباع عطشهم الشخصي للشعور بالرضا. وفي ثقافة انغماس الذات هذه يصبح الأطفال عبئًا واضحًا.

لذا يقضي الآباء والأمهات وقتًا ضئيلاً مع أبنائهم. وتبدو فكرة «نوعية» الوقت أكثر جاذبية من الفكرة القديمة عن «كمية» الوقت.

آباء وأمهات اليوم أصبحوا جزءًا من جيل يرفض السلطة. وشكلت بقوة مظاهرات مناهضة العنصرية والحرب في ستينيات القرن العشرين أفكارهم. لقد تجاوزت حركة التظاهر المؤسسات، وغيّرت طريقة تفكيرنا عن السلطة وحقوق الفرد.

ونتيجة لذلك لم يُعد من اللائق ثقافيًا أن يلعب الأب دور «الرئيس» (boss) في البيت. ولم تعد الأم تفعل ما يقوله الأب طائعةً، أو على الأقل تتظاهر بأنها تفعل ذلك. والأب من ناحيته لم يعد يخاف من رئيسه في العمل، أو من فصله عن العمل أثناء نزوة من نزواته. أصحاب العمل السابقون كانوا يستخدمون السلطة لتحقيق أهدافهم. أمّا أصحاب العمل الحاليون فيستخدمون المكافآت والحوافز.

ماذا أريد أن أقول؟ أريد ببساطة أن أقول الآتي: الأطفال الذين تربوا في هذا المناخ لم يعودوا يجلسون في صفوف منتظمة في المدرسة. لم يعودوا يستأذنون حتى يتكلموا. لم يعودوا يخافون النتائج المترتبة على الرد على والديهم بشكل غير لائق. لم يعودوا يقبلون فكرة الخضوع في الحياة.

ما نتائج هذا على عملية التربية؟ لم تعد الطرق القديمة في التربية تنجح. الطرق التسلطية القديمة أصبحت غير فعّالة، لكننا لا نعرف أية طريقة بديلة حتى نتمم الأمر.

استعارت الكنيسة الأسلوب القديم في تربية الأطفال «اصغِ إليّ يا ولد.. وإلا صفعتك على وجهك». وبدا أنه أسلوب ناجح، وبدا أن الأبناء يطيعون. وكانوا خاضعين ظاهريًا. هذا الأسلوب يفشل الآن؛ لأن ثقافتنا لم تعد تستجيب للسلطة كما كان يحدث منذ جيل واحد على الأقل. نحن نرثي فوات أوان هذا الأسلوب في تربية الأبناء؛ لأننا نفتقد بساطته. ومع ذلك، أخشى أن نكون قد تناسينا الوسائل والأهداف غير الكتابية التي يتضمنها هذا الأسلوب.

الآبـاء والأمهات اليوم مصابون بالإحباط والارتـبـاك. والأبناء لا يتصرفون كما ينبغي، والآباء والأمهات لا يعرفون لماذا. والكثيرون منهم سلَّموا بأن المهمة مستحيلة. البعض لاذوا بعيدًا محبطين، والآخرون لا يزالون يحاولون طريقة John Wayne القديمة (في الخمسينيات) متوقعين نجاحها. وأثناء ذلك يضيع جيل من الأبناء.

كما أن مجتمعنا المسيحي تائه بقدر ما أن المجتمع كله تائه. نحن نفقد أبناءنا. مَنْ لديهم أطفال صغار يعيشون في رعب من مرحلة البلوغ. مَنْ لديهم أبناء في سن المراهقة يذكرونهم باستمرار بأن سيلاقون نفس المصير مع أبنائهم. وعندما يكون لديّ ثلاثة

أبناء في المراهقة، يأتي الناس ليواسوني. والتوقعات تقول إن المشكلات تكبر بينما يكبر أبناؤنا.

ومع ذلك هذا الكتاب يؤكد على أن هناك رجاءً في هذه الحالة. بمقدورك أن تربي أبناءً في طريق البر والتقوى ونحن في مطلع القرن الحادي والعشرين. لست بحاجة حقًا للاستسلام والتسليم بأن المهمة مستحيلة. الخبرة قد تقول لك إن الفشل حتمي، لكن الخبرة لا يمكنها أن ترشدك بأمان.

المرشد الآمن الوحيد هو الكتاب المقدّس. إنه إعلان عن إله كلّي المعرفة، ولذلك يقدر أن يقدِّم لك الحق المطلق. لقد أعطاك الله وحيًا كاملاً وفعّالاً. ويقدِّم صورة شاملة ودقيقة عن الأبناء، والوالدين، والحياة الأسرية، والقيم، والتدريب، والرعاية، والتأديب، وكل ما تحتاجه لتكون مؤهلاً للقيام بمهمة التربية.

إن طرق الرب لم يثبت أنها غير كافية، وإنما ببساطة لم تجرَّب. الكنيسة تعكس مشكلات الثقافة المحيطة بها؛ لأننا لم نربِ بطريقة كتابية منذ جيل كامل. نحن فقط كنا نفعل كالباقين. ومع الأسف بالرغم أننا لا نزال نحاول نفس الشيء، فإنه بسبب التغيرات في الثقافة لم يعد ينفع ذلك.

دعني أقدم عرضًا مجملاً لرؤية الكتاب المقدّس لمهمة التربية. إن مهمة التربية لها أوجه متعددة؛ إذ تتضمن أن تمارس سلطة حنونة، وترعى أبناءك وتقودهم إلى فهم أنفسهم من وجهة نظر الله، وجعل رسالة الإنجيل واضحة أمامهم، ومن ثَم يقدر أبناؤك على أن يتشبعوا بالخبر السار ويعيشوا في علاقة تبادلية معك كشعب خاضع لله.

السلطة

يدعو الله خليقته لتعيش تحت السلطة. إنها سلطتنا، وقد فوّض سلطةً لأشخاص داخل المنظومات التي أسسها (البيت، والكنيسة، والدولة، والعمل).

أنت تمارس السلطة كوكيل أو ممثل عن الله. ولا يجوز أن توجّه أبناءك وفقًا لجدول أعمالك الخاص أو ارتياحك الشخصي. لابد أن توجّه أبناءك نيابة عن الله إلى خيرهم.

إن ثقافتنا تميل إلى طرفي النقيض. في الجانب المتعلّق بالسلطة إمّا أن نميل إلى نسخة طبق الأصل من طريقة John Wayne التسلطية أو نميل إلى أن نكون أشخاصًا منعدمي الشخصية. إن الله يدعوك بكلمته وبقدوته لتكون رمزًا لسلطة حنونة بحق. الله يدعوك لتمارس السلطة، ليس بأن تجعل أبناءك يفعلون ما تريده، وإنما بأن تكون خادمًا حقيقيًا.. وكسلطة تبذل حياتك من أجلهم. إن الهدف من سلطتك في حياة أبناءك ليس أن تلجمهم تحت قبضة نفوذك، وإنما لتمكّنهم من أن يكونوا أشخاصًا يتحلون بضبط النفس ويعيشون بحرية تحت سلطان الله.

يمثل المسيح نموذجًا لهذا الشيء. فإنه وهو الوحيد صاحب الأمر ومالك كل السلطان، جاء كعبد. إنه السيد الذي يخدم، وهو أيضًا الخادم الذي يقود. إنه يمارس سلطته العليا برفق..سلطة تمارس لحساب رعاياه. في بشارة يوحنا الأصحاح ١٣، فإن يسوع الذي عرف أن الآب وضع كل شيء تحت سلطانه، ائتزر بمنشفة وغسل أرجل تلاميذه. وبينما يخضع كل شعبه لسلطانه، فهو يقويهم حتى يعيشوا بحرية الإنجيل.

لابد أن تمارس سلطتك كأب أو أم. لابد أن تطلب الطاعة من أبناءك، لأنهم مدعوون من الله ليطيعوك ويكرموك. لابد أن تمارس سلطتك، ليس كسيد قاسٍ، وإنما كمحبّ حقيقي.

الآباء والأمهات الذين هم «حكام محسنون» لا يجدون أبناءهم عادة يسارعون في ترك البيت. نادرًا ما يهرب الأبناء من بيت تُسدد فيه احتياجاتهم. مَن منا يريد أن يترك علاقة يشعر فيها بالحب وبالاحترام؟ أي طفل سيهرب من شخص يتفهمه، ويفهم طرق الرب، ويفهم العالم وكيف يسير، وملتزم بمساعدته حتى ينجح؟

ملاحظتي بعد خمس وثلاثين سنة من إدارة المدارس، والتربية، والعمل الرعوي، والمشورة هى أن **الأطفال لا يقاومون عادة أية سلطة تتسم بالحنو الصادق وعدم الأنانية.**

الرعاية

إذا كانت كلمة السلطة أفضل ما تصف علاقة الطفل بأبويه، فإن أفضل وصف لعمل الوالدين يتمثل في كلمة «الراعي» أو «الرعاية». الأب أو الأم هو مرشد الطفل. إن عملية الرعاية تساعد الطفل على فهم نفسه والعالم الذي يعيش فيه. يرعى الآباء والأمهات أبناءهم لا ليفهموا فقط «توصيف» تصرفاتهم كأبناء، وإنما أسبابها أيضًا. وكراعٍ تحتاج أن تساعد ابنك على فهم نفسه كمخلوق من الله يعيش لأجل الله. لا يمكنك إظهار هذه الأمور بالتلقين فقط، بل لابد أن تقوده في طريق اكتشاف ذلك. لابد أن ترعى أفكاره، وتساعده على تعلُّم التمييز والحكمة.

إن عملية الرعاية هذه تمثل تفاعلاً أكثر غنىً من مجرد إخبار طفلك بما يجب أن يفعله أو يفكر فيه. إنها تتضمن استثمار حياتك في طفلك في تواصل منفتح وصادق يكشف عن قصد الحياة ومعناها. ليس الأمر مجرد توجيه بل توجيه فيه انفتاح ومشاركة. إن القيم والطاقة الروحية لا تُلقن، وإنما تُكتسب.

يقول سفر الأمثال: «**اَلْمُسَايِرُ الْحُكَمَاءَ يَصِيرُ حَكِيمًا**» (أمثال ١٣: ٢٠). وأنت كأب أو أم حكيمة، لا يكن هدفك هو مجرد النقاش، وإنما إظهار حيوية الحياة وانتعاشها عندما تُعاش في استقامة نحو الله وعائلتك. التربية هي رعي قلوب أطفالك في طريق الحكمة الإلهية.

مركزية الإنجيل

يسألني الناس كثيرًا هل كنت أتوقع أن يصبح أولادي مؤمنين بالمسيح. وعادة كنت أجيب أن الإنجيل يحمل قوة وجاذبية. وأنه يسدد احتياجات البشرية الساقطة بشكل منقطع النظير. لهذا كنت أتوقع أن تكون كلمة الله هي قوة الله لخلاص أبنائي. لكن هذا التوقع كان مبنيًا على قوة الإنجيل وملائمته للاحتياج البشري، وليس على تركيبة جاهزة صحيحة لإنتاج أطفال مؤمنين.

الإنجيل هو محور وبؤرة التركيز بالنسبة للتربية. لا تحتاج فقط إلى توجيه سلوك أبناءك، وإنما توجهات قلوبهم. لا تحتاج فقط أن تظهر لهم «طبيعة» الخطية التي يقعون فيها وسببت فشلاً لهم، بل «أسباب» ذلك أيضًا. أبناؤك بحاجة إلى فهم ليس أخطائهم فقط من الخارج، وإنما الأسباب الداخلية التي دفعتهم لارتكاب هذه الأخطاء. لابد أن تساعدهم على رؤية عمل الله الداخلي أولاً ثم الخارجي. وبالتالي لا يمكن أن يكون هدفك في التربية هو الحصول ببساطة على أبناء مهذبين. لابد أن يفهم أبناؤك لماذا يقعون في الخطية وكيف يصلون إلى التغيير الداخلي.

وبالتالي عندما نضع الإنجيل نصب أعيننا، فهذا يُعد أكثر من مساعدة أبنائنا على معرفة غفران الخطايا من خلال التوبة والإيمان بيسوع المسيح. يوجد بالإنجيل وعدًا بالتغيير الداخلي والتمكين. يعبّر سفر حزقيال أصحاح ٣٦ بشكل رائع عن غنى الإنجيل «**وَأَرُشُّ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِرًا فَتُطَهَّرُونَ. مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَصْنَامِكُمْ أُطَهِّرُكُمْ.**» (ع ٢٥). نعمة الغفران توجد في الإنجيل: «**وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ.**» (ع٢٦). نعمة التغيير الداخلي توجد في الإنجيل. «**وَأَجْعَلُ رُوحِي فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَجْعَلُكُمْ تَسْلُكُونَ فِي فَرَائِضِي، وَتَحْفَظُونَ أَحْكَامِي وَتَعْمَلُونَ بِهَا.**»(ع٢٧). ونعمة التمكين لنحيا توجد في الإنجيل. الإنجيل يمكّنك أنت وأبناءك لمواجهة أسوأ ما فيكم: خطاياكم، ورذائلكم، وضعفاتكم، ولا يزال هناك رجاء، لأن النعمة مقتدرة.

أحيانًا يعطي الآباء والأمهات لأبنائهم معيارًا سلوكيًا ليتبعوه. ويظنون أنه إذا لم يكن أبناؤهم مسيحيين، لن يستطيعوا إطاعة الله من القلب أبدًا. على سبيل المثال يوصي الكتاب المقدّس بأن نفعل الخير لمن يسيئون إلينا. لكن عندما يتعرض الأبناء للاستقواء من زملائهم في فناء المدرسة، يخبرهم آباؤهم أو أمهاتهم بأن يتجاهلوا هذا الاستقواء. أو الأسواء من هذا، قد يخبرونهم بأن يضربوا الآخرين إذا بدأوا بالاعتداء عليهم.

النصيحة الكتابية تبعد الأبناء عن الصليب. ولا تأخذ النعمة من الله لتجاهل المعتدي. ولا تحصل على نعمة فائقة للطبيعة للدفاع عن حقك. ومع ذلك عندما نفعل الخير

للمعتدين علينا، وعندما نصلّي للمسيئين إلينا، وعندما نستأمن أنفسنا في يدي قاضٍ عادل، فهذا يجعل الطفل يقف وجهًا لوجه أمام فقر روحه وأمام احتياجه للقوة المغيرة للإنجيل.

إن ناموس الله ليس سهلاً على الإنسان الطبيعي. معياره مرتفع، ولا يمكن بلوغه من دون نعمة الله الفائقة للطبيعة. ناموس الله يعلّمنا عن احتياجنا للنعمة. عندما نخفق في تعريفهم معيار الله، فأنت تحرم أبناءك من رحمة الإنجيل.

ترسيخ رسالة الإنجيل

في النهاية، لابد أن تترسخ رسالة الإنجيل في نفوس أبناءك. كل طفل في أي بيت مسيحي سيأتي عليه الوقت ليفحص ويراجع إدعاءات الإنجيل، وسيحدد أيها سيقبلها كادعاءات حقيقية. تصور الأمر كالتالي: الطفل يمد ذراعه ويمسك بادعاءات الإنجيل في يديه، ويقلبها في يديه ليحدد أيها سيقبلها وأيها سيلقي بها.

هناك فرصة رائعة لكل أب وأم أن يساعدا طفلهما ليسعى بأمانة للحصول على إجابات لكل أسئلته المتعلقة بالإيمان. كلمة الله قوية، والإيمان المسيحي يتحمل التمحيص والبحث فيه. ليس لدى الجميع الالتزام بطرح كل الأسئلة، لكن لدى كل واحد التزام بطرح كل سؤال يطرأ على ذهنه.

التبادلية كشعب يخضع لله

تحدثت مؤخرًا مع ابني. كان يتحدث معي عن أمور كان يتعلمها من الله. وشارك معي أفكارًا جديدة عن نفسه، ومعنى معرفة الله بشكل يتعدي المعرفة النظرية.

وبينما كنا نتحدث سويًا بدا أنني لم أكن أتحدث فقط مع ابني، بل مع رجل آخر. لم أكن ألقنه. كُنا نتشارك فضل معرفة الله. شعرت بإحساس رائع من التبادلية مع هذا الرجل (الذي كان يومًا صبيًا أقوم بتعليمه وتأديبه، والذي من أجله كنت أصارع في الصلاة). شكرًا لك يارب.

الجزء الأول

أساسات التربية الكتابية

الفصل الأول

الوصول إلى جذور السلوك (قلب المشكلة)

يعلِّمنا الكتاب المقدّس أن القلب هو مركز تحكم الحياة. إن حياة الشخص هي انعكاس لحالة قلبه. يذكر سفر الأمثال الأمر كالتالي: «**فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ**» (أمثال ٤: ٢٣).

التشبيه هنا واضح جدًا. القلب يمثل نبعًا تفيض منه كل أمور الحياة. ترد هذه الفكرة بأشكال مختلفة في مواضع أخرى من الكتاب المقدّس. السلوك الذي يظهره الشخص هو تعبير عن فيض قلبه.

يمكنك تشبيه هذا كالآتي. القلب يحدد السلوك. ما تقوله وما تفعله يعبِّر عن توجه قلبك. يقول البشير مرقس: «**لأَنَّهُ مِنَ الدَّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ: زِنىً، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، خُبْثٌ، مَكْرٌ، عَهَارَةٌ، عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ، تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءُ، جَهْلٌ**» (مرقس ٧: ٢١، ٢٢). هذه الشرور تنبع فعلاً وقولاً من الداخل... من القلب.

ما يقوله أطفالك وما يفعلونه هو انعكاس لما بداخل قلوبهم. يؤيد البشير لوقا نفس الفكرة:

«**اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ، وَالإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الشِّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ. فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ.**» (لوقا ٦: ٤٥)

هذه الآيات تعلِّمنا عن مهمة تربية الأبناء، وتعلِّمنا عن أن السلوك ليس هو القضية الأساسية. بل القضية الأساسية دائمًا تتعلق بما يجري في القلب. تذكّر أن القلب هو مركز تحكم الحياة كلها.

كثيرًا ما يتشتت الآباء والأمهات بالسلوكيات. إذا كان هدفك في التأديب هو تغيير السلوك، من السهل أن تفهم لماذا يحدث هذا. الشيء الذي ينبهك باحتياج طفلك للتقويم هو سلوكه. السلوك يزعجك، وبالتالي يستدعي الانتباه إليه. ويصبح السلوك هو بؤرة التركيز، وتظن أنك نجحت في التقويم عندما تغيّر السلوك غير اللائق إلى سلوك تؤيده وتقدِّره.

ربما تسأل «ما هي المشكلة في ذلك؟». المشكلة هي كالتالي: إن احتياجات طفلك أعمق بكثير من سلوكه المنحرف. تذكّر أن سلوك طفلك لا يظهر من تلقاء نفسه بدون سبب. بل يمثل السلوك- أي الأشياء التي يقولها ويفعلها - إنعكاسًا لحالة قلبه. وإذا أردت فعلاً أن تساعده، لابد أن تهتم بتوجهات القلب التي تحفز هذا السلوك.

التغيير السلوكي الذي لا ينبع من تغيير قلبي لا يعتبر شيئًا ممدوحًا، بل **مذمومًا**. أليس هذا هو الرياء الذي أدانه يسوع في الفريسيين؟ في متى ١٥ يندد يسوع بالفريسيين الذين كانوا يكرمونه بشفتيهم بينما كانت قلوبهم بعيدةً كل البُعد عنه. كذلك وبخهم يسوع كأشخاص يغسلون خارج الكأس بينما داخله لا يزال دنسًا. ومع ذلك هذا ما نفعله في أحيان كثيرة في تربية الأبناء. نطالب بتغيير في السلوك، ولا نخاطب القلب أبدًا الذي يحفز على هذا السلوك.

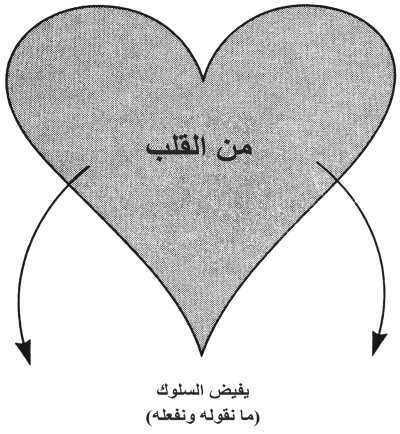

شكل (١): القلب يحدد السلوك

ماذا يجب أن تفعله في التقويم والتأديب؟ لابد أن تطلب من أبناءك سلوكيات صحيحة. ناموس الله يطلب ذلك أيضًا. ومع ذلك، لا تستطيع أن تكتفي بترك المسألة عند هذا الحد. لابد أن تساعد طفلك على طرح الأسئلة التي ستكشف توجهات قلبه التي نتج عنها السلوكيات الخاطئة. كيف زاغ قلبه ليسلك هذا السلوك؟ كيف تحديدًا نتج عن عجز طفلك أو رفضه لمعرفة الله وإطاعته والثقة فيه هذه الأفعال والأقوال الخاطئة؟

لنأخذ مثالاً مألوفًا في كل بيت يسكن فيه طفلان أو أكثر. الأطفال يلعبون، وتنشب معركة بينهم على دُمية ما. الرد الكلاسيكي هو : «مَنْ أخذها الأول؟». هذا الرد يغفل ما يدور في القلب. السؤال «مَنْ أخذها الأول؟» يعبِّر عن مسألة تتعلق بالعدل. العدل يخدم الطفل الذي كان أسرع في إخراج الدُّمية من الصندوق. أمّا إذا نظرنا إلى الموقف من زاوية القلب، ستتغيّر الأمور.

الآن لديك اثنان من المذنبين. كلا الطفلين يظهران قساوة قلب تجاه أحدهما الآخر. كلاهما يسلك بأنانية. كلا الطفلين يقولان: «لا أهتم بك أو بسعادتك. أنا مشغول فقط بنفسي. أريد هذه الدُّمية، وسعادتي تعتمد على الاستحواذ عليها. سآخذها وسأكون سعيدًا بصرف النظر عن أهمية هذه الدُّمية بالنسبة لك».

عندما ننظر من زاوية حالة القلب، ستجد طفلين خاطئين. كل طفل يفضِّل نفسه على الآخر. كلا الطفلين يكسران وصايا الله. قطعًا، لأسباب مختلفة: واحد يأخذ الدُمية الخاصة بالآخر. والآخر يستفيد من الموقف. الظروف مختلفة، لكن حالة القلب واحدة: «أريد سعادتي، حتى لو على حسابك».

هكذا ترى كيف تحدد توجهات القلب السلوك. هذه قاعدة ثابتة في كل الأوقات. كل سلوك يرتبط بتوجهات القلب. لهذا لابد أن يخاطب التأديب توجهات القلب.

هذا الفهم سيؤثر بشكل عجيب على عملية التأديب؛ حيث سيكون القلب هو محور الاهتمام، وليس السلوك فقط. وسيتركز التقويم على قضايا أعمق من قضية تغيير السلوك. وسيكون انشغالك هو كشف النقاب عن خطية طفلك، مساعدًا إياه على فهم كيف أن خطيته هي انعكاس لقلبه الذي زاغ، وهذا سيقوده إلى صليب المسيح. هذا الفهم سيؤكد

على الاحتياج لمخلِّص، وسيوفر فرصًا لإظهار مجد الله الذي أرسل ابنه ليغيّر القلوب ويحرر البشر المستعبدين للخطية.

هذا التأكيد يمثل المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه فكرة هذا الكتاب: القلب هو منبع الحياة. لهذا فالتربية مشغولة برعاية القلب. لابد أن نتعلَّم أن ننطلق من السلوك الذي نراه، رجوعًا إلى تفسيره في القلب، كاشفين لأطفالنا الأمور المتعلقة بالقلب. باختصار، لابد أن تتعلم أن تشاركهم، وليس فقط أن توبخهم. ساعدهم على رؤية الطرق التي يحاولون بها إرواء عطش نفوسهم بما لا يَروي ولا يُشبع. لابد أن تساعد أطفالك على اكتساب رؤية أوضح لصليب المسيح.

هذا المبدأ سيعرِّفك بكل شيء ستفعله كأب أو كأم، وسيحدد أهدافك، وسيخبرك بالأسلوب الذي ستتبعه، وسيشكل النموذج الذي سينضج عليه أبناؤك.

هذا الكتاب سيتطرق لكل جوانب عملية تربية الأبناء. سننظر إلى النظرة الكتابية لمهمة التربية. سندرس مراحل نمو الأطفال. سنركز على الأهداف التربوية. سنستكشف أساليب التربية. وفي كل هذه الموضوعات ستكون القضية المحورية هي رعاية القلب.

لا أقدم هنا طريقة تفكير سهلة وذكية. ولا أروج إلى خطة جديدة ثلاثية الخطوات من أجل أطفال بلا متاعب.

لا أقدِّم طريقة لتسديد احتياجاتهم، وبالتالي يمكنك متابعة سير حياتك. لكني مستعد لأستكشف معك طرقًا جديدة لتحقيق مهمة التربية التي أوكلك الله بها. أقدّم لك هذه الأشياء كشخص مختبر لهذه المهمة، و كشخص لم أتعود على الاستخفاف بالتربية. أشعر بمزيد من النشوة والإثارة في هذه المهمة أكثر من أي وقت مضى. يملأ قلبي الأمل واليقين بأن الله يقدر أن يمكننا من أن نربي بذرة مقدسة للكنيسة تنبت من بيوتنا.

رأيتُ عائلات يعيشون بمبادئ هذا الكتاب. شاهدتُ آباء وأمهات يرعون أطفالاً سعداء ومثمرين منتبهين لأنفسهم وللعالم المحيط بهم. زرت بيتًا كهذا مؤخرًا. العائلة حيّة ونابضة. المراهقون باقون في البيت؛ لأن البيت يمثل لهم مكانًا مثيرًا وجذابًا. الأب والأم في مكانة

مبجلة، ويُطلب منهما النصيحة. يتدفق الكتاب المقدّس والحق الكتابي في كل حديث، ليس في انفعال خانق، وإنما مثل نسيم منعش يهب الحياة. في هذا البيت، حُفظ الإيمان على مدار خمسة أجيال، والجيل السادس يتعلَّم أن الله هو نبع الحياة الذي بنوره نرى نورًا. هناك أشياء تستحق الكفاح من أجلها. هذه الرؤية تستحق التضحية.

إذا أردت أن تصنف أسباب الارتباك في تربية الأبناء، لابد أن تذهب إلى الكتاب المقدّس بحثًا عن الإجابات. أنا ملتزم بحقيقة أن الأسفار المقدّسة قوية بما يكفي لتمدنا بكل التصنيفات والمفاهيم التي نحتاجها لهذه المهمة. لفترة طويلة جدًا لا تزال الكنيسة تحاول أن تدمج الأفكار الكتابية مع غير الكتابية للإجابة على أسئلة التربية. هذا المزيج أنتج ثمارًا مُرة. نحتاج أن نفهم مهمتنا من وجهة نظر كتابية.

تحتاج أن تفهم طفلك من حيث علاقته بمجموعتين كبيرتين من الأمور التي تؤثر فيه:

١- الطفل وعلاقته بالمؤثرات الحياتية التي تشكّل فيه.

٢- الطفل وعلاقته بالله.

في الفصلين التاليين سنناقش هذين المنطقتين من نمو الطفل.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١

١- اشرح أهمية التعامل مع القلب في تأديب الأبناء وتقويمهم.

٢- صِف مركزية القلب في توجيه السلوك.

٣- لماذا يسهُل الانشغال بالسلوك بينما يكون واضحًا أن حالة القلب أهم بكثير؟

٤- ما الخطأ في تغيير السلوك بدون تغيير القلب؟

٥- إذا كان الهدف من التأديب هو توجيه القلب، كيف يغيّر هذا من طريقتنا في التأديب والتقويم؟

الفصل الثاني

نمو طفلك:
المؤثرات التي تشكّل حياتهم

كان ابني البالغ من العمر الحادية عشرة يربي الخنازير، وكان محبطًا. كانت الخنازير تقلب أوعية الماء بأنوفها، مما يجعل من المستحيل أن يظل أمامها مياه نظيفة. وقررنا أن نبني حوضًا خرسانيًا ليشربوا فيه، بحيث يكون ثقيلاً جدًا ويصعُب انقلابه. صممنا قالبًا بالخشب، وبدأنا نضع الأسمنت في هذا القالب.

وبينما نعمل، بدأتُ أخبر أولادي كيف كانت حياتهم وهم صغار تشبه هذا المشروع. وكانت أساسات بيتنا تشبه هذا القالب الخشبي. وحياتهم كانت بمثابة الأسمنت المصبوب. ويومًا ما حين ينزع القالب الخشبي، فإنهم سيكونون أقوياء ونافعين. التعاليم التي تلقوها في الطفولة ستجف كالأسمنت لتصبح حياة صُلبة ناضجة. كنت أتحدث بلباقة، وكانوا يصغون بأدب واحترام. وعندما توقفت برهة لألتقط أنفاسي، جروا بعيدًا ليلعبوا، ومن الواضح أنهم لم يتأثروا بالتشبيه بين حياتهم كصغار وأحواض المياه للخنازير.

لم يكن الأولاد مستعدين يومها لهذا التفكير العقلاني. ولا أستطيع أن ألومهم. ليس من السهل أن تعرف التأثيرات التي تشكّل حياة أبناءك. إنهم يتشكلون بالظروف الحياتية. فكل جوانب الحياة العائلية تترك أثرًا عميقًا على شخصية أبناءك في المستقبل.

المؤثرات التي تشكّل حياتهم

في هذا الفصل، سأقدم جدولاً لمساعدتك على فهم التأثيرات التي تشكّل طفولة أبناءك. وبينما يبدو تعبير«المؤثرات التي تشكّل حياتهم جديدًا،» لكن يشير إلى أشياء ترجع إلى عصر بدايات البشرية. المؤثرات التي تشكّل الحياة هي الأحداث والظروف التي تحدث في سنوات نمو أطفالك، وتعمل كعوامل حفز لتشكيل شخصياتهم. لكن التشكيل لا يحدث ذاتيًا. فطريقتهم في التجاوب مع الأحداث والظروف تحدد تأثير هذه الأحداث والظروف عليهم.

هناك مسوغ كتابي للإقرار بهذه التأثيرات التي تدوم مدى الحياة جراء خبرات مرحلة الطفولة المبكرة. النصوص الكتابية الكبيرة التي تتعرض للعائلة (تثنية ٦، أفسس ٦، كولوسي ٣) تفترض صحة هذه التأثيرات. الكتاب المقدّس يطلب منك أن تلتفت إلى هذه المؤثرات التي تشكّل الحياة.

الشخص الذي سيصير عليه طفلك هو نتاج أمرين. الأول: خبرته الحياتية. الثاني: هو كيف يتفاعل مع هذه الخبرة. الشكل التالي يظهر المؤثرات التي تشكّل الحياة. وفي الفصل التالي، سأقدم شكلاً آخر يتعرض لاستجابة الطفل لهذه المؤثرات. فالطفل لا يتأثر فقط بظروف الحياة، لكنه يتفاعل معها. إنه يتجاوب وفقًا لتوجه قلبه نحو الله. إن فهم هذه الأشكال سيساعدك على معرفة أين يحتاج أبناؤك إلى النظام والرعاية والقيادة.

الأسهم في الشكل التالي تمثل المؤثرات التي تشكل الحياة. هذه المؤثرات، سواء داخل أو خارج دائرة تحكم الوالدين، تأتي إلى الطفل وتؤثر على حياته بشكل قوي.

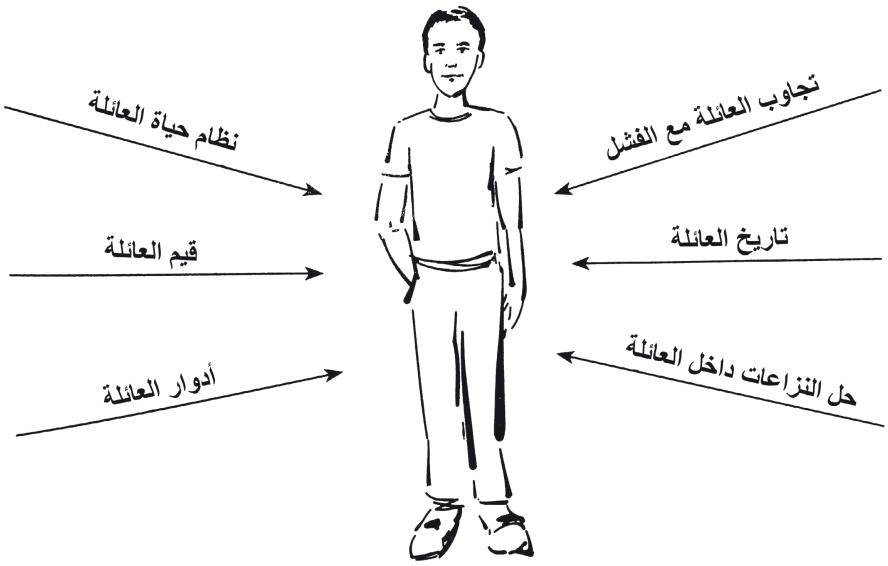

شكل٢- المؤثرات التي تشكّل حياة الأبناء

نظام حياة العائلة

أحد الأسهم يوضح نظام حياة العائلة. هل العائلة تمثل نموذج العائلة الصغيرة التقليدية؟ كم عدد الآباء والأمهات التي يتعرض لهم الطفل؟ هل هي عائلة من جيلين أو ثلاثة؟ هل يتفاعل كلا الوالدين بحيوية داخل البيت؟ ما هو نظام ترتيب أدوار الوالدين؟ هل هناك أطفال آخرين، أم أن الحياة العائلة تدور حول طفل واحد؟ ما هو ترتيب الأولاد حسب العمر؟ ما هي شكل العلاقة بين الأبناء؟ هل يتقارب الأبناء أم يتباعدون عن بعضهم البعض من حيث العمر، والقدرات، والاهتمامات، والشخصية؟ إلى أي مدى تتوافق شخصية الطفل مع أفراد الأسرة الآخرين؟

جاءت Sally وزوجها طلبًا للمشورة. كانا زوجين حديثين ويواجهان مشكلات في التأقلم. أحد أصعب العراقيل بالنسبة لسالي هي أن زوجها لا يرتب حياته على وجودها

في حياته. عاشت كطفلة وحيدة. وبينما كان أبواها يدللانها بإغداقها بالهدايا، فإنهما جعلاها تطلب وتحتاج أن تكون في الأولوية دائمًا. الآن تشعر أنها غير محبوبة، لأن زوجها لم يرتب حياته وفقًا لرغباتها. لقد أثَّرت حياتها بين عائلتها تأثيرًا عميقًا على تشكيل احتياجاتها وتوقعاتها من زوجها.

قيم العائلة

سهم آخر يشير إلى قيم العائلة. ما هي الأشياء المهمة لدى العائلة؟ ما الذي يستحق الوقوف عنده، وما الذي يعبر دون الالتفات إليه؟ هل الأشخاص أهم من الأشياء؟ هل يتضايق الوالدان على خرق في بنطلون المدرسة أكثر من شجار حدث مع زميل الفصل؟ ما هي الفلسفات والأفكار التي سمعها الطفل في بيته؟ هل يُشاهد الأبناء ولكن لا أحد يسمعهم؟ ما هي القواعد المعلنة وغير المعلنة لحياة العائلة؟ أين مكان الله داخل حياة العائلة؟ هل الحياة تدور حول معرفة الله ومحبته، أم أن العائلة تدور في فلك مختلف عن هذا؟ «**اُنْظُرُوا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ، حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ، حَسَبَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، وَلَيْسَ حَسَبَ الْمَسِيحِ**» (كولوسي ٢: ٨). السؤال الذي يجب أن تسأله هو: هل القيم الموجودة في بيتك مبنية على أركان هذا العالم أم على المسيح؟

سألت مؤخرًا فتىً في العاشرة ما الذي سيدخله في مشكلة عويصة: أن يكسر مزهرية قيمّة أم يعصي أمرًا واضحًا لوالديه. وبدون أن يتردد لحظة قال سيكون الأمر أسوًا جدًا إذا كسر مزهرية قيمة. هذا الفتى تعلَّم القيم الموجودة في بيته. لقد أدرك قيمة غير معلنة تقول إن المزهريات الثمينة تمثّل أمرًا هامًا لوالديه أكثر من أطفال يعصون أوامرهما. هذه القيم مبنية على فلسفات خاوية وباطلة.

هناك جوانب أخرى لقيم العائلة. ماذا عن الحدود داخل العائلة؟ أين تُحفظ الأسرار، ومتى يُفصح عنها؟ هل العلاقات مع الجيران منفتحة بشكل طبيعي أم منغلقة؟ ما هو ارتفاع الأسوار حول العائلة؟ وأين يمكن اختراق هذه الأسوار؟ بعض العائلات لا يمكن أن تخبر أقاربهم بمشكلاتهم، وإنما يمكن أن يفصحوا بكل شيء بحرية

لأحد الجيران. آخرون قد ينادون على أخ للمساعدة، ولا يمكن أن يفعلوا هذا مع أحد الجيران (على عكس النصيحة الواردة في أمثال ٢٧: ١٠). بعض الأطفال يكبرون وهم لا يعرفون أبدًا كم يكسب الأب من المال، بينما آخرون يعرضون أرصدة والديهم في أي وقت. بعض الآباء والأمهات يكتمون أسرارًا عن أبنائهم، وبعض الأبناء يشاركون بأسرار ولكن ليس مع والديهم. أحيانًا يكون للأم مع أبنائها أسرار عن الأب. وأحيانًا يكون للأب مع أبنائه أسرار عن الأم. كل عائلة تقيم حدودًا داخل العائلة، وقد لا يتم التحدث عنها أو التفكير فيها، ولكنها تكون موجودة.

الأدوار داخل العائلة

داخل بنيان الأسرة هناك أدوار يلعبها كل فرد في العائلة. بعض الآباء يشتركون في كل جوانب الحياة العائلية. آخرون مشغولون وبعيدون عن الأنشطة العائلية. بعض الأمور غير الواضحة مثل مَنْ يدفع الفواتير أو مَنْ يحدد مواعيد العائلة تقول الكثير عن أدوار العائلة. الأطفال لهم أدوار داخل العائلة أيضًا. أعرف بيتًا يُطلب فيه من الأبناء أن يلبِسوا أباهم الجوراب والحذاء؛ لأنه بدين ويجد صعوبة في عمل ذلك بنفسه. وبطريقة قاسية وجافة يُطلب منهم هذه الخدمة، ويصدر مقولات قوية عن مكانتهم في الحياة العائلية يكون لها تأثير كبير في تشكيل حياة الأبناء.

حل الخلافات داخل العائلة

أي أحد يعمل في المشورة الزوجية يقدر أن يشهد لقوة تأثير العائلة في مسألة حل المشكلات. هل تعرف العائلة كيف تتحدث عن مشاكلها؟ هل يحل أفراد العائلة أمورهم أم أنهم ببساطة يتجنبون المشاكل؟ هل تُحل المشكلات بالقوة أم بالمبادئ الكتابية؟ هل يستخدم أفراد العائلة إشارات غير لفظية، مثل باقة ورد لحل الخلافات؟ يقول سفر الأمثال: «**طَرِيقُ الْجَاهِلِ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيْهِ، أَمَّا سَامِعُ الْمَشُورَةِ فَهُوَ حَكِيمٌ. غَضَبُ الْجَاهِلِ يُعْرَفُ فِي يَوْمِهِ، أَمَّا سَاتِرُ الْهَوَانِ فَهُوَ ذَكِيٌّ.**» (أمثال ١٢: ١٥-١٦). أي طفل يُربي ليكون أحمق أو ذكي أو حكيم من خلال التأثيرات التي تشكل حياتهم في البيت.

يُصاب Sammy بالجنون، ويجري من غرفة الدراسة في كل مرة لا يروق له ما يجري. دعى المعلم والـدي Sammy لحضور مؤتمر. غضب والد Sammy في المؤتمر وتـرك الغرفة فجأة. وبالتالي فهم المعلّم جيدًا لماذا يتصرف الطفل على هذا النحو.

استجابة العائلة للفشل

هناك أمر آخر يعمل على تشكيل حياة الأبناء وهو كيف يتعامل الأبوان مع إخفاقات الأبناء. تمتلئ الطفولة بمحاولات خرقاء ومجهودات فاشلة. الأطفال غير الناضجين الذين يتعلمون اتقان مهارات العيش في عالم معقد حتمًا سيرتكبون أخطاءً.

المسألة الأهم بالنسبة لأهدافنا تتمثل في كيفية معالجة هذه الإخفاقات. هل يجعل الأبوان أبناءهم يشعرون بأنهم أغبياء؟ هل يتعرض الأبناء للسخرية بسبب إخفاقاتهم؟ هل تجد العائلة تسلية على حساب أحد أفراد العائلة؟ بعض الآباء والأمهات يظهرون قدرة عجيبة لرؤية المحاولات الفاشلة كمجهودات تستحق المديح. هؤلاء الآباء والأمهات يشجعون دائمًا، وهم ماهرون في إبطال تأثير الفشل. وسواء تلقى الطفل مديحًا صادقًا، أو انتقادًا ساخرًا، أو المزيج بينهما، سيمثل هذا عاملاً مؤثرًا قويًا في حياته.

تاريخ العائلة

الأمر الآخر هو التاريخ الخاص بكل عائلة. هناك أفراد في العائلة يولدون وآخرون يموتون. هناك زيجات وحالات انفصال. تختبر العائلات استقرارًا أو اضطرابًا اجتماعيًا. هناك ما يكفي من المال أو لا يوجد ما يكفي منه. البعض ينعم بصحة جيدة، بينما يضطر البعض الآخر إلى ترتيب حياتهم حسب الظروف الصحية أو المرضية. البعض لديهم جذور عميقة في منطقة سكنهم، بينما آخرون متنقلون باستمرار.

قضيت مؤخرًا بعض الوقت أساعد امرأة في تصنيف الأحداث التي مرت بها طفولتها. ودار الحديث بيننا كالتالي:

س: كم مرت انتقلتم في السكن خلال طفولتكِ؟

ج: مرات كثيرة.

س: خمس أم عشرة مرات؟

ج: لا.. أكثر من ذلك!

س: أقل من عشرين مرة؟ (وهنا توقفت لدقائق لتفكّر وتحسب).

ج: أكثر بكثير من عشرين مرة.

ثم أخبرتني بعد ذلك أنها وأختها حسبتا ٤٦ انتقالاً قبل سن الثامنة عشرة. من المؤكد أن تاريخ هذه العائلة قد شكّل بعمق في قيم هذه المرأة وآرائها.

هذه القائمة المختصرة تعبّر فقط عن الظروف التي تؤثر على حياتنا. ولا يمكن إنكار تأثير هذه الأمور.

أخطاء في فهم المؤثرات التي تشكّل حياة الأبناء

يقع الكثيرون في خطأين في التفاعل مع المؤثرات التي تشكّل في الحياة. الخطأ الأول هي رؤية هذه المؤثرات بشكل جبري وحتمي. إنه الخطأ في افتراض أن الطفل ضحية عاجزة للظروف التي تربى فيها. الخطأ الثاني هو الإنكار. إنه الخطأ بالقول أن الطفل لا يتأثر بخبرات طفولته المبكرة. بعض النصوص الكتابية مثل أمثال ٢٩: ٢١ توضح أهمية خبرات الطفولة المبكرة. في هذه الآية نرى أن الخادم الذي دُلل في صباه يتأثر بشكل يجلب عليه الحزن في النهاية.

الإنكار والجبرية (القدرية) كلاهما غير صحيح. يجب أن نفهم هذه المؤثرات من وجهة النظر الكتابية. هذا الفهم سيساعدك في مهمتك كأب أو كأم.

أنت ترتكب خطأً فادحًا إذا استنتجت أن تربية الأطفال ليست أكثر من توفير أفضل المؤثرات الممكنة لأطفالك. كثير من الآباء والأمهات المسيحين يتبنون «قدرية مسيحية». فهم يرون أنه إذا أمكنهم حماية طفلهم بشكل كافٍ، وإذا أمكنهم أن يبقوا إيجابيين معه،

وإذا أمكنهم إرساله إلى مدارس مسيحية، أو إذا وفروا له تعليمًا منزليًا، وإذا أمكنهم توفير أفضل خبرة طفولية ممكنة، فإن طفلهم سيكون بخير.

هؤلاء الآباء والأمهات متأكدون أن البيئة الصحيحة ستنتج طفلاً صحيحًا. ويتصرفون تقريبًا كما لو كان الطفل خاملاً (لا يتفاعل). هذا الوضع ببساطة هو نوع من القدرية في زي مسيحي.

لديّ صديق يعمل كفخاري، وأخبرني أنه يستطيع فقط صنع الوعاء بحسب ما يسمح الخزف له بأن يصنعه. الخزف ليس مجرد شيء سلبي في يديه. الخزف يتجاوب معه. بعض أنواع الخزف مرن وطيّع، البعض الآخر يتفتت ويكون صعب التشكيل.

تحمل ملاحظته تشبيهًا جيدًا: لابد أن تهتم بتوفير أفضل المؤثرات المستقرة التي تشكل حياة الأبناء، لكنك لا تفترض أبدًا أنك تشكل خزفًا سلبيًا. الخزف يتجاوب مع التشكيل. إمّا يقبل أو يرفض القولبة.

الأطفال ليسوا مستقبلين سلبين للتشكيل، وإنما يتجاوبون بشكل إيجابي. يتجاوب ابنك أو ابنتك بناءً على مدى تركيزه نحو الله في حياته أو حياتها. إذا كان طفلك يعرف الله ويحبه، وإذا كان طفلك قد قبل حقيقة أن معرفة الله تمكنه من اختبار السلام في أية ظروف، حينئذٍ سيتجاوب بشكل بنّاء مع مجهوداتك في تشكيل حياته. إذا لم يعرف طفلك الله ويحبه، لكنه يحاول إشباع عطش نفسه بالشرب من «**أَبْآرًا مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً**» (إرميا ٢: ١٣)، فإن طفلك ربما يتمرد ضد أفضل مجهوداتك. لابد أن تفعل كل ما دعاك الله لتفعله، لكن النتيجة أكثر تعقيدًا من سواء فعلت الأمور الصحيحة بالطريقة الصحيحة أم لا. أطفالك مسؤولون عن الطريقة التي يتجاوبون بها مع تربيتك.

القدرية تجعل الوالدين يستنتجون أن العوامل الجيدة للتأثير ستنتج تلقائيًا أطفالاً جيدين. هذا غالبًا يثمر ثمارًا مُرة في مرحلة لاحقة في الحياة. الآباء والأمهات الذين لديهم مراهق أو شاب متعب وصعب المراس يستنتجون أن المشكلة هي المؤثرات التي وفروها له. ويعتقدون أنهم إذا كانوا وفروا بيئًا أفضل كثيرًا، كانت الأمور ستصبح على ما يرام.

وينسون أن الطفل لا يتحدد أبدًا بالمؤثرات التي تشكّل حياته فقط. تذكر أن أمثال ٤: ٢٣ يُعلّمنا أن القلب هو منبع الحياة. إن قلب طفلك يحدد كيف سيتجاوب مع تربيتك له.

كان الأستاذ Everett وزوجته لديهما ابن متمرد يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. وكانا يدركان أنهما ارتكبا جملة من الأخطاء في التربية. ومع ذلك فأخطاؤهم أعمتهم عن احتياجات ابنهما. عندما كانا يريان ابنهما، كانا يريان فشلهما. ونتيجة لذلك لم يريا أبدًا أنه صبي كان يختار أن يخطئ. وفشلا في رؤية انه كان يختار ألا يؤمن بالله ويطيعه. لم يكونا أبوين كاملين، كان هذا حقيقيًا. ومع ذلك لم يكن ابنهما ابنًا صالحًا، وكان هذا حقيقيًا أيضًا.

لقد أخفقا أن يريا حقيقة أن البشر هم مخلوقات يتحركون بتوجهات قلوبهم. الطفل لا يكون خاملاً في طفولته. إن أبناءك يتجاوبون مع الحياة. هذا يقودنا إلى الفصل التالي والشكل التالي.

أسئلة التطبيق في الفصل ٢

١- ما هي أبرز العوامل المؤثرة التي شكّلت حياتك كطفل؟

٢- كيف كان نظام عائلتك؟ كيف أثّر ذلك في ابنك أو ابنتك؟

٣- ما هي القيم التي يرصدها أبناؤك في عائلتك؟ ما هي أهم الأشياء إليك؟

٤- أين هي الأسرار في بيتك؟ هل تشارك بقدر أبناءك بقدر أكبر وبالتالي تثقل عليهم بأكثر مما يحتملون؟ أم تشارك بقدر ضئيل جدًا، وبالتالي تعزلهم عن الحياة والاعتماد على الله؟

٥- مَن هو القائد في بيتك؟ هل هناك سلطة مركزية، أم أن عائلتك تصنع القرارات بالتفاوض؟

٦- ما هو أسلوبك في حل الخلافات؟ كيف أثر هذا الأسلوب على أبناءك؟ هل التغيير ضروري؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فما هو التغيير المطلوب؟

٧- ما الذي يحدد النجاح أو الفشل في بيتك؟

٨- ما هي الأحـداث المحورية في تاريخ عائلتك؟ كيف أثـرت هذه الأحـداث عليك؟ وكيف أثرت على أبناءك؟

٩- هل تميل إلى القدرية في نظرتك إلى تربية الأبناء؟ هل أنت قادر على رؤية أبناءك كأشخاص يتجاوبون مع العوامل المؤثرة في حياتهم؟ كيف ترى استجاباتهم؟

الفصل الثالث

نمو طفلك:
التوجّه نحو اللّه

عندما كنتُ في الجامعة، اجتزتُ أول تجربة لي في الإبحار. أتذكّر شعوري بالانبهار عندما تعلّمت أن اتجاه القارب لا يتحدد باتجاه النسيم، وإنما باتجاه الشراع. بمعنى أو بآخر، يشبه التوجه نحو الله ضبط الابحار في حياة الطفل. بصرف النظر عن المؤثرات التي تشكّل حياة الطفل، فإن توجهه نحو الله هو الذي يحدد تجاوبه مع هذه المؤثرات.

هناك مقارنة في سفر الأمثال ٩: ٧-١٠ بين استجابة المستهزئ والحكيم للتوبيخ والتعليم: «**مَنْ يُوَبِّخْ مُسْتَهْزِئًا يَكْسَبْ لِنَفْسِهِ هَوَانًا، وَمَنْ يُنْذِرْ شِرِّيرًا يَكْسَبْ عَيْبًا. لاَ تُوَبِّخْ مُسْتَهْزِئًا لِئَلاَّ يُبْغِضَكَ. وَبِّخْ حَكِيمًا فَيُحِبَّكَ. أَعْطِ حَكِيمًا فَيَكُونَ أَوْفَرَ حِكْمَةً. عَلِّمْ صِدِّيقًا فَيَزْدَادَ عِلْمًا**». تساعدنا الآية (١٠) على فهم ما الذي يحدد في النهاية هل سيتستجيب الطفل كمستهزئ أم كإنسان حكيم. إنها مخافة الله التي تجعل الإنسان حكيمًا، إنها الحكمة التي تحدد كيف يتجاوب الإنسان للتقويم.

التوجّه نحو اللّه

الشكل التالي يصوّر الطفل ككائن يدخل في معاهدة. أستخدم هذا التعبير ليذكرنا أننا جميعًا كائنات بشرية لديها توجه نحو الله. كل واحد منا متدين بطبعه. الأطفال أيضًا يميلون إلى العبادة. سواء إلى عبادة الرب أو عبادة الأوثان. وهم ليسوا محايدين أبدًا. إن أبناءك يقومون بفلترة التجارب الحياتية من خلال مصفاة ذات طبيعة دينية.

يقول الرسول بولس في رسالة رومية: «**أَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ. إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ**» (رومية ١: ١٨-١٩)، وبلغة رسالة رومية أصحاح ١، فإمّا أن يستجيب أبناؤك لله بالإيمان، أو يحجزوا الحق بالسلوك في الشر.

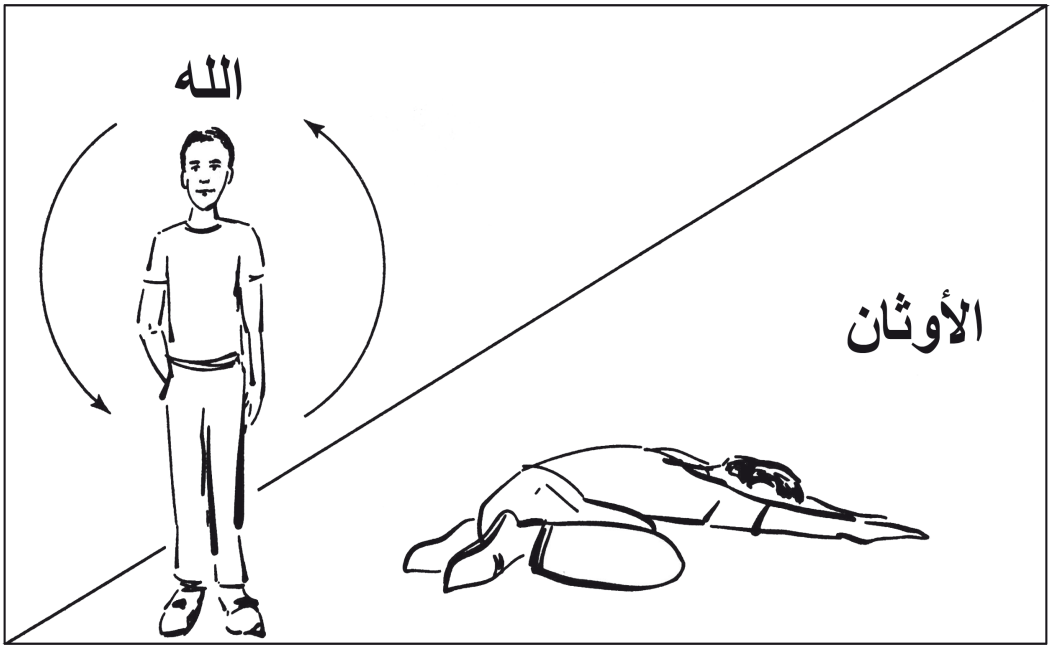

(شكل ٣: التوجه نحو الله)

وإذا تجاوبوا مع الله بالإيمان، فإنهم سيجدون الشبع في معرفة الله وعبادته. أمّا إذا حجزوا الحق بالشر، سيعبدون في النهاية الخليقة بدلاً من الخالق. هذا هو المعنى المقصود بالعبارة التي اَستخدمها «التوجه نحو الله».

الاختيار بين طريقين

الجزء الأعلى شمالي الشكل يُظهر شخصًا يعبد الله الواحد الحقيقي. السهم الخارج من كلمة «الله» يمثّل الله الصالح والقدّوس والرؤوف، والذي خلق كل شيء لمجده.

فهو الذي تحت رحمته البادئة والمستمرة تسكن كل الخلائق. وعندما تعرفه فهذا معناه أن تعرف الحياة. أمّا السهم الذي يشير إلى كلمة «الله» يمثل توجه القلب نحو الله؛ حيث يستجيب الإنسان إلى صلاح الله ورأفته في حب وابتهاج وعبادة. ويرغب الإنسان في معرفة الله أكثر وعبادته بشكل أفضل. الجزء الأيمن السفلي في الشكل يظهر شخصًا بَدَّل الحق بكذبة، ويعبد ويخدم أشياء مخلوقة بدلاً من الخالق. وهو ساقط في الوثنية، وينحني أمام أشياء أخرى غير الله لا تستطيع أن تشبع.

من المؤكد أن الطفل الصغير لا يدرك التزامه الديني، لكنه ليس محايدًا أبدًا. ولأنه مخلوق على صورة الله، فهو مصمم بتوجه نحو العبادة. وحتى وهو طفل صغير، إمّا أنه يعبد ويخدم الله أو الأوثان.

يذكّرنا داود النبي بهذا في مزمور ٥٨: ٣ بقوله: «**زَاغَ الأَشْـرَارُ مِنَ الرَّحِمِ. ضَلُّوا مِنَ الْبَطْنِ، مُتَكَلِّمِينَ كَذِبًا.**» كذلك كلمات المزمور ٥١ مألوفة أكثر عندنا: «**هأَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي**» (مزمور ٥١: ٥). هذه الآيات تعلّمنا الكثير. حتى الطفل في رحم الأم والخارج من الرحم هو معاند وخاطئ. إن أبناءك ليسوا محايدين أبدًا من الناحية الأخلاقية، ولا حتى وهم في الرحم.

أحد مبررات استخدام الضرب للأطفال هو أن: «**اَلْجَهَالَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِقَلْبِ الْوَلَدِ. عَصَا التَّأْدِيبِ تُبْعِدُهَا عَنْهُ**» (أمثال ٢٢: ١٥). فكرة الآية أنه يوجد شيء خطأ في قلب الطفل يحتاج إلى تقويم. والعلاج ليس فقط تغيير نظام البيت، وإنما مواجهة القلب.

القلب ليس محايدًا

ولأنه لا وجود لشيء يُسمى حيادية الطفولية، فإمّا يعبد أبناؤك الله أو الأوثان. هذه الأوثان ليست تماثيل خشبية أو حجرية صغيرة. وإنما هي أوثان خفية في القلب. يصف الكتاب المقدّس هذه الأوثان باستخدام تعبيرات مثل «الخوف من الإنسان»، والرغبات الشريرة، والشهوات، والكبرياء. كذلك من بين هذه الأوثان التشبُّه بالعالم، وتبنّي عقلية دنيوية، و«أن تضع قلبك على ما هو أسفل». ما نقصده هو أي نوع

من الدوافع أو الرغبات أو الاشتياقات أو الآمال أو التوقعات التي تحكم قلب الطفل. تذكّر أن هذه الأشياء لا تحتاج إلى التعبير عنها حتى تكون موجودة.

بينما يتفاعل أبناؤك مع خبرات الطفولة، فإنهم يتفاعلون بناءً على توجههم نحو الله. وإمّا أن يتجاوبوا مع الحياة كأبناء الإيمان يعرفون الرب ويحبونه ويعبدونه. وإمّا أن يتجاوبوا كأبناء الحماقة وعدم الإيمان، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه. الفكرة هي: إنهم يتجاوبون حتمًا، وإنهم ليسوا محايدين. وليسوا ببساطة مجموع ما نضعه أنا وأنت في نفوسهم. إنهم يتفاعلون مع الحياة إمّا عن عهد إيمان حقيقي أو عن عهد عدم إيمان وثني.

الطفل سيعبد مَنْ؟

لابد أن نكون واضحين في هذا الأمر. التربية لا تمثل إحداث تأثير جيد فقط، وليست فقط خلق مناخ بنّاء في البيت أو تفاعل إيجابي بين الطفل ووالديه. هناك بُعد آخر. إن الطفل يتفاعل مع الله الحي. إمّا أن يعبد الله ويخدمه وينمو في فهم ماهية الله، أو إنه يسعى لإيجاد منطق للحياة بدون علاقة مع الله.

إذا عاش الطفل كأحمق يقول في قلبه لا يوجد إله، فهو لا يتوقف عن العبادة؛ لأنه ببساطة يعبد ما ليس إلهًا. جزء من دور الوالدين أن يرعوه كمخلوق عابد بطبيعته، ويوجّهونه إلى الله الواحد الذي يستحق وحده العبادة. السؤال ليس «هل سيعبد؟»، وإنما السؤال دائمًا «سيعبد مَنْ؟».

مضامين عملية التربية

هذا الأمر الخاص بالتوجه نحو الله يفصل بين ما تقرأه الآن وبين معظم الكتب عن تربية الأطفال. معظم كتب التربية تؤلف لمساعدتك على القيام بالمهمة على أفضل وجه عن طريق توفير عوامل تأثير بنّاءة تشكّل حياة الآبناء. وكل أنواع النصائح والأفكار المبتكرة تُقدَّم بهدف إيجاد أفضل العوامل المؤثرة والمتوافقة مع الكتاب المقدّس، على أمل أن يتجاوب الطفل بشكل جيد، ويصبح على ما يرام. لا أقدّم فقط بعض

الأفكار عن الشكل الكتابي للحياة، ولكني أقدّم مداخل لقيادة ورعاية الطفل من خلال الوصول إلى قلبه.

تذكر أمثال ٤: ٢٣، أن الحياة تنبع من القلب. لا يصح أن يهتم الآباء والأمهات فقط بالعوامل الإيجابية التي تؤثر وتشكل حياة الأبناء، ولكن لابد من رعاية القلب. الحياة تتدفق من القلب.

أنا مهتم بمساعدة الآباء والأمهات على الانخراط في حرب شرسة على أصغر أرض للمعارك في العالم: قلب طفل. يجب أن تتفاعل مع أبناءك كمخلوقات على صورة الله بمقدورهم أن يجدوا الشبع والسعادة فقط في معرفة الله الحي وعبادته.

إن المهمة الموكلة إليك في التربية لها علاقة مباشرة ودائمة مع كلا الأمرين كما يوضح الشكل. يجب أن توفر أفضل المؤثرات الممكنة التي تشكّل حياة أبناءك. وأن يعكس نظام بيتك الاستقرار والأمان الذين يحتاجون إليهما. ويجب أن تعكس نوعية العلاقات في بيتك نعمة الله والرحمة لمَنْ يخطئ كما تظهرها شخصية الله. يجب أن تكون العقوبات التي تُطبق ملائمة لتعكس نظرة الله القدوس للخطية.

يجب أن تكون القيم التي تتبناها في بيتك من تعاليم الكتاب المقدّس. ويجب أن تتحكم في سير الأحداث بحيث لا يصبح بيتك فوضويًا وإنما مرتب ومنظم جدًا. ويجب أن توفر مناخًا صحيًّا وبنّاءً لطفلك.

وعندما تُقال وتُنفذ كل هذه الأشياء، وبالرغم أنها مهمة للغاية، فإن القصة لا تنتهي مُطلقًا. لا يمثّل طفلك نتاج هذه المؤثرات فقط، لكنه يتفاعل مع كل هذه الأشياء. إنه يتفاعل وفقًا لطبيعة اختيارات العهد الذي يصنعه. إمّا أن يتجاوب مع صلاح الله ورحمته في إيمان، وإمّا أن يتجاوب في عدم إيمان. إمّا أن يكبر ليحب الله الحي ويضع ثقته فيه، أو يتحول إلى أشكال متنوعة من الوثنية والتمركز حول الذات. ليست القصة في طبيعة المؤثرات التي تشكل حياة الطفل، ولكن كيف تجاوب الطفل مع الله في سياق هذه المؤثرات.

وطالما كان توجه قلب الطفل نحو الله هو الذي يحدد تجاوبه مع الحياة، فلا يمكنك أن تستنتج أن مشكلاته هي ببساطة الافتقار إلى النضوج. فلا أحد يكبر على الأنانية. ولا أحد يكبر على التمرد ضد السلطة. لا أحد يكبر على هذه الأمور؛ لأنها ليست علامات على عدم النضوج وإنما علامات على الوثنية في قلب طفلك.

كان ألبرت الصغير طفلاً مخادعًا. كان يفعل أشياءً من وراء أبيه. كان يكذب حتى عندما لا يكون الكذب في مصلحته. وكان يسرق نقودًا من البيت كثيرًا. وكان أبوه يصر على تفسير هذا السلوك على أنه افتقار للنضوج. كان ألبرت غير ناضج، ولكن لم يكن هذا سببًا لعدم أمانته. السبب في أنه ليس جديرًا بالثقة هو أنه كان إنسانًا خاطئًا. كان ألبرت يحاول أن يجد منطقًا للحياة بدون الله. وفي وثنية تمرده ضد سلطة الله وإصراره أن يكون مرجعية لنفسه، أصبح غير جدير بالثقة. وكان والد ألبرت عاجزًا عن مساعدة ابنه حتى بدأ يرى أن سلوك ألبرت يعكس قلبًا تخلّى عن الله.

أهمية التوجه نحو اللّه

تكشف القصص الكتابية عن أن المؤثرات التي تشكّل حياة الأبناء لا تمثل القصة كلها. تأمل يوسف. كانت طفولته بعيدة كل البُعد عن المثالية. ماتت أمه بينما كان لا يزال صغيرًا. كان محبوب أبيه. أثارت أحلامه كراهية إخوته له. وصار متغربًا عنهم أكثر بسبب القميص الذي أهداه إليه والده والذي أعطاه سلطة على إخوته. خانه إخوته، ورموه في البئر. وأحضروه تجار انتهازيون ليربحوا من بيعه مرة أخرى. غُدر به في بيت فوطيفار بالرغم من شرفه ونزاهته. وُضع في السجن. وحتى في السجن تخلى عنه مَنْ ساعدهم. وبالتالي نتوقع أن نجد رجلاً يشعر بالمرارة والسخط والاستياء والغضب. ولو كان الإنسان هو نتاج المؤثرات التي شكلته، لكانت هذه هي النتيجة. ولكن ماذا نجد؟ عندما انبطح إخوته على الأرض مترجين رحمته، قال يوسف لهم: «**لاَ تَخَافُوا. لأَنَّهُ هَلْ أَنَا مَكَانَ اللهِ؟ أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا، أَمَّا اللهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا، لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ، لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا. فَالآنَ لاَ تَخَافُوا. أَنَا أَعُولُكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ. فَعَزَّاهُمْ وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ.**» (تكوين ٥٠: ١٩-٢١).

كيف نفسّر حالة يوسف؟ كانت لديه عدسته التي يرى من خلالها أحداث حياته. وفي ظل مؤثرات صعبة، وضع ثقته في الله. جعله الله إنسانًا يتجاوب من منطلق علاقة حيّة مع الله. لقد أحب الله ووجد توجهه ليس في المؤثرات التي تشكل حياته، ولكن في محبة الله الأبدية ومراحم عهده الثابتة.

ماذا عن خادمة زوجة نعمان السرياني؟ اختطفها جنود الأعداء من بيتها في إسرائيل، وجعلوها خادمة لقائد سرياني. كانت الفتاة جزءًا من غنيمة حرب. وكانت المؤثرات التي تشكّل حياتها أبعد ما تكون عن المثالية، لكنها كانت أمينة من نحو الرب. عندما احتاج سيدها إلى الشفاء، عرفت مكان النبي في إسرائيل. لم يكن ملك إسرائيل يعرف النبي، ولم يكن له إيمان عميق بقوة الله؛ فقد تجاوب مع الأحوال الطارئة بخوف وعدم إيمان (انظر ملوك الثاني ٥: ٦-٧). لماذا تجاوبت الفتاة بطريقة مختلفة؟ من الواضح أن هناك شيئًا يؤثر على الشخص أكثر من المؤثرات التي يتعرض لها في حياته. هذه فتاة تعلّمت الإيمان بالرب، واحتفظت بهذا الإيمان بالرغم من الظروف الصعبة التي تربت فيها.

ملخّص

هذه هي الفكرة. هناك أمران يشكلان شخصيات أبنائنا: (١) المؤثرات الحياتية التي يتعرضون لها. (٢) توجههم نحو الله. لهذا لابد أن تخاطب تربيتك كلا الأمرين. ويجب أن تهتم بكيف ترتب هذه المؤثرات الحياتية التي تقع تحت دائرة تأثيرك (هناك أشياء كثيرة ليست تحت تأثيرك مثل: الوفاة.. وهكذا). الأمر الثاني، لابد أن ترعى بشكل إيجابي التوجه نحو الله في نفوس أبناءك. في كل هذا لابد أن تصلّي أن يعمل الله في مجهوداتك واستجابات أبناءك ليصيروا أناسًا يعرفون الله ويكرمونه.

شكل ٢ و٣ يقدّمان الاتجاه والتوجيه بينما تسعى لفهم مهمتك كأب أو كأم. وبينما تهتم بتوفير مؤثرات حياتية كتابية، لابد أن ترعى قلوب أبناءك في اتجاه معرفة الله وعبادته.

في الفصل التالي سنتعرض إلى القضايا التربوية الأساسية. ماذا يعني أن يعمل الأب أو الأم كوكيل عن الله؟ ما هي طبيعة مهمتك؟ ما هو دور التأديب والتقويم؟

أسئلة للتطبيق في الفصل ٢

١- هل تميل إلى فكرة القدرية في نظرتك إلى تربية الأبناء؟ هل أنت قادر على رؤية استجابة إيجابية لأبناءك تجاه المؤثرات التي تشكل حياتهم؟ كيف ترى استجابتهم؟

٢- في رأيك ما هو توجه أبناءك نحو الله؟ هل ترتكز حياتهم واستجاباتهم حول الله كأب وراعٍ وربٍ وسيدٍ وملك؟ أم تراهم يعيشون للمتعة والاستحسان والقبول أو أي إله آخر مزيف؟

٣- كيف تخطط لأساليب جذابة ومرحة لتتحدى بها الوثنية التي ربما تراها في قلب طفلك؟

٤- كيف تجعل تركيزك في التقويم (التأديب) على الأمور الصميمة المتعلقة بالتوجه نحو الله؟ كيف تستطيع أن تساعد ابنك أن يرى أنه يضيّع نفسه في أشياء لا تستطيع أن تشبعه؟

٥- هل تقضي أنت وشريك حياتك وقتًا في الصلاة لله ليعلن ذاته لأبناءك؟ في النهاية الله هو الذي يحرك قلوب أبناءك.

الفصل الرابع

أنت المسؤول

كان الصبيّان يصلحان عربتهما على سطح البيت. وذهبت ابنتنا إليهما لتدعوهما لتناول العشاء.

وقالت لهما بنبرة سلطوية: «عليكما أن تنزلا الآن، وتستحما، وتستعدا للعشاء. الآن فورًا!»

وعندما عادت الابنة بمفردها، سألت زوجتي «هل سينزل الصبيّان؟»

فأجابت الفتاة: «لقد ناديت عليهما»، بنظرة أخفت محاولتها في ممارسة السطة على الصبيّان.

لماذا لم يأتِ الصبيّان؟ لأن أختهما هي التي نادت عليهما، ولم يكونا مستعدين لإطاعة سلطتها.

عادت الابنة مرة أخرى إلى مكان الصبيان بنفس الرسالة، وأضافت المزيد من الكلمات الصارمة «قالت أمي...»

لم يكن لابنتنا السلطة لتأمر الصبيان بالحضور. في المرة الثانية نادتهما بصفتها وكيلة عن الأم. فعرف الصبيّان أنه حان الوقت للحضور فورًا.

مغالطات حول السلطة

ثقافتنا لا تحب السلطة. ليس فقط أننا لا نحب أن نكون تحت سلطة، ولكننا لا نحب أيضًا القيام بدور السلطة. أحد الأماكن التي يظهر فيها هذا الشيء بوضوح هو عدم الارتياح تجاه السلطة في البيت.

نحتاج لفهم كتابي للسلطة. الأسئلة تتزايد حول هذا الأمر. ما هي طبيعة سلطة الوالدين على الطفل؟ هل هي سلطة مطلقة أم نسبية؟ هل مُنحت السلطة للوالدين لأنهما أكبر حجمًا من الأطفال الصغار؟ هل نتولى نحن المسؤولية لأننا أكثر ذكاءً وأكثر خبرة؟ هل دعوتنا لهذه السلطة لأننا لسنا خطاة والأطفال خطاة؟ هل نملك الحق في أن نخبر أبناءنا بأي شيء نريدهم أن يفعلوه؟

إذا لم تُجب على مثل هذه الأسئلة، ستصبح مترددًا وغير واثق في نفسك عند تنفيذ واجبك تجاه الله وتجاه أبناءك. إذا لم تكن متأكدًا بشأن طبيعة هذه السلطة ومداها، فإن أبناءك سيعانون كثيرًا. ولن يعرفوا أبدًا ماذا يتوقعون منك، لأن القواعد الأساسية ستتغيّر باستمرار. ولن يتعلّموا أبدًا الثوابت المطلقة ومبادئ كلمة الله التي تعلِّم الحكمة وحدها.

البيئة التي نعيش فيها ليس لديها فهم كتابي للسلطة. نحن نفكّر في السلطة إمّا أنها مستمدة من القوة الغاشمة أو الرضوخ. لهذا فإن الطريقة الوحيدة للاستجابة هي إمّا التمرد أو الخنوع. ثقافتنا ليس لديها أية فكرة عن أشخاص أذكياء يفكرون ومستعدون في نفس الوقت لوضع أنفسهم تحت سلطة. عندما نسمح لأبنائنا أن يصبحوا مستقلين في صنع قراراتهم، فإننا نعطيهم فكرة خاطئة عن الحرية الشخصية، وفكرة مغلوطة عن الحرية السياسية. الحرية ليس لها مكان في الذاتية، بل في الطاعة (مزمور ١١٩: ٤٤-٤٥).

في ثقافتنا كثيرًا ما يرتجل الآباء والأمهات لأنهم لا يفهمون الوصية الكتابية برعاية الأبناء. وكثيرًا ما تكون الأهداف التربوية ليس أكثر من راحة وسهولة فورية. عندما يطلب الآباء والأمهات الطاعة لأنهم يشعرون أنهم تحت ضغط، فإن طاعة الأبناء تتلخص في التخفيف عن الوالدين. لابد أن يفهم الآباء والأمهات المسيحيون بوضوح طبيعة التربية التي ترضي الرب، ولابد أن يُربى الأبناء على أن الله يدعوهم للطاعة دائمًا.

مدعوون لتحمُّل المسؤولية

كأب أو كأم لديك سلطة لأن الله دعاك لتمثل سلطة في حياة طفلك. لديك سلطة لتتصرف نيابة عن الله. كأب أو كأم، أنت لا تمارس تنفيذ صلاحية من عندك، بل صلاحية ممنوحة من الله. أنت تأتمر بأمره. أنت تنفذ واجبًا أُعطي لك. ولا يجوز أن تحاول تشكيل حياة أبناءك كما يرضيك، بل كما يرضي الرب.

كل ما تفعله في مهمتك كأب أو كأم لابد أن يُفعل من هذا المنطلق. لابد أن تنفذ كل تعليمك ورعايتك وعنايتك وتقويمك وتأديبك، لأن الله دعاك إلى هذا. أنت تتصرف بقناعة أنه أوكلك لتتصرف نيابة عنه. في تكوين ١٨: ١٩ يقول الرب: «**لأَنِّي عَرَفْتُهُ (إبراهيم) لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً.**» كان إبراهيم في مأمورية إلهية. وكان يؤدي مهمة في إطار الخطة الإلهية. ودعاه الله لهذه الأشياء. لم يكن يعمل لحسابه. ولم يكن إبراهيم يكتب التوصيف الوظيفي الخاص به. الله يحدد المهمة، وإبراهيم يعمل لحساب الله.

تؤكد تثنية ٦ على هذه النظرة المتعلقة بمسؤولية الوالدين. في آية ٢ يخبر الرب بأن هدفه لبني إسرائيل وأبنائهم وأحفادهم أن يخافوا الرب ويحفظه أوامره. والشخص الذي يُمرر وصايا الله هو الأب أو الأم الذي يدعوه الرب لتربية أبنائه وهم يجلسون في البيت، ويسيرون في الطريق، ويرقدون، ويقومون. الله لديه قصد، فهو يريد جيل يتبع جيل في طرقه الإلهية. والله يحقق قصده من خلال توكيل مهمة التعليم للوالدين.

توصيك أفسس ٦: ٤ أن تربي أبناءك في تأديب الرب وإنذاره. هذه وصية لتقديم تعليم الرب وتدريبه، أي العمل نيابة عن الله.

إن فهم هذا المبدأ البسيط يمكّنك من التفكير بوضوح حول هذه المهمة. إذا كنت وكيل الله في مهمة تقديم التدريب والتعليم اللازمين في الرب، حينئذٍ ستكون أنت أيضًا إنسان تحت سلطة. أنت وطفلك في نفس القارب؛ كلاكما تحت سلطان الله. لديكما أدوار مختلفة، ولكن السيد واحد.

إذا سمحت لغضب غير مقدّس أن يكدّر عملية التقويم، ستكون مخطئًا. ستكون بحاجة إلى طلب الغفران. وحقك في تأديب أبناءك يرتبط بما دعاك الله لتفعله، وليس لأهدافك الخاصة.

الغضب غير المقدّس - وهو الغضب بسبب أنك لا تحصل على ما تريده من طفلك - سيعكر مياه التأديب. الغضب لسبب أن طفلك لا يفعل ما تريده يجعل التأديب مشكلة بين الوالدين والطفل، وليس مشكلة بين الطفل والرب. الله هو مَنْ لم يُطع عندما لا تُطاع أنت. الله هو مَنْ لم يُحترم عندما لا تُحترم أنت. القضية ليست تنافسًا بين الأشخاص، وإنما إصرارك أن يطيع طفلك الله؛ لأن إطاعة الله حق وصلاح.

نحن نعرف أن هناك شيئًا اسمه غيرة مقدّسة، لكن الغيرة المقدّسة تتجاوب مع إساءة نحو الله بدلاً من إساءة نحونا. من السهل على الأب أو الأم أن يقول «أنا على حق، أنا غاضب، ومن ثَم هذا غضب مقدّس.» وقد يكون الأمر أننا غاضبون فقط لأننا لم نحصل على ما نريد.

مدعوون للطاعة

أنت لا تأتي لطفلك مُلّحا، لينفذ أهدافك، لكي يرضخ لك ويطيعك. لا! أنت تأتي بالتقويم والتأديب اللذين هما طريق الحياة (أمثال ٦: ٢٣). أنت مُلتزم بابنك بالنيابة عن الله لأن الله كان مُلتزمًا بك أولاً.

أتذكّر حوارات كثيرة جَرت كالتالي:

الأب: أنت لا تطيع بابا، أليس كذلك؟

الطفل: صحيح.

الأب: هل تذكر ما قاله الرب عما يجب أن يفعله بابا إذا لم تطع؟

الطفل: هل تضربني؟

الأب: هذا صحيح. لابد أن أضربك. إذا لم أفعل، سأعصى الرب. وسيكون أنا وأنت مخطئين. ولن يكون هذا جيدًا لك ولي، أليس كذلك؟

الطفل: لا (يرد على استحياء)

ماذا يوصل هذا الحوار إلى طفلك؟ أنت لا تضربه لأنك شرير. أنت لا تحاول أن تجبره على الخضوع لك فقط لأنك تكره قلة الأدب. وأنت غير غاضب منه. أنت مثله تحت سلطان الله وحكمه. لقد دعاك الله لمهمة ليس بمقدورك أن تتملص أو تهرب منها. أنت تعمل تحت حكم الله. أنت تطلب الطاعة لأن الله يأمرك بهذا.

ثقة في الفعل

يوجد هنا حرية هائلة للأب أو الأم. عندما توجّه وتقوّم أو تؤدّب، فأنت لا تفعل هذا من تلقاء نفسك. بل تفعله نيابة عن الله. ليس عليك أن تحتار وتتساءل إذا كان من الموافق لك أن تتولى هذه المسؤولية أم لا. قطعًا لا تحتاج استئذان طفلك. لقد أعطاك الله واجبًا لتؤديه، وبالتالي ليس من الضروري أن تحصل على تصديق طفلك على ذلك.

إلزام في الفعل

عندما تفهم كأب أو كأم أنك وكيل عن الله، فهذا ليس له علاقة بالحق في الفعل فقط، وإنما يعطي إلزامًا للفعل. ليس لديك خيار آخر. أنت تفعل هذا في طاعة لله. لأن هذا واجبك.

لكي نوضح ذلك، تطلب ولاية بنسيلفانيا حيث أعيش من المدارس أن تسجّل أية حالة لإيذاء الأطفال. هذا القانون لا يعطي فقط الحق في تسجيل حالات الإيذاء، وإنما يلزم تسجيل حالات الإيذاء. وليس لدى المسؤول عن المدرسة حق في تقدير هل يسجّل حالات إيذاء أم لا. القانون يتطلب ذلك. بنفس الطريقة، إن حقيقة أنك مدعو من الله لتمثل السلطة في تربية أبناءك لا تعطيك الحق فقط، وإنما المسؤولية لتربي.

كمدير مدرسة ألاحظ أن معظم الوالدين لا يفهمون ضرورة وملائمة أن يكونوا في موضع المسؤولية عن حياة أبنائهم. ولكن أغلب الآباء والأمهات يلعبون دور الناصح. وقليلون منهم على سبيل المثال مستعدون لأن يقولوا: «لقد أعددت لك البليلة لتفطر. إنها وجبة جيدة ومغذية وأريدك أن تأكلها، وربما في مرات أخرى سأعد لك شيئًا تحبه أكثر». لكن كثيرين يقولون: «ماذا تريد أن تتناول في الإفطار؟ أنت لا تحب البليلة التي أعددتها لك، هل تود شيئًا آخر؟» هذا يبدو لطيفًا جدًا ومتحضرًا، ولكن ماذا يحدث هنا بالفعل؟ يتعلّم الطفل أنه هو صانع القرار. وأن الأب أو الأم لا يفعل شيئًا سوى اقتراح الخيارات.

هذا السيناريو يتكرر في موقف اختيار الصغار لملابسهم، وترتيب جدولهم، ووقت فراغهم وهكذا. وعند بلوغ الطفل السادسة أو الثامنة أو العاشرة، يكون رئيس نفسه. وعندما يبلغ الثالثة عشر يكون قد خرج عن السيطرة. يستطيع الآباء والأمهات أن يتحايلوا ويتضرعوا ويلحوا (في إحباط وغضب) ويصيحوا، ويهددوا، ولكن الطفل لا يأتمر إلا من نفسه. لقد تخلى الأب والأم طويلاً عن الحق في صنع القرارات في حياة أبنائه. كيف حدث هذا؟ لقد تسلل هذا الأمر في سن مبكرة جدًا بينما كان الأب يجعل كل قرار بمثابة خيارات مفتوحة أمام الطفل ليقرر بنفسه.

قد يجادل البعض قائلاً «الأطفال لا يتعلمون صنع القرارات إلا عندما يتيح لهم الآباء والأمهات فرصة صناعة القرارات. نريد لأبناءنا أن يتعلموا صنع قرارات صائبة». هذا يغفل شيئًا في غاية الأهمية. سيصبح الأطفال أكفاء في صنع القرارات بينما يشاهدون والدين أمناء يقدمان قدوة ويعلّمان نصائح حكيمة ويصنعان قرارات حكيمة نيابة عنهم.

قبل صنع القرارات تأتي أهمية أن يخضع الأبناء للسلطة. علِّم أبناءك أن الله يحبهم جدًا حتى إنه أعطاهم والدين يمارسان السلطة بحب ليعلّموهم ويقودوهم. سيتعلّم الأبناء صنع القرارات الحكيمة عندما يتعلّمون هذا منك.

لابد أن يكون الآباء والأمهات مستعدين لتولي المسؤولية، ويجب أن يفعلوا هذا بطريقة مملوءة باللطف والإحسان، وفي نفس الوقت يجب أن تمثل رمز السلطة بالنسبة لأبناءك.

تعريف التربية

عندما تدرك أن الله دعاك لتقوم بدور الوكيل عنه فهذا يحدد مهمتك كأب أو كأم. لقد اختصرت الثقافة المحيطة بنا التربية في توفير الرعاية. كثيرًا ما يرى الآباء والأمهات هذه المهمة في ضوء هذا المنظور الضيق. لابد أن يحصل الطفل على الغذاء والكساء والبيت وبعض الوقت الجيد.

لكن الله، على عكس هذه النظرة الضيقة، يدعوك لمهمة أكثر عمقًا من مجرد توفير الرعاية. أنت ترعى طفلك لحساب الله. هذه المهمة التي أُعطيت لك ليس من السهل تحقيقها. إنها مهمة متشعبة. التدريب والرعاية مستمران في أي وقت تكون مع أولادك. وسواء عند الاستيقاظ من النوم أو عندما تمشون أو تتحدثون أو تسترحون، لابد أن تنخرط في مساعدة أبناءك على فهم الحياة، وأنفسهم، واحتياجاتهم من منظور كتابي (تثنية ٦: ٦-٧).

إذا كنت تريد أن ترعى قلب طفلك، لابد أن تفهم ما الذي يجعل أبناءك يتصرفون هكذا. إذا كنت تريد أن توجههم إلى طريق الرب، كما يدعوك سفر التكوين ١٨، فلابد أن تعرفهم وتعرف ميولهم. تتطلب المهمة أكثر من مجرد توفير ما يكفي من طعام وكساء وملاذ.

أهداف واضحة

من المفيد أن تسأل الآباء والأمهات عن أهدافهم التربوية الواضحة لأبنائهم. معظمهم لا يكون حاضرًا في ذهنهم قائمة من نقاط القوة والضعف لدى أبنائهم. ولا يستطيعون تحديد ما الذي يمكن أن يفعلوه لتقوية الجوانب الضعيفة عند أبنائهم أو كيف يشجعون نقاط القوة.

كثير من الآباء والأمهات لم يجلسوا ويناقشوا الأهداف قصيرة المدى وطويلة المدى لأبنائهم. ولم يخططوا لأساليب في التربية. ولا يعرفون ماذا يقول الله عن الأبناء وما يطلبه منهم. ولم يبذل الكثيرون من التفكير حول الأساليب والطرق التى تركز التقويم

على توجهات القلب بدلاً من السلوك. من المؤسف أن معظم التقويم الذي يحدث يكون نتيجة مباشرة لمواقف محرجة أو مزعجة من الأطفال.

لماذا يحدث هذا؟ لا تتضمن فكرتنا عن التربية معنى الرعاية. ثقافتنا ترى الأب أو الأم كشخص بالغ يوفر الرعاية. الوقت الجيد يمثل الاستمتاع معًا. الاستمتاع معًا ليس فكرة سيئة، ولكنه بعيد كل البُعد عن توجيه طفلك في طرق الرب.

في المقابل من ذلك، يدعو سفر التكوين ١٨ الآباء أن يوجهوا أبناءهم ليحفظوا طريق الرب بفعل ما هو حق وعدل. إن كونك أبًا أو أمًا يعني العمل لحساب الله لتوفير التوجيه لأبناءك. والموجهون يتولون المسؤولية. وهذا يتضمن معرفتهم ومساعدتهم على فهم معيار الله للسلوك الذي يتطلبه من الأطفال. ويتضمن تعليمهم أنهم خطاة بالطبيعة ويتضمن إرشادهم إلى رحمة الله ونعمته التي استعلنت في حياة المسيح وموته من أجل الخطاة.

التواضع في مهمتك

عندما تفهم أنك تعمل كوكيل عن الله فهذا يجعلك أكثر تركيزًا ويجعلك متضعًا. من التعقل أن تدرك أنك تقوّم طفلك بأمر من الله. أنت تقف أمام طفلك كوكيل عن الله لتُظهر له خطيته. وتمامًا كما أن السفير يعي أن وظيفته تتمثل في العمل نيابة عن دولته التي أرسلته، هكذا الآباء أو الأمهات لابد أن يكونوا واعين لحقيقة أن كل واحد منهم هو ممثل لله أمام الطفل. لا أعرف أي حقيقة أخرى تجعل الأب والأم أكثر وعيًا واتضاعًا من هذه الحقيقة.

في كثير من المناسبات، كان عليّ أن أطلب الغفران من أبنائي بسبب غضبي أو تجاوبي بشكل خاطئ. وكان عليّ أن أقول: «يا ابني، أنا أخطأت في حقك. وتحدثت بشكل لا يرضي الله. وقلت أشياءً ما كان يجب أن أقولها. كنت مخطئًا. لقد أعطاني الرب مهمة مقدّسة، وقد أظهرت غضبًا غير مقدّس في هذه المهمة المقدّسة. من فضلك سامحني.»

يمكنك استحضار تركيزك كاملاً بحقيقة أن التأديب ليس عملاً على أهدافك الخاصة، والتنفيس عن غضبك في وجه أبناءك. وإنما هو عملك كممثل عن الله، وتقديم توبيخات أمينة لأبنك أو ابنتك. أنت فقط تفسد الأمر عندما يكون الهدف النهائي للتأديب هو استياءك من سلوكه، بدلاً من استياء الله من تمرده ضد السلطة التي عينها.

لا مكان للغضب

تحدثت مع آباء وأمهات لا حصر لهم كانوا يعتقدون بشدة أن غضبهم غير المقدّس له مكان مشروع في التقويم والتأديب. كانوا يجادلون بأنهم يقدرون أن يجعلوا أبناءهم يخافون من العصيان إذا أظهروا الغضب. وبالتالي أصبح وقت التأديب هو عندما يتلاعب الأب أو الأم بالأبناء من خلال عروض فجة للغضب. ما يتعلمه الابن هنا هو الخوف من الإنسان وليس الخوف من الله.

تُظهر رسالة يعقوب خطأ الفكرة التي تقول إن الآباء والأمهات يجب أن يؤكدوا على التقويم بالغضب:

«إِذًا يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ، لِيَكُنْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُسْرِعًا فِي الاسْتِمَاعِ، مُبْطِئًا فِي التَّكَلُّمِ، مُبْطِئًا فِي الْغَضَبِ، لأَنَّ غَضَبَ الإِنْسَانِ لاَ يَصْنَعُ بِرَّ اللهِ.» (يعقوب ١: ١٩-٢٠)

لا يمكن أن يكون الرسول يعقوب أكثر وضوحًا من هذا. الحياة البارة التي يطلبها الله ليست أبدًا حصيلة الغضب الخارج عن السيطرة. الغضب البشري غير المقدّس قد يعلّم أبناءك أن يخافوا منك. وقد يتصرفون بشكل أفضل، لكنه لن يؤدي إلى البر الكتابي.

لكن أي تغيير في السلوك الناتج عن مثل هذا الغضب لن يحرك الأبناء خطوة نحو الله. بل سيحركهم بعيدًا عن الله. ويبعدهم في اتجاه وثنية الخوف من الإنسان. لا عجب إذن أن يضيف الرسول يعقوب تأكيدًا بقوله **«إِذًا يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ...»** (بمعنى انتبهوا لذلك).

إذا قوّمت وأدبت أبناءك لأن الله يُلزمك بهذا، لن تحتاج أن تشوش مهمتك بغضبك. التقويم ليس معناه إظهار غضبك على الإساءات. وإنما تذكير أبناءك بأن سلوكهم

الشرير يسيء إلى الله. هي عملية إظهار لكراهية الله للخطية لهؤلاء الرعايا في مملكته. هو الملك، وهم لابد أن يطيعوا.

فوائد للطفل

يأتي الأب أو الأم إلى الطفل باسم الله ونيابة عن الله. وكوالدين يمكنكما تعليم الطفل أن يقبل التقويم منكما؛ لأنكما الأداة التي عينها الله لهذا. ويتعلّم الطفل أن يقبل التقويم ليس لسبب أن الوالدين دائمًا على صواب، ولكن لأن الرب يقول إن عصا التقويم تعطي حكمة، وكل مَنْ يقبل التأديب يُظهر حصافة وتعقُّل (انظر أمثال ١٥: ٥، ٢٩: ١٥).

الطفل الذي يقبل هذه الحقائق سيتعلم أن يقبل التقويم. لقد شعرت بالتواضع والدهشة لرؤية أبنائي، في أواخر مرحلة المراهقة وبداية العشرينات، وهم يقبلون التأديب، ليس بسبب أنني نشأتهم على ذلك بأفضل طريقة ممكنة، ولكن لأنهم اقتنعوا أن «**مَنْ يَرْفُضُ التَّأْدِيبَ يُرْذِلُ نَفْسَهُ، وَمَنْ يَسْمَعُ لِلتَّوْبِيخِ يَقْتَنِي فَهْمًا**» (أمثال ١٥: ٣٢). إنهم يفهمون أن أباهم هو وكيل عن الله، يستخدمه الله في دور السلطة ليقودهم في طريق الرب. ومن ثَم، بالرغم أنني أداة لعمل الرب لا تخلو من العيوب، فإنهم يعرفون أن قبول التقويم سيقودهم إلى الفهم.

ملخّص

إن تمييز هذه الأمور يمنحك قوة وشجاعة بينما تقوم بالوظيفة التي دعاك الله لها. أنت السلطة التي وضعها الله لطفلك، لأن الله دعاك لتقود (تكوين ١٨: ١٩). أنت تقدّم التوجيه تحت سلطان الله. وحقك في تولي المسؤولية مستمد من سلطان الله. لا يجب أن تتردد أو تتسلط. أنت وكيل الله لتعلِّم أبناءك طرقه. أنت وكيل الله لتساعدهم على فهم أنفسهم كمخلوقات الله في عالم الله. أنت وكيل عن الله لتظهر احتياجهم لنعمة الله وغفرانه. أنت تتطلع إلى الرب ليمنحك قوة وحكمة من أجل إتمام مهمتك.

التفكير الواضح عن مهمة التأديب يوضح أهمية رؤية نفسك كوكيل عن الله، مدعوًا من الله لتولي المسؤولية.

التأديب: تقويم وليس عقاب

إذا كان التقويم يدور في فلك الأب أو الأم الذي تلقّى إساءة، سيكون التركيز على التنفيس عن الغضب، أو ربما الانتقام. ويكون الهدف هو العقاب. إمّا إذا كان التقويم يدور حول الله الذي تلقى الإساءة، إذًا سيكون التركيز على استعادة العلاقة مع الله. ويكون الهدف هو العلاج. لقد وُضع التأديب ليرجع طفلاً عصى الله إلى طريق الطاعة. التأديب يهدف إلى التقويم.

التأديب: تعبيرٌ عن الحب

بينما كنت أتحدث مع شخص ما أثناء استراحة في مؤتمر لرعاة الكنائس، سمعت حوارًا لشخص آخر. كان أبوان يتحدثان عن أبنائهما، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاستماع إليهما.

الأب الأول يعلّق: «أنا قاسٍ عليهم جدًا. أنا أؤدبهم طوال الوقت. أنا مضطر لذلك فعلاً. زوجتي تحبهم أكثر من اللازم ولا تؤدبهم.»

فعلّق الأب الثاني: «أعتقد أنه عليك أنت وزوجتك أن تعملا نوعًا من التوازن.»

واصل الأب الأول حديثه وهو يهز رأسه مفكرًا: «حقًا، نحتاج بعض التوازن بين الحب والتأديب.»

كادت اللقمة تقف في حلقي! توازن بين التأديب والحب؟ تذكرت أمثال ٣: ١٢ «**الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَكَأَبٍ بِابْنٍ يُسَرُّ بِهِ**». وتسارعت أمثال ١٣: ٢٤ إلى ذهني: «**مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ**». وكذلك رؤيا ٣: ١٩ «**أَنِّي كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ**». كيف يمكن أن توازن بين التأديب والحب؟ التأديب هو تعبير عن الحب.

هذا الحوار الذي سمعته بالمصادفة يتكرر كثيرًا. يفتقر كثير من الآباء والأمهات لرؤية كتابية للتأديب. ويميلون إلى الظن بأن التأديب هو انتقام- أو الرد المستحق للأبناء

على ما فعلوه. توضح رسالة العبرانين أصحاح ١٢ هذا الأمر بوضوح بأن التأديب ليس عقابًا، وإنما تقويم. في العبرانين ١٢ يُوصف التأديب بكلمة تشجيع توجّه للأبناء. وتقول إن التأديب علامة على شعور الله من نحونا كأب لنا. الله يؤدبنا لصالحنا حتى نشترك في قداسته. وتقول إنه بينما يكون التأديب غير ممتع، بل مؤلم، لكنه يثمر برًا وسلامًا. وبالتالي بدلاً من أن نجعل التأديب متوازنًا مع الحب، فإنه يمثل أعمق تعبير عن الحب.

إن الله يقدّم لنا الفهم الصحيح للتأديب. وظيفته الأولى ليست العقاب.. إنه بمثابة تقويم. الدافع الأساسي للتأديب ليس الانتقام، وإنما لتقويم السلوك. إن تأديب الطفل يعني أن الأب أو الأم يرفض أن يكون طرفًا موافقًا على موت طفله (انظر أمثال ١٩: ١٨).

ماذا يجعل هذه الفكرة صعبة على التشبث بها؟ إنها صعبة لما ناقشناه سابقًا. نحن لا نرى أنفسنا كوكلاء عن الله. ومن ثَم فإننا نقوّم أبناءنا عندما يستفزونا. وعندما لا يزعجنا تصرفاتهم، فإننا لا نقوّمهم. وبالتالي فإن تقويمنا ليس إنقاذنا لهم من طريق الخطر، وإنما بالأحرى هو تنفيس عن إحباطنا وغضبنا. إنه يمثل قولنا لهم: «لقد سأمت منك. أنت تغضبني. سأضربك، أو سأصرخ في وجهك، أو سأجعلك تجلس لوحدك بعيدًا عن العائلة حتى تشعر بالخطأ الذي فعلته.»

ما أصفه الآن ليس تأديبًا؛ بل عقوبة. إنه إيذاء للطفل لا يرضي الرب. وبدلاً من الحصول على ثمر البر والسلام، سيترك هذا النوع من المعاملة أبناءك في حالة من التجهم والغضب. هل نتعجب فيما بعد أن الأبناء يقاومون إرادة مَن يواجههم لأنهم سببوا إزعاجًا؟

التأديب كتعليم إيجابي وليس عقوبة سلبية لا يمنع التبعات أو نتائج السلوك. نتائج السلوك وتبعاته هما جزء أكيد من الطريقة التي يستخدمها الله لتأديب شعبه. يوضح الكتاب المقدّس قوة النتائج الصحيحة لإظهار البركة على الطاعة، والدمار الذي يصاحب الخطية والعصيان. وسنتطرق لهذا فيما بعد.

بينما نرى حقًا أن الأبناء المؤدبين هما بهجة لوالديهم (أمثال ٢٣: ١٥-١٦، ٢٤)،

فنحن كوكلاء عن الله لا نستطيع أن نؤدب فقط بهدف المصلحة الذاتية أو الراحة الشخصية. لابد أن يرتبط التقويم بمبادئ كلمة الله وثوابتها المطلقة. أن الأمور المتعلقة بالتأديب تتعلق بنمو الشخصية وبإكرام الرب. إنه معيار الله غير القابل للتفاوض الذي يؤيد عملية التأديب والتقويم.

إن هدفك من التأديب هو التقرب من أبناءك، وليس عملاً ضدهم. أنت تقترب منهم بتوبيخات ومناشدات. التأديب له هدف تقويمي. إنه أمر علاجي وليس عقابي. والهدف منه هو النمو وليس الألم.

هناك قضايا تربوية أخرى يجب أن نهتم بها. لابد أن نفهم ما هو أكثر من وظيفتنا كوكلاء عن الله. لابد أن نهتم بما هو أكثر من طبيعة التأديب. لابد أن نكون مُهدّفين. في الفصل التالي سنستكشف القضايا المتعلقة بأهداف التربية. ما هي الأهداف الكتابية للتربية؟ ما هي الأشياء التي قبلناها من ثقافتنا والتي لابد أن نعيد تقييمها ونواجهها؟

أسئلة للتطبيق في الفصل ٤

١- في رأيك، ما هي طبيعة سلطتك كأب أو كأم؟ وكيف يتفق ذلك مع النظرة الكتابية؟

٢- إلى أي مدى يتحول تقويمك لأبناءك إلى صراع شخصي بدلاً من التأكيد على سلطان الله على أبناءك؟

٣- ما هي الأشياء التي يمكنك أن تفعلها لتبقي تركيزك في التأديب على إعادة أبناءك إلى طرق الحياة؟

٤- كيف تقدّم سلطتك لأبناءك؟ هل تجد نفسك تقول مثلاً «أنا أبوك/ أمك، وطالما تعيش هنا، سيكون عليك أن تصغي لكلامي»؟

٥- كيف تصف مهمتك كوكيل عن الله لتأديب أبناءك؟ كيف يمكن لنظرتك لنفسك كوكيل عن الله أن تغيّر أسلوبك في التأديب؟

٦- هل أنت مستعد أن تجلس وتحلل الأمور التالية لأبناءك: أهداف التربية، وقائمة نقاط القوة والضعف لدى طفلك، والأهداف قصيرة وطويلة المدى، واستراتيجيات التربية؟

الفصل الخامس

إعادة النظر في أهدافك

في يوم من أيام الخريف المشرقة والمفعمة بالحيوية، وبالرغم من سقوط طفيف للمطر، كان يومًا للاحتفالات الوطنية. وعزفت الفرقة الموسيقية، واحتشدت مجموعات كثيرة من المحتفلين وساروا في العرض. كنا نشعر ببرودة الجو تحت المظلة، ولكن مَن يقدر أن يترك هذه الاحتفالية المبهجة؟ في نهاية العرض كانت هناك فرقة من الأطفال الماسكين للطبول في أعمار الثالثة إلى الخامسة. أحدهم في مؤخرة الطابور كانت طفلة لفتت نظري. بدا أنها أقل من ثلاث سنوات. ولزيها القصير للغاية كان جسدها مكشوفًا جدًا لهذا الجو البارد، وكانت تبكي. وبينما تسير الفرقة تحت رذاذ المطر، استمرت في إظهار عدم رضاها عن هذا - وجرت إلى أمها. بدا الأمر غير مريح. وظلت أمها تدفعها لترجعها إلى مكانها في الصف. لن أنسى أبدًا إحساس المحاولات اليائسة والارتباك في عيون هذه الطفلة بينما كانت تسير وهي تجهش بالبكاء.

كانت تصرفات الأم تتضمن أهدافًا تربوية معينة. قد نفترض أنها أرادت ابنتها أن تكون جميلة وتلفت الأنظار. وكانت تعرف أنك لا تستطيع أن تبدأ في سن مبكر جدًا لتعد طفلك ليحقق أحلام طفولتك أنت. كان هذا أمرًا مهمًا للأم. لا يحتاج الأمر لخيال واسع لنعرف جدول أعمال الأم، أو لنتصور كيف قضت هذه الطفلة طفولتها.

لا أعرف هذه المرأة بالتحديد. وغير متأكد من أهدافها بالتحديد، أو هل كانت تعي الأشياء التي دفعتها إلى عمل هذه التضحيات: تجري بجوار العرض، وتحني ظهرها، وتحث ابنتها على مسك العصا بشكل صحيح ولا تخرج عن الطابور. لكني متأكد من أنه كان لها أهداف لابنتها. وجميعنا لدينا أهداف لأبناءنا. هناك أهداف توجه اختياراتنا

بينما نربي أطفالنا. البعض يستطيع أن يصف هذه الأهداف بدقة. وهناك بعض الأهداف الأخرى قد تكون متضمنة في الاختيارات التي يصنعها الآباء والأمهات.

أهداف غير كتابية

يريد الآباء والأمهات أن يصبح أبناؤهم ناجحين حتى يعيشوا «في وضع أفضل»، ويكونوا سعداء، وينعمون بحياة مريحة. هذه الرغبة في النجاح تأخذ أشكالاً وتعريفات مختلفة من شخص لآخر، لكن كل أب وأم يريد أبناءه ناجحين وسعداء. نحن نريد لهم حياة مليئة بالفرص ومتحررة من قيود المشاكل. ومهما كان تعريفنا للنجاح، فنحن نتمناه لأبنائنا. ونحن نعلم جيدًا أن تنشأتهم لها علاقة كبيرة بنجاحهم في المستقبل.

هناك عشرات الطرق التي يحاول الآباء والأمهات اتباعها لتحقيق هذا النجاح. إن مساعدة الوالدين على إنتاج أبناء ناجحين هي بمثابة تجارة رائجة. هناك المئات من الكتب الرائجة التي تتحدث عن الطريق إلى النجاح. وهناك برامج تم تطويرها والتسويق لها. كذلك الخبراء في علم النفس واللاهوت والتعليم والألعاب الرياضية وفن التحفيز.. قد أفنوا حياتهم وحياة جمهورهم في ذلك. دعنا نلقي نظرة على طرق متعددة يستطيع الآباء والأمهات أن يتبعوها ليعدوا أبناءهم ليكونوا ناجحين.

اكتساب مهارات خاصة

بعض الآباء والأمهات يجعلون أبناءهم يشاركون في مجموعة كبيرة من الأنشطة. فهم يدفعونهم للاشتراك في لعبة كرة السلة، وكرة القدم، والهوكي، وكمال الأجسام، والسباحة، ودروس الرقص، وحصص البيانو. هذه المهارات ليست سيئة في حد ذاتها، وقد يكون لها مكان في حياة أبناءك. ولكن هل نقيس الأب أو الأم بعدد مشاركة أبنائهم في الأنشطة المختلفة؟ وهل نقيس الطفل بعدد المهارات التي اكتسبها؟

وحتى إذا ثبتت فائدة السرعة الجنونية للحياة في ظل هذه الأنشطة، هل لديك كأب أو كأم مسيحية أي قلق حول القيم المتضمنة في هذه الأنشطة التي يعلمها المدربون والمدرسون في هذه الأنشطة؟

هل الاشتراك في هذه الأنشطة يقدّم محتوىً كتابيًا؟ هل يتلقى أبناؤك تعليمًا كتابيًا عن الصورة الذاتية والروح الرياضية، والولاء، ورباطة الجأش، والتحمُّل، والمثابرة، والصداقة، والنزاهة، والحقوق، والمنافسة، واحترام السلطة؟

من الواضح أنك لابد أن تفهم أولاً معنى النجاح. هل يعتمد النجاح الحقيقي على المهارات التي تعلمها هذه الأنشطة؟ وما هو التعريف الكتابي للنجاح؟

التأقلم النفسي

يكافح بعض الآباء والأمهات الآخرين من أجل أهداف نفسية أكثر. ولأنهم يتحركون بالذكريات الواضحة لطفولتهم، فإنهم ينشغلون بمسألة التأقلم النفسي. وتغري الكتب والمجلات هؤلاء الآباء والأمهات؛ لأنها تروج لأحدث ما توصل إليه علم النفس. وكل شيء تم توليفه ليناسب الآباء والأمهات غير الواثقين في أنفسهم. هؤلاء الخبراء يعدون بتعليمك كيف تبني تقدير الذات في أبناءك. هل لاحظت أنه لا توجد كتب تعد بأن تربي أطفالاً يقدَّرون ويحترمون الآخرين؟

كيف تعلِّم أبناءك أن يكون لهم دور في ملكوت الله، حيث الخادم هو الذي يقود، إذا كنت تعلّمهم كيف يجعلون الناس في العالم يخدمونهم؟

بعض خبراء علم نفس الأطفال، الذين يعملون على إقناعك بأنه يتم استغلالك، يقدمون استراتيجيات لتعلم أولادك أن يكونوا ناجحين مع الناس الآخرين (كيف تتلاعب بالآخرين بسهولة). بينما يظل بعض الخبراء يستغلون خوفك من الإفراط في تدليل أبناءك، ويعدون بأبناء غير مدللين. كل عدد من مجلة كتاب الشهر يقدّم أحدث ما توصل إليه علم نفس الأطفال. ويشتري الآباء والأمهات هذه المجلات بالملايين، وينصتون للخبراء الذين يخبرونهم بنوعية التربية التي يحتاجها أبناؤهم. هذا هو السؤال الذي يجب أن تسأله: هل هذه الأهداف النفسية للمسيحيين؟ أي النصوص الكتابية التي توجهك إلى مثل هذه الأهداف؟

أبناء مُخلَّصون

قابلت آباء وأمهات كثيرين كان شغلهم الشاغل هو خلاص أبنائهم. ويركزون على جعل أبنائهم يصلون «صلاة التوبة». ويريدونهم أن يدعوا الرب يسوع ليدخل قلوبهم. ويُحضرون الطفل إلى مدارس الأحد، والمؤتمرات الصيفية المسيحية، أو أي مكان آخر يجدون فيه مَنْ يجعل أبناءهم يعيشون مع المسيح.

ويظنون أنه إذا قبل طفلهم الإيمان، ستُحل كل مشكلات الحياة الأخرى. أحيانًا يشعر الآباء والأمهات بهذا لأنه بسابق خبرتهم يُعتبر الخلاص حدثًا روحيًا حاسمًا. ويريدون لطفلهم أن يمر بهذه الخبرة أيضًا.

هذه قضية حساسة لابد أن تُعدَّل بحقيقتين: ١- لا يمكنك أن تعرف بيقين مطلق هل خَلُص طفلك أم لا. كثير من النصوص الكتابية مثل نص «ياربّ، ياربّ!» في نهاية الموعظة على الجبل (متى ٧: ٢١-٢٣) تشير إلى أن الإيمان الخاطئ يمكن أن يبعد الإنسان بعيدًا عن الطريق الصحيح. والقلب قد يخدع نفسه. ولهذا يحذّر الكتاب المقدّس عن مخاطر خداع الذات، ويوصي بأن يمتحن الإنسان نفسه هل هو في الإيمان أم لا. ٢- اعتراف الطفل بالإيمان بالمسيح لا يغيّر من الأمور الأساسية الخاصة بالتربية. أهداف الوالدين هي نفسها. والأشياء المدعو لها الطفل هي نفسها. فهو يحتاج نفس التدريب الذي كان يحتاجه قبل الاعتراف بالإيمان. وسيكون لديه أوقات من الحساسية الروحية وأوقات من الفتور الروحي. ولا تتغيّر مهمة الوالدين عندما يتخذ الطفل قرارًا في علاقته بالربّ.

هناك نصوص كثيرة تعلِّم الاحتياج لرعاية أبناءك وتدريبهم وتعليمهم وتأديبهم. وليس من بين هذه النصوص ما يطلب من الطفل أن يصلّي «صلاة التوبة» كشيء أساسي.

العبادة العائلية

بعض الآباء والأمهات اقتنعوا أن العائلة التي تصلّي معًا تبقى معًا، وبالتالي يصرون أن يكون لهم وقت لقراءة الكتاب المقدّس. ولابد أن يحضر كل أفراد العائلة.

وهم حريصون أشد الحرص على احتياج العائلة للصلاة يوميًا. ولكن بالرغم من أهمية وقيمة العبادة العائلية، فهي ليست بديلاً عن الحياة الروحية الحقيقية.

أعرف عائلة لا تفوت يومًا بدون الاجتماع للعبادة حيث يقرأون الكتاب المقدّس ويصلّون كل يوم. ولكن في معيشة العائلة والقيم العائلية ليس هناك علاقة أو رابط بين العبادة العائلية والحياة اليومية.

بالرغم من أهمية العبادة العائلية، فإن العبادة العائلية كما وصفت في السطور السابقة تعكس حياة روحية مريضة.

أبناء مهذّبون

البعض يرضخون لضغوط تهدف إلى تربية أطفال مهذّبين. نحن نساعد أبناءنا على اكتساب رباطة الجأش. نحن نعلّمهم كيف يتحاورون. نحن نريد أبناءً يمتلكون خُلق اجتماعي. نحن نريدهم أن يكونوا قادرين على إضافة الغرباء. نريدهم أن يكونوا قادرين على الرد بأدب في وقت التوتر. نعرف أن هذه المهارات ضرورية لتكون ناجحًا في عالمنا. ويسرنا أن نرى هذه الأخلاقيات الاجتماعية في أبناءنا.

أعمل كراعي كنيسة وربيت ثلاثة أبناء. وأنا بالتأكيد لست ضد الأبناء المهذّبين. لكن الحصول على أبناء مهذّبين ليس هدفًا مهمًا في حد ذاته. إنه فائدة ثانوية مهمة للتربية الكتابية، ولكنه ليس هدفًا مهمًا في حد ذاته.

لا يصح أن تتعامل مع أبناءك بطريقة ما لترضي شخصًا آخر. وهناك إغراءات كثيرة لتفعل هذا. كل أب أو أم تعرض لضغوط معينة ليؤدب ابنه أو ابنته بسبب أن آخرين رأوا أن السلوك غير ملائم. ربما كنت مع مجموعة وقد فعل الصغير شيئًا أو قال شيئًا فهمته وارتحت إليه، لكن من الواضح أن الآخرين في نفس الغرفة فهموا هذا الشيء بشكل خاطئ. وعندما طُعنت بخناجر عدم استحسانهم، شعرت بضرورة تقويم طفلك من أجل الآخرين. إذا أذعنت لذلك، يصبح تركيزك في التربية هو السلوك. وهذا يعوق التعامل مع قلب ابنك الصغير بطريقة كتابية. ويصبح الأمر الملحّ هو كيف يرى الآخرون

الموقف بدلاً من رؤية الموقف من منظور الله. ويتعطل التقويم الصبور الذي يُرضى الله لسبب الضغط المتعجل لتغيير السلوك. إذا كان هدفك هو أطفال مهذّبين، فأنت عرضة لمئات الإغواءات نحو المواءمات.

ماذا يحدث للطفل الذي يتربّى على فعل كل الأشياء الملائمة؟ عندما يُنزع السلوك المهذّب عن الجذور الكتابية، تصبح السلوكيات وسيلة أنيقة للتلاعب. ويتعلّم أبناؤك كيف يشتغلون الآخرين بطريقة غامضة، ولكنها في الأعماق تخدم مصالحهم. يصبح بعض الأبناء محترفي تلاعب وخداع الآخرين ومحتقرين للبشر ولكن بشكل غير واضح. آخرون لأنهم يدركون طبيعة الرياء والبهرجة، يسلكون بطيش رافضين تمامًا تقاليد المجتمع. في أواخر الستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي، رفض عدد من الشباب الإتيكيت في محاولة لإظهار أنهم على طبيعتهم ولا يتظاهرون. وكلا الموقفين هو نتيجة سلبية للسلوكيات المنفصلة عن الثوابت الكتابية لمعنى الخدمة.

التعليم الجيد

خلال سنوات عملي كمدير مدرسة، قابلتُ عشرات الآباء والأمهات الذين يهدفون إلى أن يتلقى أبناؤهم تعليمًا جيدًا. هؤلاء مدفوعون بهذه الرغبة. ويدرّبون وينهضون الهمم، ويشجعون ويحذرون، ولن يوقفهم شيء يقف أمام نجاح طفلهم. هدفهم يتمثل في رؤية ابنهم حاصلاً على شهادات أكاديمية عالية وتقدير من الدوائر العلمية. وهو مقتنعون أن التعليم يجلب النجاح. ومع الأسف فإن عشرات من المتعلّمين تعليمًا رفيعًا يعانون من الإحباط والانكسار. من الممكن أن تتلقى تعليمًا رفيعًا، وتظل غير فاهم للحياة من حولك.

التحكُّم

بعض الآباء والأمهات ليس لديهم هدف نبيل على الإطلاق، ويريدون ببساطة أن يتحكموا في أبنائهم. هؤلاء يريدون أبناءهم أن يطيعوا، ويتصرفوا بأدب، ويكونوا صالحين ولطفاء. ويذكّرون أبناءهم بما كانت عليه الأمور حين كانوا صغارًا. وكثيرًا

ما يوظفون الأساليب «النموذجية والمختبرة» في التأديب- وهو ما فعله أباؤهم وأمهاتهم وظنوا أنه طريقة فعّالة. هؤلاء يريدون أبناءهم تحت السيطرة. يريدونهم أن يفعلوا الصواب (أيًا ما كان في التو). الهدف الأساسي هو التحكّم في أبنائهم. ولكن التحكّم غير موجه نحو أهداف تتعلق باكتساب خُلق بعينه. الهدف هو الراحة الشخصية والمظهر العام.

التحذير الكتابي ضد تأثير الثقافة

يعرف أي دارس للعهد القديم أن الله كان مشغولاً بقابلية شعب بني إسرائيل للتأثر بشعوب كنعان. وأمر الله شعب بني إسرائيل بأن يطردوا هذه الشعوب، وألا يظهروا أية رحمة تجاههم. كان الله يعرف أنه لو عاش أهل كنعان وسطهم، فإنهم سيزيغون.

أنت أيضًا، مثل بني إسرائيل في العهد القديم، مُعرّض للتأثر القوي بالثقافة المحيطة بك. ومثل إسرائيل لابد أن ترفض أشياءً في ثقافتك وهي مكرهة للرب إلهك.

عندما تعي هذه الأهداف غير الكتابية مثل ما سبق وأن شرحنا فهذا شيء، لكن اعتناق أهداف كتابية شيء آخر. هناك جوانب كثيرة يحتاج فيها الأبناء إلى التوجيه. ما هو الهدف المتسع بما يكفي والمرن بما يكفي ليلائم كل مراحل نمو الطفل؟

أي الأهداف الكتابية العامة ستقود وتركز نظرتك للحياة وبالتالي تربيتك لأبناءك؟ ما هو الهدف الكتابي الذي يستحق السعي لتحقيقه؟ السؤال الأول المعروف في مختصر إقرار الإيمان (shorter catechism) يجيب على هذه الأسئلة.

س: ما هي الغاية العُليا للإنسان؟

ج: الغاية العُليا للإنسان هو أن يمجّد الله ويتلذذ به إلى الآبد.

هل يوجد أي هدف آخر أنبل من هذا؟ هل أنت مستعد للبدء من هذه النقطة مع أبناءك؟ لابد أن تهيئ أبناءك ليعيشوا في ثقافة هجرت معرفة الله. إذا علمتهم أن يستخدموا قدراتهم وطاقاتهم وذكائهم ليجعلوا حياتهم افضل، بدون الرجوع إلى الله، فأنت تبعدهم

عن الله. إذا كانت أهدافك أي شيء غير «غاية الإنسان العليا أن يمجّد الله ويتلذذ به إلى الأبد»، فأنت تعلّم أبناءك أن يواكبوا الثقافة المحيطة بهم بشروط هذه الثقافة.

كيف نفعل هذا؟ عندما نستسلم لرغباتهم وأمنياتهم. نحن نعلّمهم أن يجدوا بهجة نفوسهم في الذهاب إلى أماكن معينة وفي فعل أشياء بعينها. ونحاول أن نشبع شهوتهم للشعور بالإثارة. ونملأ حياتهم الغضة بأشياء تشتتهم عن الله. ونمنحهم أشياء مادية ونتلذذ بتلذذهم بالمقتنيات. ثم نرجو أنه في مرحلة ما من حياتهم يرون أن الحياة التي تستحق أن تعاش توجد فقط في معرفة الله وخدمته.

وبحسب مفهوم التوجه نحو الله، فإننا ندربهم على الوثنية وعبادة الماديات. في الواقع نحن نغذي هذه الأوثان. إن السنوات الضائعة في إنكار أهمية القناعة الراسخة بالحق الكتابي لن تؤدي إلى حياة تقية خلال مرحلة المراهقة وأوائل البلوغ.

ولا عجب أننا نفقد أبناءنا. نحن نفقدهم لأننا نفشل في التعرف بوضوح على غاية الإنسان العليا. غاية الإنسان العليا أن يمجد الله ويتلذذ به إلى الأبد. لهذا ليكن هدفك في كل حين أن تضع رؤية كتابية أمام أبناءك. ومنذ نعومة أظافرهم لابد أن يتعلّموا أنهم سيجدون أنفسهم فقط حين يجدون الله. لابد أن ينمو الطفل لير أن الحياة الحقيقية تختبر عندما يقف أمام الله ويقول: «**مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ؟ وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ**» (مزمور ٧٣: ٢٥). إذا كان هذا ما تريده لأبناءك، فلابد أن تتأكد أن محتوى الحياة اليومية يتفق مع هذا الهدف.

إشارات متداخلة

يؤكد مزمور ٣٦ أننا بنوره فقط نرى نورًا. ومع ذلك نقدِّم عالمًا مختلفًا لأبنائنا. في محاولاتنا لمساعدتهم على التأقلم مع الثقافة التي لا تعرف الله، نقدّم لهم أهدافًا ليتبعوها وطرقًا لحل مشكلات الحياة لا تتفق مع الكتاب المقدّس! إن أنماط التفكير والتعود على سلوكيات معينة تتعارض مع حياة ينبغي أن تُعاش لمجد الله.

على سبيل المثال، إذا علَّمت طفلك أن يطيع وأن يتصرف بشكل معين ليحصل على الاستحسان منك أو من الآخرين، فأنت تقدم هدفًا غير كتابي. يقول الله إننا ينبغي أن نفعل كل شيء لمجده، لأن عينه علينا، وهو الذي سيكافئ من يسلكون بالعدل. سيتجاوب الناس بشكل جيد مع طفل مطيع، لكنك لا تستطيع أن تجعل الفائدة الثانوية للطاعة سببًا أوليًا للطاعة.

مثال آخر قد يفيد أكثر. أية نصيحة تعطيها لطفلك عندما يتعرض لأطفال يضايقونه في حافلة المدرسة؟ كثير من الناس سينصحون طفلهم بالشجار وبرد الصاع صاعين، وبأن يقاوموا الشر بالشر. بعض الآباء والأمهات يعلمون طفلهم أنه يتجاهل الإيذاء تمامًا. لكن أي النصيحتين تتفق مع الكتاب المقدّس؟ ولا واحدة منهما. يقول الله بأننا يجب أن نقابل الشر بالخير، بينما نستودع أنفسنا دائمًا لرعاية إله يقول: «**لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ**» (رومية ١٢: ١٩).

إن نصيحة الكتاب المقدّس تقود أبناءك إلى أن يستودعوا أنفسهم في رعاية الله وحمايته، وتعلِّم مراعاة احتياجات الشخص المسيء. «**إِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ**» (رومية ١٢: ٢٠). نتذكر هنا أن الله يقول باركوا على الذين يلعنوننا. باختصار، إنها نصيحة لا تعمل إلا في سياق الإعلان الكتابي. هذه النصيحة توجه الطفل إلى الله وليس إلى مصادر قوته الخاصة.

في الفصل التالي سنعيد التفكير في هذه الأهداف في ضوء الغاية العُليا للإنسان.

أسئلة للتطبيق في الفصل o

١- كيف تعرّف النجاح؟ كيف يمكن لطفلك أن يكمل الجملة التالية: «ما يريده أبي وأمي لي هو.....»؟

٢- أنت تتعرض لضغط الأشياء التي أوردتها تحت الأهداف غير الكتابية. أي هذه الأهداف غير الكتابية له التأثير السلبي الأكبر على تربيتك لأبناءك؟

٣- تذكّر أنك عامل مؤثر يشكل في أبناءك. ما الذي يحفزك يومًا بعد يوم؟ ماذا تخشى وماذا تحب؟ وأي شيء يؤرقك؟ ما هي القيم التي تعلّمها في بيتك؟

٤- مثل بني إسرائيل في العهد القديم- أنت تتأثر بالثقافة المحيطة بك. كيف أثرت الثقافة المحيطة بك في رؤيتك لأبناءك وأهدافك لهم؟

٥- هل أنت منسجم مع فكرة العيش من أجل مجد الله؟ هل تجد هذه الفكرة صدىً في نفسك، أم أنها فكرة دينية ليس لها معنى؟

٦- ما هي الأساليب غير الواضحة التي تدفعك لتعلّم أبناءك أن يسلكوا وفقًا لأسلوب الثقافة المحيطة؟

٧- ما هي الإشارات المتداخلة التي ترسلها لأبناءك؟ مثلاً:

١- أهم شيء بالنسبة لي أن تبذل أقصى ما في وسعك (في مقابل) لا أريد أن أري درجات سيئة في شهاداتك الشهر القادم.

٢- الحياة لا تتمثل في وفرة المقتنيات (في مقابل) انتظر حتى ترى ما أعطيه لك.

٨- الرعاية الروحية الصحيحة هي مسألة اعتناء وليس مجرد بذل طاقة حتى يعلن أطفالك إيمانهم بالمسيح. كيف يؤثر ذلك فيما تفعله معهم؟

٩- هل القواعد المعلنة وغير المعلنة لحياتك العائلية تتفق مع الحياة الروحية الصحيحة. أي العيش لمجد الله؟

الفصل السادس

إعادة العمل على أهدافك

الخطوة الأولـى في بناء أي بيت هي الحفر. ووظيفة المسؤول عن الحفر هو إعداد موضع البناء؛ فهو ينظف المكان من الأعشاب والأشجار الميتة، والأخشاب غير المرغوب فيها، لإعداد الموقع للبناء عليه. كان الفصل السابق بمثابة إعداد الموقع. لقد أزلنا الأشياء غير المرغوب فيها، والآن نحن مستعدون للبناء على الموقع.

إعادة التفكير في الأهداف غير الكتابية

إذا كانت الأهداف في الفصل السابق غير نافعة، دعنا نفكّر مرة أخرى في أهدافنا في ضوء الغاية العُليا للإنسان.. أن يمجّد الله ويتلذذ به إلى الآبد. ضع في اعتبارك في هذا النقاش أن القضية هنا ليست أن الأهداف مشروعة ونافعة للمسيحيين أم لا. وإنما القضية هنا هل الأهداف تكفي لتكون أهدافًا عُليا أم لا.

اكتساب مهارات جديدة

ما هي المشكلة في إشراك أبناءك في مجموعة مختلفة من الأنشطة؟ كثير من الآباء والأمهات الذين لا يسمحون لأبنائهم أن يدخلوا مدارس حكومية سيرسلون أبناءهم إلى دروس الرقص. سيرفضون أن يتأثر أبناءهم بالفكر الديني/الدنيوي في المدرسة، لكنهم مع ذلك سيعرّضون أبناءهم لأفكار غير كتابية عن الجمال في دروس الرقص.

عندما سألت بعض الآباء والأمهات لماذا يحضرون أبناءهم لهذه الدروس، شرحوا أنها تساعد على تنمية الشعور بقيمة الذات لدى الطفل. هل هناك أي نصوص كتابية تقول إن تنمية الشعور بقيمة الذات تمثل هدفًا توصي به كلمة الله؟ ألا ينبغي أن نهتم

أكثر بفهم أدق للذات؟ هل يتفق مع الكتاب المقدّس أن نبني قيمة الذات على قدرة الطفل على اكتساب مهارة جسدية؟ ألا نعزز من الغرور الذي يتولد من القدرة على الأداء؟ معظم المدربين لا يعلِّمون المتدرب الصغير عندما يحسن الآداء أن يقدّم الشكر لله على التوقيت والتوفيق اللازمين لأداء مثل هذا الإنجاز الصعب.

كثير من هذه الأنشطة تعلِّم أبناءك أن يثقوا في أنفسهم، في حين يقول الكتاب المقدّس إن هؤلاء الذين يثقون في أنفسهم هم حمقى وقلوبهم بعيدة عن الله. إن محبة الذات والثقة بالذات كما تقدمها ثقافتنا، دائمًا ما تبعد القلب عن الله.

ما هي القيم التي تعلِّمها لأبناءك من خلال التضحيات اللازمة لممارسة الهواية كل يوم؟ كثير من العائلات التي لديها وقت للممارسة الجماعية للهوايات لا تستطيع أن تنظم حياتها العائلية حول أوقات منتظمة من قراءة الكتاب المقدّس والصلاة. ما هي القيم التي تُعلَّم؟ ما هي القيمة التي تعلَّم عندما تأتي العبادة في يوم الرب في مرحلة تالية كشيء ثانوي بعد لعب الكرة أو حصة السباحة؟ كل هذا لأن الأبناء يحتاجون لاكتساب تقدير الذات!

الرؤية الكتابية تقضي بأنك ينبغي أن تعلِّم أبناءك أن يمارسوا الرياضة ويهتموا بأجسادهم تعبيرًا عن أنهم وكلاء على الوزنة التي منحهم الله إياها. لابد من تنمية القدرات لأن الله أعطانا هذه المواهب والإمكانيات الخاصة. ولابد من تشجيع المهارات التي تجعل أبناءك أكثر قدرة على الخدمة وفتح قنوات أكثر لخدمة الآخرين.

الأنشطة الرياضية يمكن أن تكون طريقة قيمة لتوفير الاتحاد والوحدانية بين أفراد العائلة. وبدلاً من تشتت العائلات بالسماح لكل فرد أن يسير على طريقته في اللياقة البدنية، هذه الأنشطة يمكن أن تخدم في تعليم الانتماء للعائلة في مشاركة اهتمامات بعضنا البعض في المباريات والألعاب.

التدريب الشاق شيء مقبول لأنه يحافظ على الجسم في حالة صحية رائعة، ولكن لابد أن تهتم بالقوة والعزيمة اللازمة لحياة الخدمة لله. الأنشطة التي توفر المرونة والقوة وصحة الدورة الدموية هي ضرورية لمنفعة ملكوت الله.

وجدت عائلتنا أن فترة للتخييم مع السفر لمسافة ١٥٠ ميلاً بالدراجات توفر تحديًا جسمانيًا وذهنيًا وروحيًا ويمكن بناء هذا التحدي على أهداف كتابية. أدرك ابننا Tedd سريعًا أن محبته للعائلة تتطلب منه تغييرًا في طريقة قيادته لدراجته. إذا كانت الدورة تخص العائلة كلها، فعليه ألا يسرع بدراجته ليكون متقدمًا جدًا عن أقل الأفراد كفاءة في ركوب الدراجات. ورغبته في الخدمة منعت أن تكون الرياضة بهدف الرياضة فقط.

التأقلم النفسي

ماذا عن الاهتمام بالتأقلم النفسي؟ دعنا نفكّر من خلال مثال اجتماعي. ماذا تفعل كاستجابة على استقواء الآخرين؟ كثير من الآباء والأمهات يريدون أن يساعدوا طفلهم بتعلُّم «فنون الدفاع عن النفس». ويحاولون أن يساعدوا أبناءهم كيف ومتى يتشاجرون. سمعت آباء وأمهات مسيحيين يقدّمون لأبنائهم هذه النصيحة: «لا تبدأ أبدًا الشجار، ولكن إذا بدأ أحدهم الشجار معك، عليك أن تنهي الأمر».

بكلمات أخرى «لا تكن المعتدي، ولكن إذا اقتضت الضرورة، كسّر رأسه». هل هذه نصيحة كتابية؟ كيف يستطيع أب أو أم أن ينهي عبارة «كسّر رأسه» ليصلّي طلبًا لمعونة الله؟ وهل يصح أن نصلّي طلبًا لمعونة الله ليكسّر رأسه؟

حسب الرؤية الكتابية، عليك أن تعلِّم أبناءك أن يستأمنوا أنفسهم بين يدي الله في وجه المعاملة الظالمة. عليك أن تعلِّمهم مبادئ كلمة الله. تخبرنا رسالة رومية ١٢: ١٧-٢١ أن السلاح الوحيد الذي يقوى على هزيمة الشر هو الخير. توصينا كلمة الله أن تترك الانتقام للرب. سيهتم الله بقضية العدالة. يساعدنا البشير لوقا في لوقا ٦: ٢٧-٣٦ لنفهم كيف نحب أعداءنا، وأن نفعل خيرًا بمن يكرهوننا. يعدنا بأننا سنكون أبناء الله الرؤوف حتى بالناس الأشرار وغير الشاكرين. تخبرنا رسالة بطرس الأولى ٢: ٢٣ أن نواجه الظلم بدون ثأر، ونستأمن أنفسنا في يد الله. ينبغي أن نشجع أبناءنا على رؤية احتياجات مَن حولهم. ينبغي أن تساعدهم على تعلّم أن يصنعوا سلامًا. ينبغي أن تعلّمهم أن الجواب الليّن يصرف الغضب. درّب أبناءك أن يستغلوا المواقف التي يُجرحون فيها ليتعلّموا كيف يحبون الله ويعمقون ثقتهم واعتمادهم عليه.

الأطفال المُخلَّصون

دعنا نعيد التفكير مرة أخرى في مسألة خلاص الأبناء. ربما أحد المشكلات المتعلقة بهذا المنظور هو التطلع إلى حدث روحي خلاصي كبير، ويتم تجاهل عملية النمو الروحية للأبناء. إنها مهمتنا أن نعلِّم أبناءنا طرق الرب بأمانة. وإنها مهمة الروح القدس أن يعمل من خلال كلمة الله ليغيّر قلوبهم. وحتى عندما يمنحهم الروح البصيرة ويوقظهم على الحياة من حولهم، فإنها بمثابة عملية مستمرة من النمو.

إن ما يحتاجه أبناؤك هو الرعاية الروحية. ويحتاجون إلى تعلُّم طرق الرب، ويحتاجون إلى التعلُّم عن شخصية الله حتى يتعلمون مخافة صحيحة للرب. ويحتاجون أن يفهموا أن كل ما في الحياة يجرى نحو اليوم حين نقف أمام الله لنعطي حسابًا. ويحتاجون أن يتعلموا عن الآثار المدمرة للسقوط على الحالة الإنسانية. ويحتاجون أن يتعرفوا على الأمور الملتوية لخبث قلوبهم. ويحتاجون أن يعرفوا مخاطر وضع الثقة في ذواتهم. يحتاجون لإجابات عن المشكلات الحياتية الكبرى. يحتاجون أن يفهموا الفارق بين التفكير المبني على افتراضات مسبقة والمنهج التجريبي في التفكير. باختصار، يحتاجون إلى تعليم ورعاية.

وفّر لهم الرعاية. شجعهم برفق ليثقوا في الله. إنهم بحاجة إلى أن يثقوا فيه ليس للخلاص فقط، وإنما للحياة اليومية. علِّمهم كيف تؤثر معرفة الله على خبرة التعرض للاستقواء في فناء المدرسة. هذا سيصنع فرقًا عندما يشعرون بالخوف، أو الغضب، أو الجُرح، أو بأنهم أخطأوا أو أخطأ أحدٌ في حقهم. إن التعرف على طبيعة الله سيؤثر على الأهداف طويلة المدى لحياتهم. لابد أن تساعد أبناءك على فهم الكنوز الغنية للعيش في قوة إيمان حيّ بالمسيح.

لابد أن تُظهر لأبناءك كلاً من احتياجهم لعمل فداء المسيح العظيم، والتزامهم بأن يتوبوا عن خطاياهم ويضعوا ثقتهم في يسوع المسيح. التوبة والإيمان ليسا طقسين للبدء في الحياة المسيحية. التوبة والإيمان هما الطريق للعلاقة مع الله. التوبة والإيمان ليسا عملين يمارسان مرة واحدة لتصبح مسيحيًا. بل إنهما توجهان للقلب نحو أنفسنا ونحو الخطية. الإيمان ليس هو السبيل لأنال الخلاص فقط، بل هو شريان الحياة المسيحية.

لابد أن يفهم أبناؤك معنى التوبة، ليس فقط «عن كل خطاياي» بشكل عام، وإنما عن خطايا محددة لوثنية القلب. يحتاجون أن يتعرفوا عن غفران الله الذي يطهّر ويجدد، وليس فقط مرة واحدة للخلاص، وإنما كل يوم. لابد أن يفهموا الحياة المسيحية. لابد أن يفهموا أن الحياة المسيحية لا تمثّل فقط العيش وفقًا لأخلاقيات كتابية، بل كحياة في إيمان والتزام وشركة مع الإله الحي.

العبادة العائلية

لابد أن تعمل العبادة العائلية بالمعنى الأوسع والأغنى كما سبق وشرحت في الفقرة السابقة. من السهل أن نستبدل الغاية بالوسيلة. ممارسة العبادة العائلية تمثل وسيلة، وليس غاية. إنها وسيلة لغاية هي معرفة الله. الهدف الرئيسي ليس العبادة العائلية في حد ذاتها، وإنما الهدف هو معرفة الله. الغاية هي معرفة الله، والوسيلة التي توظف للوصول إلى هذه الغاية هي العبادة العائلية.

أنت تحتاج لعبادة عائلية تؤثر في أبناءك وفي حياتهم. لابد أن تكون مبدعًا ومرنًا في التأكيد على أن تخدم العبادة العائلية مهمة الرعاية والعناية التي تحدثنا عنها سابقًا.

قراءة سفر الأمثال يوميًا له فائدة عظيمة للأبناء (وللكبار أيضًا). كنا نواظب يوميًا على قراءة ثلث أصحاح من سفر الأمثال قبل الذهاب إلى المدرسة في كل يوم. وكان يمثل هذا مصدرًا غنيًا للحكمة والتشجيع لأبنائنا. رأيناهم يتعلّمون، ثمّ في مرحلة لاحقة تترسخ المبادئ التي نتعلّمها في هذه الحصة العملية من كلمة الله. سفر الأمثال يعمل بمثابة دليل للحياة كما يريدها موجد الحياة. سفر الأمثال يواجه الطفل بكل جوانب الحياة الروحية الحقيقية.

عندما كان أبناؤنا صغارًا، كنا معتادين على قراءة نصوص من العهد القديم وتمثيلها. كنت ألعب دور جليات (بالوقوف على كرسي). وكنا نختبئ في الكهوف (تحت الطاولة) مع داود بينما كان هاربًا من شاول. قراءة بعض مزامير الاضطهاد في هذا الظروف، جعل هذه المزامير تبدو حقيقية لأبنائنا. في أحد الأيام، حزمنا أغراضنا وخرجنا سيرًا على الأقدام متحدثين عن إبراهيم الذي ترك أور الكلدانيين وهو لا يعرف أين سيذهب،

ولكنه كان يعرف فقط أن الله سيكون معه. حاولنا نتخيّل الذهاب بعيدًا عن وطننا ونحن نعرف أننا لن نعود إليه مرة أخرى. حاولنا نتخيّل أنفسنا ونحن لا نعرف أين سنذهب.

لماذا كل هذا؟ لهذا السبب البسيط: لنجعل الحق الكتابي حيًّا أمام أبنائنا. تذكر دائمًا أن الهدف من العبادة العائلية هو معرفة الله. عندما تفقد هذا الهدف تصبح عبادة العائلة طقسًا لا طائل منه. تحتاج فقط أن تقرأ إشعياء أصحاح ١ لتعرف كيف يشعر الله تجاه الطقوس الخاوية.

أبناء مهذّبون

ماذا عن المثال الذي ذكرناه سابقًا عن تربية أولاد مهذّبين؟ لا تقدر أن تستخدم أسلوب «أبلة فضيلة»؛ لأنه ببساطة وسيلة محكمة للخداع الاجتماعي الرقيق. من وجهة النظر الكتابية، السلوكيات هي تعبير وتطبيق لوصية تحب قريبك كنفسك. الأمر يتعلق بتعليم الأبناء أن يتمثلوا بتضحية الرب يسوع كما وردت في فيلبّي

عندما تقول «من فضلك» و«شكرًا» بناءً على معنى التطلع إلى مصلحة الآخرين، يصبح ذلك تعبيرًا عن المحبة الكتابية. عندما لا تبدأ في الأكل إلا عندما يُوضع الطعام أمام الجميع، فهذا لا يمثّل تقليدًا اجتماعيًا فارغًا، وإنما هي طريقة لإظهار مراعاة مَن حولك. لابد أن يتأسس السلوك الجيد على السمات النادرة التي رأها الرسول بولس في تيموثاوس: «**لأَنْ لَيْسَ لِي أَحَدٌ آخَرُ نَظِيرُ نَفْسِي يَهْتَمُّ بِأَحْوَالِكُمْ بِإِخْلاَصٍ، إِذِ الْجَمِيعُ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ لأَنْفُسِهِمْ لاَ مَا هُوَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.**» (فيلبّي ٢: ٢٠-٢١).

التعليم الجيد

ماذا عن الأهداف الأكاديمية؟ عادة ما يضغط الآباء والأمهات على أبنائهم ليحصلوا على أعلى الدرجات. هل الدرجات العالية هدفًا كتابيًا؟ ما هي النصوص الكتابية التي تؤكد هذا الهدف؟ وبالتالي ربما يضيف الآباء والأمهات للهدف غير الكتابي بعض المحفزات غير الكتابية. «سأدفع لك دولارًا على كل تقدير (A) تحصل عليه في أي من الاختبارات» أو ربما يقولون: «إذا ذاكرت باجتهاد، ستكون قادرًا

على الحصول على وظيفة جيدة والحصول على كثير من المال عندما تكبر». هل هذا هدف كتابي؟ لا يقترب حتى من هدف كتابي! يقول سفر الأمثال ما هو عكس ذلك: «**لاَ تَتْعَبْ لِكَيْ تَصِيرَ غَنِيًّا**» (أمثال ٢٣: ٤).

ولا أنكر بذلك بأي معنى أن المجتهدين سيجازيهم الرب بغنى. بالطبع هذا صحيح، لكن لا يمكن أن يعمل الإنسان فقط ليكون الأجر المادي هو هدفه الوحيد.

في المقابل، لا يصح أن يكون هناك أي ضغوط من أجل الحصول على الدرجات العالية. الدرجات ليست مهمة. بعض الأبناء يستطيعون الحصول على تقدير «A» في كل المواد بدون مجهود مضني. البعض يناضلون من أجل تقدير «C». المهم أن يتعلَّم الطفل أن يؤدي عمله باجتهاد من أجل الرب. وأن الله وعد بأنه سيكافئ الأمين. وعندما يعرف طفلك أن المواهب والقدرات هي وزنات أعطاها له الرب، سيكون هدفه هو السلوك بأمانة. يجب أن تدرّب طفلك على أن يجد في المسيح القوة والقدرة ليعمل من أجل مجد الرب. بأي طريقة أخرى فأنت تدرب أبنك على أن يفكّر ويسلك بطريقة غير كتابية.

الرد على الاعتراضات

أستطيع أن أسمع اعتراضًا من قرائي: «ماذا لو كان أبنائي غير مؤمنين؟» سنتطرق لهذا الأمر لاحقًا، ولكن أسأل الآن، هل تعتقد أننا ينبغي أن نعلِّم غير المؤمنين أن يعصوا ناموس الله؟ ألا ينطبق المعيار الإلهي على الجميع، سواء آمنوا أو لا؟ هل نتجرأ ونعطيهم الآليات والأساليب التي تساعدهم على أن يتعلّموا التلاعب بعالمهم بدون الله؟ مثل هذه الأمور ستبعدهم أكثر عن المسيح.

إذا قدمت المعيار الإلهي بأمانة، فأنت تجعل ناموس الله أمامهم وهو بمثابة المؤدب الذي سيقودهم إلى المسيح. وإذا رأوك وأنت تتعامل بلطف مع شخص يؤذيك، فلن يكون هناك أمامهم طريق سوى الله، الذي يستطيع وحده أن يمكّن الفرد من التجاوب في محبة. عندما يشتهي قلب طفلك الانتقام، وعندما يضطر لمحبة عدوه، وعندما يتطلب إيمانه أن يترك مكانًا لعدالة الله- فليس هناك مكان ليذهب إليه سوى الصليب. لن يستطيع قبول

هذه الأشياء بدون قبول المسيح أولاً. وبالتالي أنت تشير دائمًا إلى المسيح وعمله وقدوته ونعمته.

ظهر جليًا الحصول على معونة من المسيح في حياة ابنتنا. عندما كانت في نهاية المرحلة الإعدادية بدت في غير توافق مع مدرّسة اللغة الأسبانية. وخلال سنوات المرحلة الثانوية كانت تصارع مع مشاعر الغضب في كل مرة أخطأ في حقها شخص ما. قضينا ساعات طويلة نتحدث عن كيفية التجاوب مع هذه المواقف. وناقشنا معها استحالة أن تحب هذه المرأة بدون نعمة الله. وشجعناها لتجد الرجاء والقوة والتعزية والراحة في المسيح. يومًا ما لاحظت زوجتي ورقة عليها تطبيق لرومية ١٢ على طرف كتابها المقدّس من أجل علاقتها بمعلّمة اللغة الأسبانية. لقد خاضت ابنتنا اختبارًا روحيًا ضروريًا لتختبر معونة المسيح في هذا الصراع اليومي.

يجب أن يكون هدفك الأول أن تعلِّم أبناءك أن يعيشوا لمجد الله. لابد أن تعلِّمهم أن الحياة لهم ولكل البشر توجد في معرفة وعبادة الإله الحي الحقيقي. إن الهدف الأسمى الوحيد في الحياة هو أن تمجد الله وتتلذذ به إلى الأبد.

إذا قبلت هذا الهدف كهدف وحيد يستحق اهتمامك ومجهودك، فما هي الأساليب التي ستوظفها لتساعد أبناءك على الإيمان بهذا الهدف والعيش من أجله؟ سنناقش هذه الأساليب في الفصل التالي.

أسئلة للتطبيق في الفصل ٦

هذه الأسئلة هي نفسها الأسئلة التي فكرنا فيها في نهاية الفصل الخامس. كيف تغيّر فهمك لهذه الأمور بفضل كلمة الرب؟

١- كيف تعرّف النجاح؟ كيف يمكن لطفلك أن يكمل الجملة التالية: «ما يريده أبي وأمي لي هو.....»

٢- أنت تتعرض لضغط الأشياء التي أوردتها تحت الأهداف غير الكتابية. أي هذه الأهداف غير الكتابية له التأثير السلبي الأكبر على تربيتك لأبناءك؟

٣- تذكر أنك عامل مؤثر يشكّل في أبناءك. ما الذي يحفزك يومًا بعد يوم؟ ماذا تخشى وماذا تحب؟ وأي شيء يؤرقك؟ ما هي القيم التي تعلّمها في بيتك؟

٤- مثل بني إسرائيل في العهد القديم- أنت تتأثر بالثقافة المحيطة بك. كيف أثرت الثقافة المحيطة بك في رؤيتك لأبناءك وأهدافك لهم؟

٥- هل أنت منسجم مع فكرة العيش من أجل مجد الله؟ هل تجد هذه الفكرة صدىً في نفسك، أم أنها فكرة دينية ليس لها معنى؟

٦- ما هي الأساليب غير الواضحة التي تدفعك لتعلّم أبناءك أن يسلكوا وفقًا لأسلوب الثقافة المحيطة؟

٧- ما هي الإشارات المتداخلة التي ترسلها لأبناءك؟ مثلاً:

١- أهم شيء بالنسبة لي أن تبذل أقصى ما في وسعك (في مقابل) لا أريد أن أري درجات سيئة في شهاداتك الشهر القادم.

٢- الحياة لا تتمثل في وفرة المقتنيات (في مقابل) انتظر حتى ترى ما أعطيه لك.

٨- الرعاية الروحية الصحيحة هي مسألة اعتناء وليس مجرد بذل طاقة حتى يعلن أطفالك إيمانهم بالمسيح. كيف يؤثر ذلك فيما تفعله معهم؟

٩- هل القواعد المعلنة وغير المعلنة لحياتك العائلية تتفق مع الحياة الروحية الصحيحة. أي العيش لمجد الله؟

الفصل السابع

التخلّص من الأساليب غير الكتابية

لفتت نظري فتاة صغيرة كانت طفلة جميلة، وكل تفاصيل ملبسها وهندامها يدل على ثراء كبير. وكنتُ أنا وهي وأمها في انتظار الطائرة.

كـان جمال هـذه الطفلة خارجيًا فقط، لأنها كانت تلح كثيرًا وسيئة الخلق. وبدا من الواضح أن أمها، المنهكة من السفر، كانت على وشك أن تؤكد سلطتها.

لم تتوقف الطفلة عن البكاء المصطنع، ولم تنتهِ طلباتها، وكانت رافضةً أن تهدأ وتطيع. حاولت أمها تهدئتها، لكن الطفلة كانت عنيدة لا تلين. ثم تُرى ماذا حدث؟

التفتت إليها الأم في النهاية بعد أن تملّكها الغيظ، وقالت لها: «لقد سئمت منكِ. أكرهكِ. اذهبي بعيدًا. ابحثي عن شخص آخر لتصيحي في وجهه. لا أريدكِ. لا أستطيع أن أتحملكِ. اذهبي عن وجهي.»

وبعد ذلك، جمعت الأم أغراضها وذهبت بعيدًا عن ابنتها.

ربما كان أمام الطفلة الصغيرة أن تتحدى إظهار السلطة هذا في الظروف العادية، ولكن هنا، في مطار ومكان غريب، شعرت الطفلة بالخوف الشديد.

فتحركت في اتجاه أمها وقالت «أنا آسفة يا ماما. أنا أُحبك يا ماما».

«اذهبي بعيدًا. لا أعرفكِ...»

قالت الطفلة هذه المرة في تذلل «آسفة يا ماما»

«اذهبي بعيدًا. أنا أكرهكِ»

تم التنبيه على المسافرين بالتوجه إلى رحلتي. وعندما شاهدتها لآخر مرة، كانت الطفلة لا تزال تتضرع وأمها توبخها وتقدّم لها محاضرة.

عندما ننظر إلى الأمر من وجهة نظر واحدة، ربما يقول البعض هذه هي التربية الناجحة. هذه الأم كانت تواجه طفلة لحوحة وغير معقولة. كانت قادرة في غضون دقائق أن تغيّر سلوك ابنتها. من منظور آخر، قد يتفق الجميع أن أسلوب الأم يُعد خاطئًا. وبينما كانت قادرة على تغيير سلوك ابنتها، فإنها فعلت ذلك بتكلفة عالية جدًا. كان العلاج أسوأ من المرض.

لا يمكننا تجاهل الأسلوب. من وجهة النظر الكتابية الأسلوب يساوي الهدف في الأهمية. والله يهمه الأمرين معًا؛ فهو لا يهتم فقط بما نفعله، ولكنه يهتم بكيف نفعل ما نفعله.

لا تمدنا ثقافتنا بالنماذج الكتابية. وهنا في هذا الجانب المتعلق بالأهداف، لابد أن نحدد ونرفض الطرق غير الكتابية التي تتسابق على الاستحواذ على انتباهنا. الأهداف الكتابية تحتاج إلى طريقة كتابية - وفقط الطريقة التي ترضي الله هي التي تجلب المجد لله.

الأساليب غير الكتابية

تظهر لنا الطرق غير الكتابية بأشكال متنوعة. دائمًا ما تتعرض المجلات والكتب لتربية الأطفال. وهناك دائمًا رواج لطرق تربوية تعد ببعض الأمل في النجاح. تستضيف برامج «الـ Talk show» الخبراء. وكثيرًا ما نميل إلى الرجوع إلى عادات مألوفة تربينا عليها.

طرق متنوعة يجمعها شيء واحد: العقل البشري هو المعيار. قد يكون عقلنا الخاص- «ليس هناك خطأ فيما فعله أبـي..». وقد يكون عقل الآخرين - «دكتور فلان دافع في برنامجه عن هذا، ويبدو هذا مناسبًا لي..» ويبدو الإيمان بالعقل البشري واضحًا كمرجعية كافية في كل هذه الأمثلة.

دعنا نحدد الأساليب الشائعة.

ليس الأمر سيئًا جدًا

من المؤسف، كثير من الآباء والأمهات لا يفكرون في الأسلوب. فهم فقط يغضبون ويصرخون. وعندما يطفح الكيل بهم، فإنهم يهددون، ويصيحون، ويضربون أطفالهم ويتفاقم الإحباط داخلهم. وأحيانًا يحدث هذا باسم التأديب الكتابي. في النهاية لا يريدون أن يكونوا آباء وأمهات متساهلين ولديهم أبناء غير مؤدبين. وعندما يواجهون تحديًا كثيرًا ما يتجاوبون كالتالي: «أبي كان يصيح في وجهي. وكان مستعدًا أن يضربني علقة ساخنة من وقت لآخر. لم أكن أحب ذلك، ولكن أتضح أنه كان محقًا.»

ماذا فعل هذا الآب أو هذه الأم؟ لقد قبل بدون تشكك نفس الأسلوب الذي اتبعه ووظفه أبواه في تربية الأطفال. ولم يقيِّم هل كانت طريقتهما كتابية أم لا. ولم يقيِّم هل أثرت طريقتهما إيجابيًا عليه أم لا. لقد استدعى ببساطة أنه طالما هو موجود الآن فهذا يتضمن أن هذه الطريقة لم تكن بهذا السوء.

في المثال السابق، تمثل طريقة «ليس الأمر بهذا السوء» أسلوبًا عدائيًا ومؤذيًا. هناك تطبيقات آخرى لهذه الطريقة لا تتضمن مواجهة أو إيذاء. ربما الآباء والأمهات من النوع المتساهل أو المنشغل. ربما يكونوا مستسلمين أو يسهل التلاعب بهم. الفكرة هي أن الكثير من الآباء والأمهات يوظفون دون تفكير الأسلوب الذي اتبعه آباؤهم وأمهاتهم. وعندما يؤدبون أطفالهم، فإنها ببساطة يكررون كلمات والديهم ونبرة أصواتهم.

علم النفس الشعبي

استمعتُ مؤخرًا لبرنامج إذاعي كان الضيف يناقش موضوع تحفيز الأطفال. وكانت طريقة معالجته للمشكلة هي الرشوة. وبالفعل استخدم مصطلح «الرشوة» ليصف به طريقته. وكانت نصيحته هي عقد الصفقات. استخدم سلطتك كشخص بالغ لتقدم رشاوي تشجّع على السلوك الذي ترغب فيه.

لن ينظف ابنك غرفته، أعطِه رشوة. في كل أسبوع يحافظ فيه على نظافة غرفته، اشترِ له لعبة جديدة، أو أعِطه ٥ دولارات. كل ما عليك فعله هو أن تكون مبدعًا بما يكفي لتجد الرشوة التي تغري كل واحد من أبناءك.

شكل آخر لهذه الطريقة هو العقود. اصنع عقدًا مع ابنتك. اعقد اتفاقية واضحة تلزمك بالقيام بأشياء معينة إذا قامت ابنتك بأشياء معينة. اصنع عقودًا تضمن تنفيذ ما تطلبه. (ننسى سريعًا أن الطفل يمكنه أن يلف ويدور حول أي عقد يمكن أن يتخيله عقل أب أو أم).

هذه الأساليب سطحية. وفكرة اللجوء إلى الرشوة والعقود فيها اهتمام شديد بالمصلحة الذاتية. الرشوة تؤكد وتعزز على الشر الموجود في قلب الطفل، وتستخدمه كحافز. ولا يتعلم الطفل مراعاة مصالح الآخرين. ولا يتعلّم شيئًا عن خضوعه تحت السلطة لأن الرب هو الله والأب أو الأم هو وكيل عنه. ولا يتعلم الطفل الأسباب الكتابية لضرورة التصرف باستقامة ومسؤولية وأهمية نظافة وتنسيق غرفته.

هذه الأساليب لن تكون كافية لأي أب أو أم يفهم أن القلب هو الذي يحدد السلوك. هذه الأساليب لا تتعامل مع القلب بطريقة كتابية، بل تهتم فقط بمواقف سلوكية. مع الأسف، القلب يتم تدريبه ولكن ليس بأهداف أو دوافع كتابية.

تعديل السلوك

بعض أساليب علم النفس الشعبي تطبق مفهوم تعديل السلوك. الفكرة سهلة. كافئ السلوك الجيد بشكل ملموس، وتجاهل أو عاقب السلوك السيئ. وبالرغم أنني لست ضد مدح الأبناء عندما يفعلون شيئًا صائبًا، فإنني أرفض فكرة مكافأة الأطفال عندما ينفذون مسؤوليات عادية.

تعديل السلوك يوفر مكافأة لفعل ما يُعتقد أنه صائب. فعندما ينفذ الصغير أحد المهام المنزلية بشكل جيد، فإنه يخرج لتناول الآيس كريم. وإذا أخفق في فعل مهمة معينة، فإنه

يُحرم من شيء. الأمل هو أن يستجيب الطفل للمكافآت والحرومات بأن يتصرف بشكل جيد.

ولأن القلب والسلوك مرتبطان بشكل مباشر، فإن أي شيء يعدّل من السلوك حتمًا سيدرب القلب. سيتدرب القلب على حب الذات بشكل جشع، وسيُدرَّب على حصد المكافآت. الاحتكام هنا إلى جشع الطفل الصغير. ولأن الصغير يعيش حياة مدفوعة بالشهوة حيث سيتصرف وعينيه على الآيس كريم والأشياء الجيدة الأخرى، فإن الخطة تبدو ناجحة. ولكن الأساليب التي ستستخدمها حتمًا ستعلم القلب- القلب يحدد السلوك.

أحد العائلات التي أعرفها ابتكرت تطبيقًا ذكيًا جدًا لهذا المنهج السلوكي. في كل مرة كان أبناؤهم يتجاوبون بشكل جيد، فإنهم يكتبون اسم الطفل على ورقة ويضعونها في برطمان.

إذا غسل الطفل أسنانه، أو ساعد في غسل الأطباق، أو نظف غرفته، أو ساعد في إعداد المائدة، أو فعل أي شيء يستحق المديح، يُكتب اسمه ويوضع في البرطمان. وإذا فعل شيئًا سيئًا، يُسحب اسمه من البرطمان. وفي نهاية الأسبوع، يُسحب اسم من البرطمان، ويحصل الطفل الفائز على هدية.

عرف الأبناء الهدف من هذه اللعبة بسرعة. ادخل اسمك أكبر عدد ممكن من المرات في البرطمان. وكلما زاد عدد مرات وضع اسمك في البرطمان، زادات فرصتك في الفوز.

هل تتساءل كيف كان الأمر؟ كان الأمر ناجحًا. كانت أداة فعّالة لتعليم الأبناء. نعم.. علمتهم أن يكونوا أنانيين. علمتهم أن يفعلوا أشياءً لدوافع غير صحيحة. علمتهم أن يحصلوا على استحسان والديهم، عن طريق وضع اسمهم في البرطمان. وسرعان ما تعلموا ما الذي سيوصل اسمهم في البرطمان، وكيف يزيدون عدد المرات بالقليل من المجهود. أصبحوا مخادعين للنظام. عندما لا تتواجد الأم لتلاحظ السلوك الجيد، لن يُوجد هدف من التصرف الجيد. هذا النظام أبعد هذه العائلة عن السلوك الكتابي النابع من دوافع كتابية.

دعني أشير بشكل مختصر أن التحفيزات والمكافآت الكتابية ليست غاية في حد ذاتها، وإنما هي نتائج لإطاعة الرب. هناك بركة مؤقتة مرتبطة بالطاعة. الله الذي يعرف قلوبنا يدعونا إلى السلوكيات الصحيحة بهدف إكرامه. وهو يكرم الذين يكرمونه (صموئيل الأول ٢: ٣).

المنهج العاطفي

أسلوب آخر يعتمد على المنهج العاطفي. وهذا ما كانت تستخدمه الأم في المثال الذي بدأنا به هذا الفصل. فقد احتكمت إلى مشاعر الخوف لدى الطفلة من أن تُترك لوحدها في المطار في مكان غريب. اللجوء هنا كان الجانب العاطفي للابنة. عرفت الأم أن ابنتها لن تستطيع التعامل مع التهديد العاطفي الناتج عن تركها بمفردها في المطار.

البعض يستخدم نفس الطريقة العاطفية بشكل أقل حدة. سمعت آباء وأمهات يقولون «يحزنني أن أراك تتحدث هكذا. أنت تجرحني في مشاعري....». مرة أخرى هنا نقطة المرجعية هي الارتياح العاطفي.

شكل آخر من الاحتكام للعاطفة هو تخجيل الطفل. توجد فتاة صغيرة من معارفي يتم تخجيلها بانتظام من خلال تهديدات بأن سلوكياتها ستفسد سمعة أبيها كأحد قادة المجتمع. الهدف هنا ليس الطاعة من أجل مجد الرب. وإنما هو تخجيل محمل بالعاطفة لوضعها لمصداقية والدها في خطر بسبب سلوكها غير المقبول.

تستخدم عائلة من معارفي شكلاً آخر من الحرمان العاطفي بشكل ممنهج. يرفضون الضرب لأنه شيء قاسٍ. لكنهم يضعون ابنتهم عندما تسيء التصرف في كرسي بمفردها في منتصف غرفة المعيشة لفترة معينة من الوقت. وطالما كانت الطفلة في فترة التأديب على الكرسي، غير مسموح لأحد من أفراد العائلة أن يتحدث أو يتواصل معها بأي شكل. يتم عزلها تمامًا عن العائلة، وهو ما يستمر كما لو كانت غير موجودة هناك. وعندما سُئلت هذه الفتاة البالغة من العمر ٧ سنوات عن أكثر شيء يحزنها، أجابت: «أسوأ لحظات حياتي وأنا على الكرسي، وبابا في البيت، لكنه لا يتحدث معي».

هذه الطريقة ليست قاسية فقط، ولكنها طريقة غير فعّالة في مخاطبة القلب بشكل كتابي. لا تتعلم الطفلة أن تميّز بين القضايا المحددة المتعلقة بالقلب والتي تعكس سلوكها. وما تتعلمه هو أنها تتجنب الحرمان العاطفي الذي تتعرض له فوق الكرسي. قلبها يتدرب، ولكن لا ليعرف الله ويحبه. إنها تتدرب على التجاوب مع الخوف الشديد من الحرمان العاطفي.

وبالرغم أنها عرضة لتصبح قاسية أمام هذه الطريقة من التأديب، يجوز لنا أن نتوقع أنه سيكون لها آثارًا طويلة المدى. قد تصبح مدفوعة طوال عمرها برغبة أن ترضي والديها وتحرص على الحصول على استحسانهم. أو ربما تبتعد داخليًا عن والديها حتى تحمى نفسها من المزيد من الجُرح. وسواء كانت مطيعة أو متمردة، فإنها لا تتعلّم أن تحيا برغبة معرفة الله ومحبته.

التقويم العقابي

بعض الآباء والأمهات يستخدمون أسلوبًا عقابيًا. هؤلاء يستخدمون التهديد بالعقاب ليسيطروا على أبنائهم. توجد أشكال مختلفة لهذه الفكرة. قد يتضمن العقاب الضرب أو الصياح. قد يكون العقاب ببساطة الحرمان من شيء ما يرغب فيه الطفل. الهدف هو جعل الطفل تحت السيطرة من خلال خبرة العقاب السلبية. أنا لا أنتقد الاستخدام الكتابي للعصا، وإنما أنتقد الاستجابة الفورية للإحباط والغضب.

ربما يكون التأريض (الحرمان من شيء) (grounding) أشهر أشكال الحرمان (نشأ المصطلح على الأرجح من حرمان الطيار من التحليق وبقاءه على الأرض بسبب العقاب أو المرض- المترجم). يُحرم الأطفال من الدراجة، أو استخدام التليفون، من الخروج من البيت، من التليفزيون، من مقابلة أطفال آخرين، أو أحد من أفراد عائلته. بينما أكتب هذا أتذكر طفلاً يبلغ من العمر ١٠ سنوات كان يُحبس في غرفته لعدة أسابيع. وكان يترك غرفته فقط للذهاب إلى المدرسة أو للطعام، أو ليذهب إلى الحمام.

المشكلة هنا أنه لم تتم مواجهة أي شيء من أسباب السلوك السيئ الذي عوقب عليه الطفل. سألت أهله ماذا تظنون أن تفعل هذه الطريقة. نظروا إليّ وحملقوا. كما ترى فإن

التأريض (الحرمان من شيء) لا يهدف إلى فعل شيء للطفل، بل يهدف إلى فعل شيء ضد الطفل.

التأريض (الحرمان من شيء) لا يقوّم السلوك، لكنه ببساطة أسلوب عقابي. ولا يعالج بشكل كتابي قضايا القلب التي تنعكس في السلوكيات الخاطئة للطفل. بل ببساطة يعاقب لمدة محددة من الوقت. ولا شيء يتعلمه الصغير مما يحتاج أن يتعلمه. لكنه يتعلم أن يتأقلم مع التأريض (الحرمان من شيء)، أمّا عيوب شخصيته لا يتم معالجتها. ولا يتعلم أن يفهم خداع قلبه. ولا يتعلم طرق الرب. ولا يُؤخذ إلى المسيح الذي يستطيع أن يمكّن طفلاً عمره عشرة سنوات ليعرف كيف يعبد الرب.

أتساءل كثيرًا لماذا يُعد التأريض (الحرمان من شيء) شائعًا بكل عالمي. أعتقد لأنه أسلوب سهل. ولا يحتاج إلى تواصل مستمر، ولا يحتاج إلى نقاش مستمر. ولا يقيّم ما يجري بداخل الطفل. ولا يحتاج إلى التعليم بصبر وترفق.

التأريض (الحرمان من شيء) سريع وحاسم وبسيط. «أنت معاقب لمدة شهر. اذهب إلى غرفتك». ربما لا يعرف الآباء والأمهات أي شيء آخر بنّاء ليفعلوه. ويشعرون بالإحباط. ويدركون أن شيئًا ما خطأ في طفلهم. ولا يعرفون كيف يحددون هذا الشيء؛ ليشعروه أنهم بحاجة إلى التجاوب بشكل مختلف.

هناك شيء واحد أكيد، وهو أن التأريض (الحرمان من شيء) (grounding) لا يخاطب مشكلات القلب بطريقة كتابية. هناك مخاطبة للقلب، ولكنها مخاطبة بشكل خاطئ. سيتعلم الطفل التأقلم مع هذه الطريقة من العقاب، ولكنه قد لا يتعلم أبدًا الأمور التي يريد أن يعلمها لابنائه أي أب وأم يخاف الله. كما أن صديقي البالغ من العمر عشرة سنوات له رأي فلسفي في الموضوع.

قال لي: «ليس الأمر سيئًا إلى هذا الحد. أستطيع أن ألعب وأشاهد التليفزيون في غرفتي. إذا لم أسمح لهذا الأمر أن يضايقني، فلن يكون الأمر سيئًا». لقد تعلّم أن يعيش تحت الإقامة الجبرية.

انتقائية جانحة

هذا الأسلوب يمثل بالضبط ما يتضمنه العنوان السابق. إنه ينحرف ويشرد بعيدًا عما يهدف إليه. يوجد به تناقض وعدم استمرارية. هذا الأسلوب انتقائي لأنه يستمد بحرية من مصادر كثيرة. ويحصل الأب أو الأم على شيء من هنا ومن هناك بوسائل متعددة. بعض الأفكار المختارة من مجلة «المختار» (Reader's Digest) في السوبر ماركت مع ربطها بأفكار من فترة دردشة في حضانة الكنيسة. هكذا يسير الأمر. ومثل كرة الثلج التي تلتقط الثلج، تتراكم الأفكار على بعضها على طول الطريق.

لعدة أسابيع يجرّب الأب والأم فكرة العقود. أصبح الأمر مملاً، ولا يبدو أنه ينجح معهم كما ينجح مع شخص آخر.سمعوا عظة عن الضرب، ورأوا أنهم بحاجة إلى هذا. ربما انتظروا طويلاً أكثر من اللازم ليبدأوا في استخدام الضرب. جربوا التأريض (الحرمان من بعض الامتيازات) لفترة من الوقت. ثم جربوا اللعب على المشاعر لفترة أخرى. استخدموا الرشوة لبضعة أيام. وهم بشكل عام يشعرون بالإحباط، والخوف، ويرتفع صوتهم كثيرًا.

يشعر أبناؤهم بالارتباك. ولا يعرفون ماذا يريد والديهم بالضبط. وغير متأكدين أبدًا بشأن النظام المتبع الآن. وهم أسوأ حالاً مما لو اختار الأب والأم أي طريقة واستمروا عليها.

يمكنك أن تضيف على هذه القائمة المختصرة أساليب أخرى لتربية الأبناء. هذه القائمة على سبيل المثال وليس الحصر. نحتاج الآن إلى طريقة كتابية ممنهجة.

تقييم الأساليب غير الكتابية

إلى أين تأخذنا هذه الأساليب غير الكتابية؟ أي نوع من الثمار تحملها؟ بالرغم أننا ناقشنا طرق عديدة مختلفة، فإن جميعها يؤدي إلى المشكلات نفسها. تؤدي إلى تربية سطحية، وليس رعاية قلوب أبناءك. إنها لا تخاطب سوى السلوك. ومن ثَم فإنها تغفل فكرة التأديب الكتابي.

التأديب الكتابي يخاطب السلوك من خلال مخاطبة القلب. تذكّر أن القلب يحدد السلوك. إذا خاطبت القلب بمنهج كتابي، سيتأثر السلوك بذلك.

إن التعجل بمعالجة السلوك بدلاً من القلب يعني أن الاحتياجات العميقة بداخل الطفل يتم تجاهلها. لا يمكنك التجاوب مع صراخ سوزي في وجه جيمي ببساطة بإخبارها بالتوقف عن الصراخ. المشكلة ليست في صراخها في وجه أخيها. المشكلة هي الغضب والمرارة التي في قلبها، وهو ما يُعبّر عنه بالصراخ. إذا حاولت فقط تغيير السلوك، فأنت تغفل القضية الحقيقية- قلبها. أمّا إذا نجحت في مواجهة القضية الحقيقية، ستُحل مشكلة السلوك.

التربية السطحية التي لا تخاطب أبدًا القلب بمنهج كتابي ستنتج أبناءً سطحيين لا يفهمون أنفسهم ولا الدنيا من حولهم. لابد أن يتدربوا على فهم وتفسير سلوكهم من حيث دوافع قلوبهم. إذا لم يحصلوا على هذا التدريب، سيبحرون في الحياة بدون فهم للصراعات الداخلية التي تقف وراء معظم سلوكياتهم وعاداتهم.

التربية التي تركز على السلوك فقط لا تخاطب القلب. المشكلة هي أن القلب يُخاطب بطريقة خاطئة. وتغيير السلوك بدون تغيير القلب يدرب القلب في اتجاه الوسيلة التي تستخدمها. إذا كانت الوسيلة هي المكافأة، فالقلب يتعلَّم أن يتجاوب مع المكافآت. إذا كانت الوسيلة هي الاستحسان، فالقلب يتعلم أن يناضل من أجل القبول، أو تجنُّب عدم القبول. عندما يخبرك الخبراء بأنك لابد أن تجد ما ينجح مع كل طفل على حدة، فإنهم يقولون لابد أن تجد أوثان قلبية تحرك كل طفل على حدة.

إن طفلك خُلق ليصنع عهودًا. القلب هو نبع الحياة. ومخاطبة قلب الطفل بمنهج غير كتابي يؤدي إلى فساد قلبه كعابد وثن، ويعطيه أوثانًا ينظم حياته حولها. بهذا المعنى، كل ما تفعله يخاطب القلب بشكل أو بآخر. إذا قلت سابقًا أن القلب لا يتم مخاطبته، فأنا أعني أنه لا يخاطب بطريقة كتابية.

هناك مشكلة أخرى. إذا واجهت السوك فقط في أولادك، لن تصل إلى صليب المسيح. من المستحيل أن تخرج من الانشغال بالسلوك إلى رسالة الإنجيل. الإنجيل ليس رسالة

عن فعل أشياء جديدة. بل هو رسالة عن التغيير إلى مخلوق جديد. إنه يتحدث إلى أناس مكسورين، وخطأة ساقطين بحاجة إلى قلب جديد. إن الله يجعلنا مخلوقات جديدة من خلال ابنه. إن الله يجري جراحة قلب مفتوح، وليس عملية شد تجاعيد الوجه. إنه يغير من الداخل إلى الخارج. إنه يرفض الرجل الذي يصوم مرتين في الأسبوع، ويقبل الخاطئ الذي يصرخ طالبًا الرحمة.

دعنا نتخيل أنك تتعامل مع مشكلة إخفاق طفلك في أداء واجباته المدرسية. فيما يلي عدة طرق رائعة ولكن غير كتابية تستخدم لغيير سلوك الطفل.

أسلوب الرشوة: «افعل واجباتك طوال الأسبوع، وسآخذك لنلعب الكرة».

الأسلوب العاطفي: «من فضلك اعمل واجباتك. أنا أتضايق جدًا عندما لا تفعل. أشعر أنني أريد أن أبكي. أنا مش عارف عملت إيه غلط»، أو «لقد أنفقت مبالغ باهظة في تعليمك، وأنت تشعرني أنني أنفقت أموالي في الهواء».

الأسلوب العقابي: «أنت لا تقوم بواجباتك..حسنًا لا تليفزيون لمدة أسبوع. وإذا استمريت غدًا في ذلك، ستُحرم من التليفزيون لأسبوعين».

أسلوب تعديل السلوك: «كل يوم تقوم بواجباتك المدرسية، سأضع ورقة عليها اسمك في البرطمان.»

أسلوب «لم يكن الأمر سيئًا بدرجة كبيرة»: «عندما كنت أقصر في أداء واجباتي المدرسية، اعتاد جدك أن يضربني علقة ساخنة. لم يحدث لي ضرر. وتعلمت أن أقوم بواجباتي.. (ثم يضرب)». أو ربما «عندما كنت لا أقوم بواجباتي، كان يتركني بمفردي، وتعلمت الدرس بعد حين. إنها مشكلتك، وليست مشكلتي».

ما الذي تحقق بهذه الأساليب السابقة؟ كان يُرجى أن كل أسلوب يؤدي إلى أن يقوم الطفل بعمل واجباته. السؤال هو: كيف تنتقل من هذه الأساليب إلى الحق الإلهي الثمين وواهب الحياة بأن الله أرسل ابنه ليحرر البشر من الخطية؟ الطرق السابقة لا تقود إلى رسالة الإنجيل. القلب يُدرّب بعيدًا عن المسيح وعن صليبه. ويتم تجاهل بناء

الشخصية. التركيز هو على الانتهاء من الواجبات المدرسية. لا يُـدرّب الأبناء على عمل خيارات أخلاقية كأشخاص مسؤولين يعيشون في مخافة الله. ولكنهم يتعلّمون كيف يفعلون أي شيء من أجلك وتجنب عدم إرضائك. ويتعلّمون أن يصنعوا خيارات بناءً على المنفعة وليس المبدأ.

هناك تأثير مدمر آخر لهذا المنهج في التأديب. إنه يخلق مسافة بين الآب أو الأم والطفل. وآجلاً أم عاجلاً يرون التلاعب المستتر والواضح. وفي النهاية سيشعرون بالاستياء من المحاولات الشديدة للسيطرة على سلوكهم. ويتعلّمون أن يلعبوا لعبة القط والفأر معك، ولكن سيُفقد التواصل والعلاقة العميقة. وبينما يكبرون ويبدأون في تصور حياتهم كمستقلين عن بابا وماما، يصبحون أكثر مقاومة للتلاعب (من جهة والديهم)، وربما متمردين بشكل صريح.

حتى قصص النجاحات الظاهرية للتربية غير الكتابية هي قصص خداعة. ربما رأيت تنشئتك في هذه الأمثلة التوضيحية. ربما تكون واحدًا ممن يقولون: «أتضح لي أنني لست سيئًا بدرجة كبيرة». ربما لم تتمرد أبدًا بشكل صريح ضد والديك. وربما تكون مثل صديقة لي ذهبت إلى الجامعة، وحصلت على شهادتها، وتزوجت وأنجبت أطفالاً. من بعيد لا تبدو أنها فشلت، لكنها تختبر صراعات داخلية مع الشك في الذات. إنها تعرف معنى أن تعيش مع الخوف من الناس، وتلهث وراء الاستحسان. لم تتعلم أبدًا أن تفهم سلوكها من حيث توجهات قلبها. ولديها مشكلة في الخروج من المشكلات في حياتها وتأتي إلى المسيح. لأن الحياة المسيحية لا تُعقل بالنسبة لها. وبالرغم أنها لم تقم بزيارة أحد المشيرين، ولم تظهر أمام الآخرين كشخصية مختلة. لكنها كانت محطمة بالتربية غير الكتابية، والتفاعل الوثني لقلبها مع هذه الأساليب غير الكتابية.

تذكّر أن الله لا يهتم فقط ب «محتوى» التربية، إنه مهتم ب «الكيفية» والأسلوب أيضًا. يتحدث الكتاب المقدّس عن أمور تتعلق بالمنهجية. ما هي التوجهات التي يعطينا إياها الكتاب المقدّس للتعامل مع هذه الأمور؟ الفصل التالي يستعرض هذه الأسئلة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ٧

١- هل تمعنت بدقة فيما تفعله كأب أو كأم؟ هل أخضعت الأمور التي تقولها وتفعلها في تعاملك مع طفلك للنقد الكتابي؟

٢- أي الأساليب غير الكتابية التي ذكرناها تجد نفسك تستخدمها؟ هل يوجد أي طرق أخرى شائعة غير كتابية للتأديب والتقويم؟

٣- ما الخطأ في هذه الأساليب غير الكتابية؟ اذكر ذلك بأسلوبك الخاص.

٤- كيف يمكنك أن تدافع عن هذه العبارة: سلوك أبنائنا ليس هو المشكلة، والقضية الاساسية تتمثل في قلوبهم.

٥- هل تستطيع أن تُكمل بيانات هذا الشكل بحيث تربطه بالفكرة المحورية لهذا الفصل؟

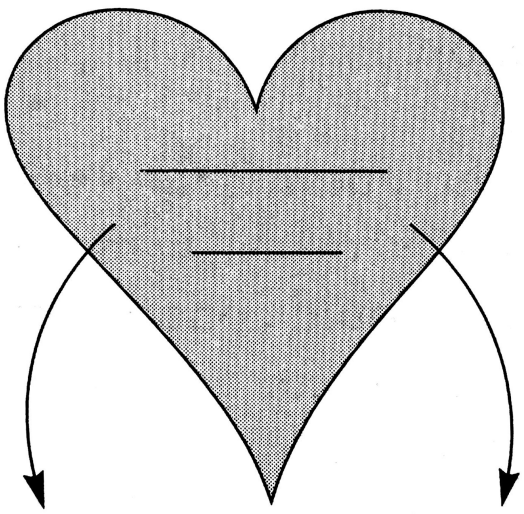

٦- هل يمكنك أن تلخّص فكرة هذا الفصل في عبارة واحدة؟

الفصل الثامن

تبنّي أساليب كتابية: التواصل

مندبو المبيعات يملّون من أكل المطاعم. كان أبي يفهم ذلك، ومن ثَم اعتاد أن يدعو بعض مندوبي المبيعات لتناول العشاء في بيتنا. خلال إحدى هذه الأمسيات، حيث كنا مترددين في الطاعة، كان بابا يذكرنا بواجبنا بسؤاله لنا «ماذا تقول أفسس ٦: ١؟». وكنا نسمّع الآية في أذهاننا «**أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، أَطِيعُوا وَالِدِيكُمْ فِي الرَّبِّ**»، ثم نقوم بمهمتنا.

كان التأثير العظيم لهذا السؤال علينا يبهر ضيفنا. كان يتأكد أنه صادف أسلوبًا جديدًا لجعل الأبناء يطيعون. ومع نهاية الأمسية لا يستطيع أن يخفي فضوله أكثر من ذلك.

يسأل في النهاية «بالمناسبة، ما المقصود بأفسس ٦: ١؟ أود أن أعلّمها لأبنائي». مثل آباء وأمهات كثيرين، أراد صديق أبي أسلوبًا فعّال في التعامل مع أبنائه. وظن أنه ربما تنجح طريقة أفسس ٦: ١ مع أطفاله.

إذا كنا رفضنا الأساليب التي قيمناها باختصار في الفصل السابق، فإلى أي شيء نتوجه؟ ما هو الضوء الذي تلقيه كلمة الله على منهجنا في التربية؟ لابد أن تعرفنا كلمة الله ليس فقط أهدافنا، بل الأساليب التي نتبعها أيضًا.

يجب أن تتكامل الأهداف مع الأساليب. أنت تريد أن يعيش طفلك لمجد الله. تريد لطفلك أن يدرك أن الحياة تستحق أن تعاش تحت قيادة الرب يسوع المسيح. وأساليبك لابد أن تظهر خضوعًا للرب أيضًا. والأساليب التي تهدف إلى تنشئة أطفال ناجحين ومتأقلمين لن تنجح، لأن هدفك ببساطة ليس فقط النجاح والتأقلم.

المنهج الكتابي في التعامل مع الأطفال يتضمن عنصرين يتضافران معًا. العنصر الأول هو تواصل كامل وثري. العنصر الآخر هو العصا. في سفر الأمثال نجد هذين الطريقتين جنبًا إلى جنب:

«لاَ تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ، لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لاَ يَمُوتُ. تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ. يَا ابْنِي، إِنْ كَانَ قَلْبُكَ حَكِيمًا يَفْرَحُ قَلْبِي أَنَا أَيْضًا، وَتَبْتَهِجُ كِلْيَتَايَ (الدوافع والرغبات) إِذَا تَكَلَّمَتْ شَفَتَاكَ بِالْمُسْتَقِيمَاتِ. لاَ يَحْسِدَنَّ قَلْبُكَ الْخَاطِئِينَ، بَلْ كُنْ فِي مَخَافَةِ الرَّبِّ الْيَوْمَ كُلَّهُ. لأَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ ثَوَابٍ، وَرَجَاؤُكَ لاَ يَخِيبُ. اِسْمَعْ أَنْتَ يَا ابْنِي، وَكُنْ حَكِيمًا، وَأَرْشِدْ قَلْبَكَ فِي الطَّرِيقِ.» (أمثال ٢٣: ١٣-١٩)

«اِسْمَعْ لأَبِيكَ الَّذِي وَلَدَكَ، وَلاَ تَحْتَقِرْ أُمَّكَ إِذَا شَاخَتْ» (أمثال ٢٣: ٢٢)

«يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ، وَلْتُلاَحِظْ عَيْنَاكَ طُرُقِي.» (أمثال ٢٣: ٢٦)

هذه النصوص تقرن بين العصا مع المناشدة. يزاوج سليمان بين التواصل الشامل مع العصا. كلا الأمرين لا غنى عنهما للتربية الكتابية. ومعًا يشكلان منهجًا موحدًا ومتماسكًا للتأديب والتقويم وتدريب الأبناء، وفي نفس الوقت يرضي الرب ويشبع الروح. استخدام العصا يحافظ على سلطة أبوية مبنية على الكتاب المقدّس. لقد أعطى الله الوالدين سلطة بأن دعاهم أن يعملوا كوكلاء عنه في تربية الأبناء. كما أن التأكيد على التواصل الغني يمنع التأديب الجاف والمتعسف. بل يمنح سياقًا لتواصل أمين يُعرف فيه الطفل ويتعلم أن يعرف نفسه. هذا الأمر حساس للغاية، ولكنه يمنع الحساسية العاطفية المفرطة.

لابد أن تقترن العصا مع التواصل في الرعاية الفعلية للأبناء. ولكي ندرس كلاً منهما على حدة، سنفصل بينهما. سننظر أولاً إلى التواصل (الفصول من ٨-١٠)، ثم سنتطرق إلى موضوع العصا (الفصل ١١).

فيما يلى جزء من حوار مع أحد الآباء مؤخرًا. استعلمت منه: «أخبرني عن تواصلك مع ابنك»

فأجاب: «ياااه، نحن نتحدث بشكل جيد. ليلة أمس أخبرني أنه يريد دراجة، أخبرته بأن يأكل الفول».

رسم تعليقه ابتسامة على وجهي، ولكن عندما تأملته، أدركت أنه ربما يكون وصفًا دقيقًا للتواصل بين معظم الآباء والأمهات، وأبنائهم. الآباء والأمهات يخبرون أبناءهم بما يجب أن يفعلوه. والأطفال يخبرون والديهم بأمنياتهم وأحلامهم.

التواصل يعني ديالوج وليس مونولوج

كثيرًا ما نظن أن التواصل هو القدرة على التعبير عن الذات. ومن ثَم نفكّر في أنفسنا ونحن نتحدث إلى أبنائنا. ولكن ينبغي أن نسعى إلى التحدث مع أبنائنا. التواصل ليس مونولوج (من طرف واحد) وإنما ديالوج (بين طرفين).

التواصل ليس معناه فقط القدرة على التحدث، وإنما القدرة على الاستماع أيضًا. يتحدث سفر الأمثال عن هذه القضية بحكمة ثاقبة: «**اَلْجَاهِلُ لاَ يُسَرُّ بِالْفَهْمِ، بَلْ بِكَشْفِ قَلْبِهِ.**» (أمثال ١٨: ٢)، كما يذكّرنا بأن «**مَنْ يُجِيبُ عَنْ أَمْرٍ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَهُ، فَلَهُ حَمَاقَةٌ وَعَارٌ.**» (أمثال ١٨: ١٣).

فن التواصل الراقي ليس معناه تعلُّم أن تعبِّر عن أفكارك. وإنما تعلُّم كيف تستخرج الأفكار من الآخر. ولابد أن يكون هدفك في التواصل هو أن تفهم طفلك، وليس فقط أن تجعل طفلك يفهمك. آباء وأمهات كثيرون لا يتعلمون هذه المهارات. ولا يكتشفون أبدًا كيف يساعدون أبناءهم على صياغة أفكارهم ومشاعرهم.

توجد مفارقة معينة في كل هذا. عندما يكون الأبناء صغارًا، كثيرًا ما نغفل إشراكهم في حوار هادف. وعندما يحاولون أن يشاركونا، فإننا نتجاوب بلا مبالاة. في النهاية، يفهمون الفكرة. ويدركون أن «الحوار الجيد» من ناحيتنا، يعني «الإصغاء الجيد» من ناحيتهم. وعندما يصبحون مراهقين، تنقلب الطاولة. ويتمنى الآباء والأمهات أن يشركوا أبناءهم المراهقين، لكن الأبناء المراهقين يكونون قد توقفوا عن المحاولة منذ وقت طويل.

من النماذج الجيدة الفتاة Crystal. أحضرها أبوها وأمها للمشورة. وقالوا إنها منطوية. وكانا يعرفان أنها في مشكلة، ولكنها لا تتحدث معهما. كانت أمها كثيرة الصياح. وكان التواصل يقتصر على فترة من الثورات البركانية. وعندما كانت أمها تقذف الحمم الحارقة، تعلّمت Crystal أن تحمي نفسها. وكان الأب انسحابيًا مبتعدًا. ونادرًا ما كان يتحدث مع أحد. وكانت Crystal البالغة من العمر الرابعة عشر تغلي وتفور من الداخل، لكنها لم تشعر أبدًا بتفهم واحتواء والديها. مع المشورة الكتابية تتعلّم الفتاة أن تتحدث، ويتعلّم أبواها كيف يخرجونها من انسحابها ويصغون لما تقوله.

التركيز على التفهُّم

لابد أن يكون هدفك الأول في التقويم هو ألا تخبر أبناءك عن شعورك تجاه ما فعلوه أو قالوه. لابد أن تحاول أن تتفهم ما يجري بداخلهم. ولأن الكتاب يقول من فضلة القلب يتكلم اللسان، فلابد أن تتفاعل مع أبناءك لتفهم ما يساورهم داخليًا.

المهم في التقويم ليس التنفيس عن مشاعرك، أو غضبك، أو شعورك بالجُرح. وإنما المهم تفهُّم طبيعة الصراع الذي يساور طفلك. المهم هو أن تفهم «أسباب» ما فعلوه أو قالوه. تحتاج أن تفهم ليس فقط ما حدث، ولكن ما الذي يجري بداخل طفلك. تذكّر أنه من فضلة القلب يتكلم اللسان. وسؤالك في التقويم هو كالتالي: كيف تُظهر بالتحديد فضلة القلب في هذا الموقف؟ ما هو الإغـواء؟ وكيف كان تجاوب الطفل مع هذا الإغواء؟ وماذا كان يحاول أن ينجز بهذا التصرف؟ إذا استطعت أن تساعد طفلك ليفهم هذه الأمور، ستكون في طريقك إلى فهم «أسباب» ما ظهر على السطح. ما يجب أن تفعله هو إزالة قشرة السلوك بعيدًا، وتميز العالم الداخلي لدوافع طفلك في هذا الموقف. وبالرغم أنك لن تقدر أبدًا أن تفهم أمور القلب بشكل صحيح مائة بالمائة فإنه سعي يستحق الجُهد.

تخيّل هذا السيناريو: يرتدي طفلك حذاءه الجديد. وأنت تعرف أنك حين أحضرته له ليلة أمس لم يكن سعيدًا به تمامًا، لكنك لم تكن تستطيع تحمُّل تكلفة حذاء سوى هذا. الآن يبكي بينما يستعد للذهاب إلى المدرسة. كيف ستتعامل مع هذا الأمر؟ إذا كان هدفك

أن تدعه يعرف ما تفكّر فيه، ربما تقول شيئًا كهذا:

«انظر، أنا أعرف أن الحذاء لا يعجبك، ولكن هذا كل ما أستطيع شراءه الآن. لا تتصرف كالطفل الرضيع. ماذا ستقول Jared إذا أخبرتها أنك تبكي على شيء كهذا؟ شكل الحذاء سيتغير على أية حال. خلال أيام لن يركز أحد في شكل الحذاء. لماذا تهتم برأي هؤلاء الأطفال عن حذائك؟ مَنْ جعلهم خبراء؟ ينبغي أن تكون شاكرًا لأنك حصلت على الحذاء. هذا الحذاء الذي لا يعجبك ثمنه أكثر من ثمن أول سيارة اشتريناها. انظر، لابد أن أذهب إلى عملي. لديّ أشياء أهم من هذا الحذاء.»

الآن، أمّا إذا كان هدفك الأساسي أن تفهم صراعات طفلك الداخلية، قد تدير حوارًا مثل هذا:

الأب (أو الأم): أنت متضايق بسبب الحذاء، أليس كذلك؟

الطفل: نعم.

الأب (أو الأم): اعتقدت أنه لم يعجبك عندما اشتريناه ليلة أمس. لم ترد أن تخبرني، أليس كذلك؟

الطفل: صحيح.

الأب (أو الأم): ما الذي لم يعجبك في هذا الحذاء؟

الطفل: منظره أهبل.

الأب (أو الأم): لا أفهم ماذا تقصد.

الطفل: Jared تقول إن منظره أهبل.

الأب (أو الأم): متى رأته Jared؟ لقد أحضرناه للتو ليلة أمس.

الطفل: Chris كان لديه حذاء كهذا، وJared أخبرت الجميع في الفصل أنه يبدو كالأخرق.

الأب (أو الأم): ما الذي يجعل الحذاء يبدو كالأخرق؟

الطفل: هذا الخط الأحمر الذي في الخلف. الأحذية الحديثة ليس عليها خطوط حمراء. هذه أحذية العام الماضي- لذلك كان عليها نسبة تخفيض كبيرة.

الأب (أو الأم): لقد فهمت الآن. أنت تخشى أن ينادوا عليك يا أخرق اليوم، أليس كذلك؟

الطفل: نعم

الأب (أو الأم): هذا يجرح فعلاً، صحيح؟

الطفل: نعم. لا أعرف لماذا يهتمون بشكل حذائي، لكني أعرف أنهم سينادونني يا أخرق.

ماذا عرفت؟ طفلك يصارع مع مشاعر يمكنك تحديدها. يوجد ضغوط حقيقية في غرفة الصف الثالث هناك. إنه يشعر بالضغط لينال القبول من أقرانه. هذا الموقف يولد آمالاً ومخاوفًا في قلبه.

هدفك في التواصل يمكن صياغته في عدة عبارات بسيطة:

١- السلوك الذي تراه هو انعكاس لما يفيض في قلب طفلك.

٢- تحتاج أن تفهم تحديدًا ما يفيض من قلبه.

٣- الأمور الداخلية للقلب لها أهمية أكبر من مواصفات السلوك، لأنها تمثل الدافع وراء السلوك.

باختصار.. تحتاج أن تفهم صراعات الطفل الداخلية. تحتاج أن تنظر إلى العالم من خلال عينيه هو. هذا سيمكِّنك من أن تعرف جوانب رسالة الإنجيل الواهبة للحياة الملائمة لهذا الحوار.

إذا كنت مستعدًا لفهم طفلك ومساعدته لفهم نفسه، هناك مهارات لابد من اكتسابها. لابد أن تتعلم أن تساعد أبناءك على التعبير عن أنفسهم. لابد أن تتعلم كيف تسهِّل عملية الحوار. لابد أن تعرف كيف تفهم السلوك والكلمات. لابد أن تكافح من أجل تمييز دوافع القلب. يقول سفر الأمثال: «**اَلْمَشُورَةُ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ مِيَاهٌ عَمِيقَةٌ، وَذُو الْفِطْنَةِ يَسْتَقِيهَا**.» (أمثال ٢٠: ٥). وأنت كأب أو كأم تحتاج أن تكون مثل هذا الرجل الفهيم.

فكّر في تجسد يسوع المسيح. فهو مثال جيد للتفاعل مع أبنائنا. كان بإمكان الله أن يبقى في السماء. كان بإمكانه أن يتحدث من خلال السحب والبرق كما فعل في خروج ١٩. ولكن ماذا فعل الله في التجسد؟ جاء إلى الأرض ليسكن بيننا. واتخذ جسدًا ودمًا مثل جسدك ودمك. واتخذ نفسًا إنسانية مثلنا. وقبِل كل قيود الإنسان على الأرض. وكان يختبر كل الأشياء التي نختبرها. كان يجوع ويتعب مثلما حدث على بئر يعقوب في يوحنا ٤. وبكي على قبر لعازر. تقول رسالة العبرانيين إنه «**تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا**» (العبرانيين ٢).

كما ترى، في التجسد جاء الله ليسكن بيننا بطريقة تمكّنه من النظر إلى العالم من خلال أعيننا. كان يفهم بالتمام ما معنى أن تكون إنسانًا وتواجه الإغواءات التي يختبرها البشر. هذه هي نغمة الظفر في العبرانيين ٤.

«**فَإِذْ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ عَظِيمٌ قَدِ اجْتَازَ السَّمَاوَاتِ، يَسُوعُ ابْنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بِالإِقْرَارِ. لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ. فَلْنَتَقَدَّمْ بِثِقَةٍ إِلَى عَرْشِ النِّعْمَةِ لِكَيْ نَنَالَ رَحْمَةً وَنَجِدَ نِعْمَةً عَوْنًا فِي حِينِهِ**.» (العبرانيين ٤: ١٤-١٦)

كان المسيح ينظر إلى العالم من خلال عيوننا. وعليّ أن أعترف، لتخجيلي، أنني كثيرًا ما أكون عاجزًا عن التعاطف مع ضعفات أبنائي. كان تركيزي كله منصبًا بأكثر من اللازم على تقويم السلوكيات الخارجية، وليس منصبًا بما يكفي على فهم أبنائي.

ولكن، كما كان يحدث معي كثيرًا، كان التعامل مع العصيان فرصة رائعة للاقتراب من أبنائي. فبينما تعرف صراعاتهم الداخلية مع الخطية، سيكون لديك طريقًا لداخلهم.

أنت خاطئ مثلهم. بمقدورك أن تستخدم خبرتك بطبيعة الإغواء لتساعدهم على فهم معاركهم الخاصة. يمكنك أيضًا تشجيع أبناءك بحيث تقدّم لهم أيضًا النعمة والرحمة غير المحصاة التي وجدتها في يسوع المسيح. ففيه بر لا نستطيع أن نعمله، وغفران لا نستحقه، وقوة ليس بمقدورنا أن نجدها في ذواتنا. يوجد رجاء للمحتاجين فيمن صار جسدًا وحَلَّ بيننا.

في أي من الحوارات التخيلية السابقة يمكن أن تُقدّم رسالة الإنجيل بقوة؟ الإجابات واضحة. سيكون عليك اكتساب مهارة فحص القلب إذا كنت تريد فعلاً أن تفهم أبناءك. معظم الآباء والأمهات يجرون هذا النوع من الحوار:

ماما: لماذا ضربت أختك؟

الصغير: (صمت، حملقة في الأرض) لا أعرف.

ماما: (غاضبة) ماذا تقصد ب «لا أعرف»؟

الصغير: لا أعرف.

هكذا يسير الأمر. بناءً على كم من الوقت ستحتفظ الأم بتماسكها، هناك بالتأكيد شيء سيفهمه الطفل سريعًا! ما المشكلة هنا؟ هل المشكلة أن الصغير يرفض الحديث؟ على الأرجح لا. هو ببساطة يتلقى أسئلة لا يستطيع الإجابة عليها. يفتقر الصغير إلى عمق الفهم والوعي الذاتي ليقدر على التجاوب بشكل متواصل على أسئلة أمه. ويحتاج إلى التركيز على شيء مختلف.

إن طريقة الاستجواب ب «لماذا فعلت كذا...؟» لا تنجح أبدًا مع الأطفال (ونادرًا ما تنجح مع الكبار). فيما يلي بعض الأسئلة الفعّالة أكثر:

١- «بماذا كنت تشعر عندما ضربت أختك؟»

٢- «ماذا فعلت أختك حتى أغضبتك؟»

٣- «ساعدني أفهم كيف يجعل ضربك لها الأمور أفضل بالنسبة لك»

٤- «ما المشكلة فيما فعلته بك؟»

(يجب ألا تنكر حقيقة أن طفلك تعرض هو أيضًا للإساءة. ربما يكون قد أخطأت أخته في حقه. اسمح له بأن يخبرك عن ذلك).

٥- «كيف كان يمكنك أن تتصرف بشكل مختلف؟»

٦- «في رأيك، هل يعبّر سلوكك عن ثقة أم عدم ثقة في قدرة الله على أن يعتني بك ويحميك؟»

كل إجابة لهذه الأسئلة يمكن أن يتيح فرصًا لفهم ما وراء سلوك الصغير.

هناك أسئلة مختلفة كثيرة تخاطب خطيته، وتساعد على فهم صراعاته الروحية واحتياجه لنعمة المسيح وفدائه. الفكرة التي أود توصيلها هي: لابد أن تبدأ بالسعي إلى فهم طبيعة الصراع الداخلي الذي تم التعبير عنه بضرب أخته.

وبينما يجيب على الأسئلة السابقة، سيكون دورك مساعدته على فهم نفسه والتحدث بوضوح وأمانة عن صراعاته الداخلية مع الخطية.

هناك أربعة أمور لابد أن تجتازها معه: ١- طبيعة الإغواء، ٢- الاستجابات الممكنة للإغواء، ٣- دوافع هذه الاستجابات، ٤- الاستجابة الشريرة التي اختارها.

في هذه العملية أنت تقف فوقه وبجواره. أنت فوقه لأن الله دعاك لتلعب دورًا في التقويم والتأديب. وأنت بجواره لأنك أيضًا خاطئ تصارع مع إظهار الغضب تجاه الآخرين.

يميل الآباء والأمهات لفعل أحد الأمرين. البعض يقفون في تضامن مع الطفل في فشله (ويسألون «كيف أقوّمه بينما أفعل نفس الشيء؟») وبالتالي يفشلون في تقويمه. آخرون يقفون فوقًا جدًا بحيث يبتعدون في رياء عن أبنائهم. لابد أن تتذكر أنك تتفاعل مع أبناءك بهذه الطريقة كوكيل عن الله. ومن ثَمّ لديك الحق والإلزام أن توبخ الشر. أنت تفعل ذلك كخاطئ بجوار طفلك عندما تفهم كيف تعمل الخطية في قلب الإنسان.

بعد أن رأينا أهمية التواصل كأحد الأساليب الكتابية الأساسية في تربية الأطفال، سنأتي إلى الفصل التالي لتوصيف الوسائل المختلفة للتواصل كما يصفها الكتاب المقدّس.

أسئلة للتطبيق في الفصل ٨

١- هل تقدر على مساعدة أبناءك للتعبير عن أنفسهم؟

٢- ماذا ينبغي أن يكون هدفك الأول في التجاوب مع مشكلة ما مع أبناءك؟

٣- اذكر خمسة أو ستة أسئلة يمكن أن تستخدمها لتستخرج ما يفكر ويشعر به طفلك.

٤- ما هي التغييرات التي سيكون عليك القيام بها في طريقة حوارك مع أبناءك، إذا أردت أن يكون أسلوبك مثل الحوار الثاني عن الحذاء الجديد؟

٥- عبّر بكلماتك عن معنى هذه العبارة: «في عملية مساعدك طفلك على فهم خطيّته، أنت تقف فوقه وبجواره.»

٦- هل تفهم الفارق الذي حاول الفصل شرحه بين «محتوى» السلوك و«أسباب» السلوك؟

الفصل التاسع

تبنّي أساليب كتابية: أنواع التواصل

كثيرًا ما نختصر التربية في ثلاثة عناصر: القواعد، والتقويم، والتأديب. ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي:

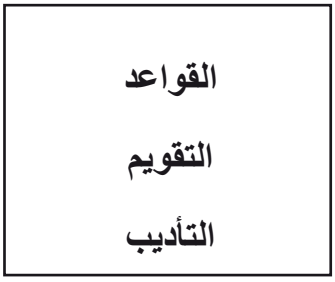

شكل (٤)- التربية

هكذا تسير الأمور. تعطي أبناءك القواعد السلوكية، وتأتي مرحلة التقويم عندما يخالفون هذه القواعد. وفي مرحلة التأديب تعلن النتائج المترتبة التي سيتعرضون لها عندما يخالفون هذه القواعد. كل عائلة تحتاج إلى ما يخصها من القواعد والتقويم والتأديب، ولكن بالنسبة للكثيرين هذا هو مستوى التواصل.

يناقش هذا الفصل بُعدًا ثريًا للتواصل لابد أن يشكل أساسًا ودعامة لكل ما تقوله في تقديم القواعد، ودعوة أبناءك لمساءلتهم، ولتطبيق التأديب المناسب. يجب أن يكون الشكل كالتالي:

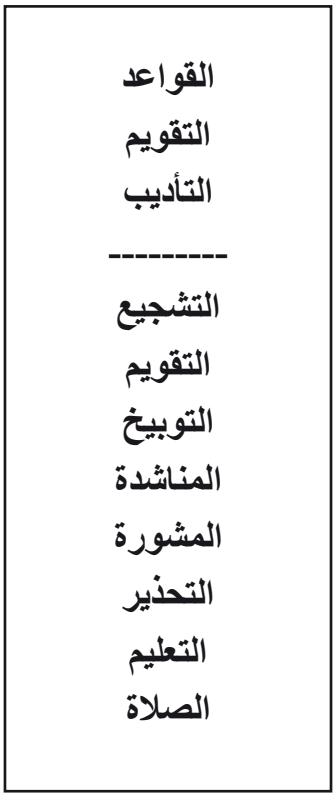

شكل (٥)- التواصل

في مناسبات كثيرة سألت مجموعات من الآباء والأمهات عن نسبة القواعد والتقويم والتأديب في التواصل مقارنة بالأشكال الأخرى الأكثر ثراءً في التواصل. معظم الآباء والأمهات يعترفون سريعًا أن ٨٠ – ٩٠٪ من تواصلهم ينحصر في القواعد والتقويم والتأديب.

أنواع التواصل

لابد أن يكون التواصل متعدد الجوانب، وغنيًا في محتواه. لابد أن يتضمن التشجيع والتقويم والتوبيخ والمناشدة والمشورة والتحذير والتعليم والصلاة. لابد أن يكون كل هذا جزءًا من تفاعلك مع أبناءك.

يعلمنا الرسول بولس في رسالة تسالونيكي حتى نعدّل من كلامنا ليناسب احتياج الموقف «**أَنْذِرُوا الَّذِينَ بِلاَ تَرْتِيبٍ. شَجِّعُوا صِغَارَ النُّفُوسِ. أَسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ. تَأَنَّوْا عَلَى الْجَمِيعِ**» (تسالونيكي الأولى ٥: ١٤). فكرة بولس هنا أن الحالات المختلفة للسامعين تتطلب أشكالاً مختلفة من الكلام. أنت تسبب ضررًا كبيرًا عندما تفشل في تمييز نوع التواصل المناسب للموقف.

أتذكّر أنني أرتكبت خطأً عندما وبخت أحد أبنائي بشدة بسبب مظهره المتسخ. كان في السابعة أو الثامنة من عمره. بد لي أنه كما لو كان أشعث الشعر طوال الوقت. لم أكن مخطئًا عندما تحدثت معه عن مظهره، لكني كنت مخطئًا في توبيخه عندما كان يحتاج فعليًا إلى إرشـادي. لم يكن متمردًا، ولم يفعل شيئًا يستحق النقد عليه. وإنما كان يحتاج ببساطة إلى إرشاد صبور مني. بعد عدة أيام بعدما أدركت أنني جرحته، كان عليّ أن أطلب منه أن يسامحني على توبيخي له وهو لا يستحق.

دعنا نستعرض بعض التعريفات البسيطة لأنواع التواصل.

التشجيع

يحتاج الأطفال إلى تواصل يهدف إلى إلهامهم وملئهم بالرجاء والشجاعة. تحدثت يومًا مع طفل صغير قد انفجر لتوه غاضبًا في غرفة الدراسة. وعندما هدأ، تمكّن من الحديث بشكل منطقي، وقال «مفيش فايدة لا ينبغي أن ألعب. في كل مرة ألعب فيها، يأتي مَن يستفزني، وهذا يحدث دائمًا». من الواضح أنه لم يكن هذا وقتًا للتوبيخ. كان الفتى يعرف أنه مخطئ. كان يشعر بعجزه عن تغيير سمات أساسية في شخصيته. ما كان يحتاجه هو التشجيع، وأن يعرف أن المسيح جاء لأننا خطأة لا نستطيع أن نغيّر أنفسنا. التوبيخ، أو حتى التوجيه، ربما كانا غير مناسبين في هذا الموقف.

يختبر أبناؤك ألم الفشل. وهم مثلك يجدون أشياءً لا أمل فيها في بعض الأوقات.

بمقدورك أن تساعدهم أن يقيموا أسباب خيبة أملهم. وتحتاج أن تساعدهم على فهم وعود الله. بمقدورك أن تشجعهم أن يستمدوا الشجاعة والرجاء والإلهام من الله، الذي يقترب من منكسري القلوب والتائبين.

التقويم

أحيانًا يحتاج الطفل إلى اتباع معيار سلوكي. التقويم يصحح شيئًا خاطئًا. التقويم يعلّم أبناءك ما هو خطأ، وماذا يمكن ان يُفعل لتصحيح المشكلة. التقويم يساعد أبناءك ليفهموا المعيار الإلهي، ويعلمهم أن يقيموا سلوكهم في ضوء هذا المعيار. تذكرنا رسالة تيموثاوس الثانية أن التقويم هو أحد وظائف كلمة الرب (انظر تيموثاوس الثانية ٣: ١٦-١٧).

كانت زوجتي Margy تتحدث مع ابنتنا ذات ليلة. وكانت مناسبة ما بحيث أن الموضوع المثار أصبح ثانويًا بسبب ما كان يحدث أثناء هذه المناسبة. كانت ابنتنا تستجيب للتقويم بشكل محترف. كانت تقوم بكل الإيماءات الصحيحة وتقول كل الردود الصحيحة. ومع ذلك استشعرت أمها أن قلب ابنتنا غير مرتبط برأسها. تأكدت Margy من شكوكها بسؤالها عدة أسئلة متدرجة. وأدركت على الفور أن ابنتنا تحتاج إلى التقويم. ردت زوجتي على استجابة ابنتنا وفقًا لسفر الأمثال ٢٩ والفارق بين الأحمق والحكيم في تلقيه للتقويم. قدمت زوجتي تقويمًا لابنتنا، لتساعدها على فهم المعيار الإلهي، وتقيّم استجابتها للتقويم في ضوء هذا المعيار. تبددت مقاومة ابنتنا سريعًا خلف شلال من الدموع. واستمر الحوار بشكل إيجابي.

التوبيخ

التوبيخ يتنقد السلوك. أحيانًا لابد أن يشعر طفلك بإنزعاجك، أو صدمتك، أو إحباطك بسبب ما فعله أو قاله. على سبيل المثال كنا ولا نزال نعلّم أبناءنا أن هناك حدود معينة لحرية التعبير. لا يصح أبدًا أن نخبر الآخرين بأننا نكرههم، أو نتمنى الموت أو الإيذاء لهم. مثل هذه العبارات تستوجب توبيخًا لاذعًا. اعتدنا أن نقول بانزعاج وجدية واضحة «من الخطأ أن تتحدث بمثل هذه الكلمات. لا أحب أبدًا أن أسمعك تتحدث بهذه الطريقة مرة أخرى». (بالطبع كان يتبع هذا بعض أشكال التواصل مثل التوجيه والتشجيع والصلاة).

المناشدة

هذا نوع من التواصل يكون قويًا وجـادًا. يتضمن التضرع، أو الاستعطاف، أو الحث، وحتى التوسل. ومع ذلك ليس كتوسل الشحاذين. وإنما تضرع جاد لأب أو أم يفهم طفله ويفهم طرق الرب وحدود الموقف، ومستعد أن يكشف عن مكنوناته في تضرع صادق لطفله ليتصرف في حكمة وإيمان. إنه نوع خاص من التواصل يجب أن يقتصر استخدامه في الحالات ذات الأهمية القصوى.

نحن نفهم هذه المناشدة في أمثال ٢٣ كما في الاقتباس السابق. لا يسعنا إلا أن نسمع المناشدة الصريحة من وراء الكلمات الواردة في أمثال ٢٣: ٢٦ «**يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ، وَلْتُلاَحِظْ عَيْنَاكَ طُرُقِي**».

لقد استخدمت هذا النوع من التواصل في الحديث مع أبنائي الصبيان عن أهمية تجنب الخطايا الجنسية مثل الـ Pornography (التصوير/الإعلام الإباحي). وفي عدة مواقف كنت أناشدهم بالابتعاد عن خطر أن يعرضوا أنفسهم للنجاسة. وتحدثت عن خطية الزنا وكيف تلتهم صورة الله في الإنسان، وتقف حائلاً ضد تمجيد اسم الله وتقديسه. حذرتهم من أن الحياة المنحرفة جنسيًا هي ثمن باهظ يُدفع في سبيل لحظات عابرة من فوران اللذة. كنت أمزج مناشدتي بالتشجيع بأن مباهج الجنس حسب معايير الكتاب المقدّس وداخـل نطاق الـزواج هي جميلة فوق الوصف. (ستجد حديثًا عن هذا الموضوع في أمثال ٦-٧). من الواضح، أنني لا أتحدث هكذا كل يوم، وإنما مناشدة من وقت لآخر عن قضايا هامة يكون لها ثمر جيد.

المشورة

المشورة هي عملية تقديم درس أو مبدأ، أو معلومة ستساعد أبناءك ليفهموا العالم المحيط بهم. كأب أو كأم أنت تتعامل مع صبية وفتيات لديهم فجوات واسعة في فهمهم للحياة. يحتاجون معلومات عن أنفسهم وعن الآخرين. يحتاجون إلى فهم عالم الحياة الروحية ومبادئ ملكوت الله.

يحتاج أبناؤك إلى إطار يمكنهم فهم الحياة من خلاله. تُعدّ أمثال الملك سليمان مصدرًا غنيًا للمعلومات عن الحياة. الطفل الذي يبدأ في فهم توصيف السفر للأحمق وللكسلان وللحكيم وللمخادع، وهكذا، سيكتسب فضيلة التمييز في الحياة.

أصابني الذهول عندما رأيت أبنائي يتفاعلون مع خبرات مرحلة الثانوية بفكر وبصيرة عميقة لم أختبرها وأنا في سنهم. كانوا قادرين على تقييم استجاباتهم بطرق لم أكن قادرًا عليها حتى وصلت لمنتصف العشرينات. ما السبب؟ التعليم في طرق الرب منحهم حكمة كتابية. هذا ما يتحدث عنه مزمور ١١٩:

«وَصِيَّتُكَ جَعَلَتْنِي أَحْكَمَ مِنْ أَعْدَائِي، لأَنَّهَا إِلَى الدَّهْرِ هِيَ لِي. أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مُعَلِّمِيَّ تَعَقَّلْتُ، لأَنَّ شَهَادَاتِكَ هِيَ لَهَجِي. أَكْثَرَ مِنَ الشُّيُوخِ فَطِنْتُ، لأَنِّي حَفِظْتُ وَصَايَاكَ.» (مزمور ١١٩: ٩٨-١٠٠)

«مِنْ وَصَايَاكَ أَتَفَطَّنُ، لِذلِكَ أَبْغَضْتُ كُلَّ طَرِيقِ كَذِبٍ» (مزمور ١١٩: ١٠٤)

التحذير

إن حياة أبناءك حافلة بالخطر. التحذيرات تجعلنا متيقظين لأي خطر محتمل. التحذير هو كلام حنون، لأنه يعادل وضع لافتة تخبر راكبي الدراجات النارية عن جسر لا يعمل. التحذير ينبهنا بصراحة لخطر ما بحيث لا يزال هناك وقت للنجاة منه بدون ضرر. الأب أو الأم المنتبهة تقدر أن تمكن طفلها من الهروب من الخطر ومن التعلُّم من ذلك الخطر أيضًا. التحذير يحفظ حياتنا. الآيات التالية من سفر الأمثال تحتوي تحذيرات للحكماء الذين يتمتعون بفضيلة التمييز: **«يَدُ الْمُجْتَهِدِينَ تَسُودُ، أَمَّا الرَّخْوَةُ فَتَكُونُ تَحْتَ الْجِزْيَةِ»** (١٢: ٢٤)

«فَقْرٌ وَهَوَانٌ لِمَنْ يَرْفُضُ التَّأْدِيبَ» (١٣: ١٨)

«وَكَلاَمُ الشَّفَتَيْنِ (بدون عمل) **إِنَّمَا هُوَ إِلَى الْفَقْرِ»** (١٤: ٢٣)

«الْكَلاَمُ الْمُوجِعُ يُهَيِّجُ السَّخَطَ» (١٥: ١)

«قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ» (١٦: ١٨)

«الْمُعَلِّي بَابَهُ يَطْلُبُ الْكَسْرَ» (١٧: ١٩)

«النَّفْسُ الْمُتَرَاخِيَةُ تَجُوعُ.» (١٩: ١٥)

هذه قائمة على سبيل المثال وليس الحصر من التحذيرات التي يقدمها سفر الأمثال.

أحد أقوى الطرق التي يمكن من خلالها تحذير أبنائنا هو ملء عقولهم وذاكرتهم بتحذيرات الكتاب المقدّس.

كيف تعمل التحذيرات؟ التحذير هو ببساطة بمثابة عبارة توضح أن (أ) تؤدي إلى (ب). على سبيل المثال، الكسل يؤدي إلى العبودية. الشخص الكسول سينتهي به الأمر إلى شكل من أشكال السخرة. التحذير هو تطبيق لمبدأ الزرع والحصاد الذي نجده واضحًا خلال أسفار الكتاب المقدّس. إن تحذير أبناءك ليس مسألة صياح وتفوه بعبارات بليغة في وجوههم عندما يوشكون على ترك البيت للذهاب إلى مكان ما. التحذير هو تعريفهم بمبدأ الزرع والحصاد الذي نراه في كلمة الله. التحذير هو قضاء وقت لمساعدتهم على فهم كثير من الأمور التي ترد في االكتاب المقدّس حيث (أ) تؤدي إلى (ب).

في النهاية، سيبدأون في فهم وتقبُّل هذه الأشياء. وبمجرد أن يبدأ أبناؤك في هضم هذه الحقائق، فإن توجهاتهم وسلوكياتهم ستتأثر بشكل هائل.

قضت ابنتنا سنوات دراستها الأولى في نظام التعليم المنزلي وفي مدرسة مسيحية صغيرة. لكنها بعد ذلك التحقت بمدرسة ثانوية حكومية. وعندما أوصلناها إلى المدرسة في أول يوم في الدراسة، كدنا نبكي. وعندما رأيناها تعبر من الأبواب إلى داخل المدرسة المتسعة، عرفنا أنها قد تشعر بالوحدة.

وبمرور الأيام ساعدتها تحذيرات وتشجيعات سفر الأمثال لتكون صداقات جيدة. يحذّر سفر الأمثال من الحمقى (١٤: ٧)، ويعلّمنا أن نبتعد عنهم. كما أنه يوصف الشخص

الأحمق: الأحمق يظهر انزعاجه فجأة (١٢: ١٦)، ومن ينشر الفضائح هو أحمق (١٠: ١٨). هذا بالإضافة إلى تحذيرات أخرى منحها مهارة التمييز الحكيم كأساس لبناء علاقات الصداقة. وبالرغم أنها لم تكن في مدرسة كبيرة من قبل، فإن كلمة الله جعلتها مستعدة لعمل اختيارات حكيمة.

كيف تنجح هذه العملية في الممارسة؟ تحدث حوارات كالآتي:

تينا: مرحبًا، أنت فتاة جديدة هنا، أليس كذلك؟ ما اسمكِ؟

هيثر: اسمي هيثر

تينا: مرحبًا، أنا اسمي تينا. تعالي وتناولي سندوتشاتك معي. سأخبرك بكل شيء عن المدرسة.

هيثر: حسنًا وهو كذلك.

تينا: هل ترين هذه الفتاة القادمة ومعها صينية؟ إنها كريستين وهي ذات شهرة عالية حقًا. هي تظن أنها عظيمة، لأنها ترتدي ملابس غالية وصديقها لاعب كرة قدم. لا أتحملها... مرحبًا كريستين. هذه صديقتي هيثر.

ماذا أدركت هيثر؟ تينا تمارس النميمة والوشاية بالآخرين. وبالرغم أنها كانت لطيفة مع هيثر، إلا إنها شخص لا تقدر هيثر أن تثق بها. الحكمة التي تعلّمتها هيثر من سفر الأمثال جعلتها تقيّم هذه الفتاة بشكل عميق. والتحذيرات التي تعلّمتها واستوعبتها داخلها كجزء من منظومتها القيمية منحتها فضيلة التمييز.

التعليم

التعليم هو عملية نقل المعرفة. التعليم يجعل الشخص يعرف شيئًا. أحيانًا يحدث التعليم قبل الاحتياج إليه. وكثيرًا ما يقدّم بشكل مكثف وقوي بعد إخفاق أو مشكلة ما. وكأب أو أم صالح لديك الكثير لتنقله. وعندما تستمد المعرفة من الكتاب المقدّس، فأنت ستعلّم طفلك أن يفهم نفسه والآخرين والحياة، وإعلان الله، والعالم. لابد أن تعمل بشكل فعّال لنقل المعرفة إلى أبناءك.

الصلاة

بالرغم أن الصلاة ليست نوعًا من التواصل مع الطفل بل مع الله، إلا أنها عنصر لا غنى عنه في التواصل بين الأب أو الأم والطفل. إن أعمق أفكارنا التي ستترسخ في نفوس أبنائنا كثيرًا ما تأتي بينما يصلّون. ويُعد فهمهم لما يصلّون وكيف يصلّون بمثابة نافذة تطل على نفوسهم. بنفس الطريقة تقدم صلوات الوالدين تعليمًا وبصيرة للطفل. لا أقول أنك تصلّي من أجل إنهاك طفلك، ولكن لتدرك أن سماع صلاتك سيوصل إيمانك بالله إلى طفلك.

ملخّص

الفكرة كالتالي: إن تواصلك مع أبناءك سيأخذ أشكال مختلفة. الفوارق الدقيقة والمهمة بين هذه الأشكال من التواصل والتي تم شرحها في هذا الفصل، لابد أن تنعكس في تواصلك مع أبناءك.

كلٌ من هذه العناصر التي أوردناها على سبيل المثال وليس أبدًا على سبيل الحصر، ويمكن مزجها مع عناصر أخرى لتقديم لوحة جميلة من التواصل.

على سبيل المثال، ربما تناشد بطريقة تحذيرية أو بطريقة تشجيعية. أو ربما تعلِّم بطريقة تحمل توبيخًا أو بطريقة تحمل تقويمًا. إن عناصر عملية التواصل يمكن أن تتداخل بطرق شتى.

أسئلة للتطبيق في الفصل ٩

١- إلى أي مدى يقتصر تواصلك على المربع الوارد في شكل – ٥؟

٢- عندما تجد مشكلات في البيت، هل تتوقع أن تحلها بمجموعة جديدة من القواعد والعقوبات، أم بأشكال أكثر عمقًا من التواصل؟

٣- عبّر في شكل خطوات كيف يمكنك أن تتحدث مع ابنك /ابنتك المراهق الذي بدا أنه سرق بعض المال منك ولكنه لا يريد أن يعترف بذلك.

٤- ما هي الأمور المتعلقة «بنوعية العلاقة» والتي لابد أن تكون على ما يرام إذا أردت أن تكون قادرًا على مناشدة طفلك بطرق ذكية؟

٥- كيف يمكنك أن تشجع طفلك الذي فشل فشلاً مذريًا لكنه كان يريد بصدق معونة الله له؟

٦- من بين أنواع التواصل الثمانية التي وردت في هذا الفصل، في أي منها تتمتع بالكفاءة العالية؟ وأي منها تتمتع بكفاءة أقل؟

٧- في النهاية التواصل هو انعكاس للقلب. «**مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ (الإنسان)**» (لوقا ٦: ٤٥). ما هي الأمور المتعلقة بفضلة القلب التي تؤثر على قدرتك على التواصل بفاعلية؟

الفصل العاشر

تبنّي أساليب كتابية: حياة من التواصل

في عام ١٩٧٨ بَنت عائلتنا بيتًا. وبينما كنا نعمل، تحدثنا عن الأشياء التي سنعملها حين ننتهي من بناء البيت. وبتعاقب السنين، توسعنا في البيت، وأعدنا تصميم الحمام والمطبخ، وكنا نُعد لتوسع آخر. لم نعد نتحدث عن الانتهاء من البيت. بل ندرك أننا سنظل دائمًا نعدّل في بيتنا. سيكون هناك دائمًا بعض الإصلاحات المطلوبة.

أصبح بناء بيتنا أكثر من مجرد حدث في حياتنا كعائلة- بل أصبح أسلوب حياة! التواصل يشبه ذلك.

حياة من التواصل

التواصل لا يؤدب فقط، بل يتلمذ. التأديب يرعى أبناءك في طرق الله. مثل التعليم الوارد في تثنية ٦، هذا التواصل الكامل يحدث بينما ترقد، وتستيقظ، وتمشي، وتقوم، وتجلس. كثيرًا ما ينشغل الآباء والأمهات حتى أنهم لا يتكلمون إلا عندما يحدث شيء خطأ. إن الاعتياد على التحدث بانتظام معًا يهيئ الطريق للتحدث في مواقف متوترة. لن تملك قلوب أبناءك إذا كنت لا تتحدث معهم إلا عندما يحدث شيء خطأ.

عندما ترعى قلب طفلك

استخدمت تعبير «**ارعَ قلب طفلك**» لأجسِّد عملية إرشاد أبناءك. هذه العملية تعني مساعدتهم على فهم أنفسهم، وأعمال الله وطرقه، وكيف تعمل الخطية في قلب الإنسان،

وكيف تسدد رسالة الإنجيل أعمق احتياجاتهم. هكذا تتضمن هذه العملية مساعدتهم على فهم دوافعهم وأهدافهم ورغباتهم وأمنياتهم واشتياقاتهم. هذه العملية تكشف الطبيعة الحقيقية للواقع، وتشجّع الإيمان بالربّ يسوع المسيح. أنت تتولى عملية الرعاية من خلال ذلك النوع الغني والمتعدد الجوانب من التواصل الذي تحدثنا عنه. الفصول التالية ستضفي لونًا وملمسًا على ما تعرضنا له باختصار في الفصول السابقة.

حساب النفقة

إن التواصل الكتابي الصحيح والدقيق والأمين هو شيء مكلف. الحوارات العميقة والحكيمة تحتاج إلى وقت. الأبناء يحتاجون لكل من الوقت والمرونة. الأبناء لا يفصحون عن كل ما في قلوبهم، ولا ينفتحون في مواعيد محددة. الأب أو الأم الحكيمة تتحدث عندما يكون الطفل في حالة مزاجية تسمح بذلك. من حين لآخر سيسألون سؤالاً، أو يصدرون تعليقًا، أو يفصحون عن شيء قليل عما في قلوبهم. في هذه الأوقات، عندما يكون ضميرهم صاحيًا، يجب أن تتحدث. هذا قد يتطلب منك أن تترك كل شيء في يدك لتقتنص هذه اللحظات الموآتية.

لابد أن تكون مستمعًا جيدًا. ستفقد فرصًا ثمينة عندما لا تصغي بالكامل لأبناءك. أفضل وسيلة لتدريب أبناءك ليتعلّموا الإصغاء الفعّال هي أن تصغي أنت لهم بشكل فعّال.

البعض يعتقدون أن الإصغاء هو ما تفعله عندما تتاح فرصة لتقول شيئًا. وخلال الأوقات التي يجب أن يصغوا فيها لا يصغون مطلقًا. إنهم يحددون ما يقولونه. لا تكن مثل هؤلاء الآباء والأمهات. يذكرنا سفر الأمثال بأن الأحمق لا يفرح بالفهم، ولكن بإعلان آرائه الخاصة (أمثال ١٨: ٢).

من المؤكد أنه من الصعب أن نعرف متى نصمت ومتى نصغي، ولكنه من قال إن التربية ستكون سهلة. اعمل على تعلُّم هذا. توقف في بعض الأحيان وفكّر فيما سمعته. فكّر أيضًا فيما لم تسمعه. التوقف والإصغاء يوفر وقتًا للصلاة في صمت، ولإعادة التركيز، ويوفر فرصة للإبداع في حديثك.

التواصل الجيد مكلف من نواحٍ أخرى. الطاقة الروحية والتحمُّل اللذان يجب توفرهما في الحوار الهادف قد يبدوان مربكين جدًا. يفقد الآباء والأمهات فرصًا قيمة لأنهم يشعرون بالإرهاق الشديد ولا يستطيعان مواصلة الحديث.

نبدأ في اختبار هذا البُعد الجسماني بشكل واضح للغاية عندما يصل أبناؤنا إلى مرحلة المراهقة. كنا معتادين أن ينام الصغار في ساعة مبكرة من الليل. وهذا كان يمنحنا وقتًا للحوار. ولكن مع المراهقين يتأخر النوم بالليل. ولا أعرف لماذا، لكن معظم أوقات الفرص العظيمة للتواصل تأتي في وقت متأخر من الليل. الأب أو الأم الحكيمة هي مَن تتكلم مع أطفالها عندما يكونون مستعدين للكلام!

يحتاج التواصل الصحيح إلى طاقة ذهنية. لابد أن تجعل أفكارك مركزة. يجب أن تتجنب إغواء السعي وراء أمور غير مهمة. الأسئلة التي لم يُجاب عليها لابد أن تُطرح بطرق جديدة ومبتكرة.

لابد أن تُظهر نزاهة في تفاعلك مع أبناءك. أنت تجسّد فاعليات الحياة المسيحية لأبناءك. لابد أن تريهم البنوة لله الآب من خلالك. لابد أن تريهم التوبة. اعترف بأفراحك ومخاوفك، وكيف تجد التعزية في الله. عيشوا حياة مشتركة من التوبة والشركة. اعترف بخطيتك وضعفاتك الشخصية، وأخبر عندما تكون مخطئًا. كُن مستعدًا لطلب الغفران عندما تخطئ في حق أبناءك. إن حقك في تقييم فاحص وأمين لأبناءك يستند إلى استعدادك لفعل نفس الشيء مع نفسك.

مؤخرًا حكى أب لثلاثة أبناء موقفًا أخطأ فيه في حق ابنه. لقد تحدث بخشونة وضرب ابنه بشكل عنيف. وبدا نادمًا جدًا بسبب خطيته. وعندما سألته ماذا قال ابنك عندما طلبت منه أن يسامحك، اعترف أنه لم يسعَ لطلب الغفران. هذا الأب لن يتمتع بتواصل منفتح مع ابنه قبل أن يكون مستعدًا ليتضع ويقر بخطيته. وإذا لم يفعل هذا، فإن محاولة الحديث عن أمور روحية ستُعد شيئًا مصطنعًا.

إحصاء بركات دفع التكلفة

في مجال الأعمال من المعتاد أن تُجرى دراسة التكلفة في مقابل الفائدة. الهدف من هذا التحليل هو التأكد من أن الفوائد (في حالتنا– البركات) أكبر بحيث تبرر التكلفة. هلم نرى الآن بعض البركات الحقيقية التي لأجلها ندفع هذه النفقات.

العلاقة بين الوالدين والأبناء

إن التواصل المكتمل والثري ومتعدد الجوانب يمثل المادة الأسمنتية التي تربط الأب أو الأم مع الابن أو الابنة. التواصل سيوفر سياقًا لزيادة الترابط مع أبناءك. الأبناء يعرفون متى كانت لهم علاقة مع أشخاص حكماء ولديهم فطنة، يعرفونهم ويفهمونهم، يحبونهم ويكونون ملتزمين نحوهم. سيعرف الأبناء إذا كنت تعرف طرق الله، وتفهم الحياة والناس في العالم، ومستعد لمواصلة علاقة فيها استقامة وثقة. ستأتي أوقات من الخلاف والنزاع، لكن الخلاف يمكن أن يُحل في علاقة من التواصل المنفتح.

إن ضغوط سنوات المراهقة تسحب الأبناء بعيدًا عن البيت. هذا هو الوقت الذي يبنون فيه ألفة وصداقة مع مَنْ «يفهمونهم». إنهم يبحثون عن علاقات فيها شخص يعرفهم ويفهمهم ويحبهم. لا يجب أن يضطر أبناؤك لمغادرة البيت من أجل هذه الغاية. بمقدورك أن توفر علاقات عائلية يشعر فيها أبناؤك بالاحتواء والتفهُّم.

إن جاذبية «الشلة الشريرة» ليست الرغبة في أن تكون شريرًا. إن جاذبية «الشلة الشريرة» هي الألفة. الأطفال يتوقون إلى أن يُعرفوا، ويُفهموا، ويُتلمذوا، ويُحبوا.

أنا أفكّر في التربية الكتابية بالشكل الآتي:

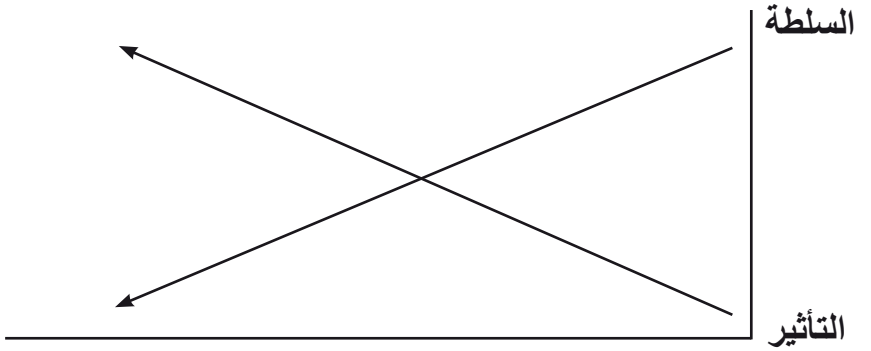

شكل ٦ـ العلاقة بين السلطة والتأثير

أستخدم مصطلح السلطة هنا بمعنى مختلف قليلاً. السلطة هنا تشير إلى ما يمكن تحقيقه مع طفلك لأنك أنت الأقوى والأسرع والأكبر وهكذا. إن ما يمكن أن يحققه الآباء والأمهات مع الأطفال المولودين حديثًا ببساطة لأنهم مسؤولون عنهم– ولأنهم يمثلون السلطة – يكون في أعلى مستوياته على الإطلاق. أنت مَن تقوم بكل القرارات. قد يبكي الرضيع معترضًا، لكن ماما وبابا لديهما المبادرة دائمًا. حتى الأطفال في سن المشى قد يخشون من الأشخاص الأكبر منهم حجمًا. قد يضيف الآباء والأمهات على أمر مثل «قلت لك اجلس!» إمساك الطفل ووضعه على الكرسي. كلمة الأب أو الأم تمثل قانونًا؛ لأنهما يملكان القدرة الجسمانية لتنفيذها.

وبينما يكبر الطفل، تقل القدرة على السيطرة عليه بهذه الطريقة. وكلما كبر الصغير ونضج جسمانيًا وذهنيًا، يقل ما يمكنك إنجازه من خلال السلطة المجردة.

تخيّل السيناريو التالي: دخلت غرفة ابني البالغ من عمر السادسة عشرة لأوقظه ليذهب إلى المدرسة، وقال لي : «لن أذهب» ماذا عساي أن أفعل؟ بالرغم أنني أتقدّم عليه قليلاً في الوزن، لكنه أقوى مني. وحتى لو انتزعته من على السرير، وألبسته رغمًا عنه، وأركبته حافلة المدرسة (أشك كثيرًا أنني أقدر على ذلك)، ماذا سأكون قد حققت؟ بمقدوره النزول من الحافلة في المحطة التالية. وحتى إذا بقي في الحافلة، ليس لدي أية ضمانات أنه سيبقى في المدرسة.

أشكر الله لأن ابني لم يفعل هذا مطلقًا، لكنني أريد أن أقول: لم يعد في استطاعتي أن أضمن الطاعة لأنني أضخم حجمًا من ابني؛ فقدرتي على إجباره على الطاعة لأنني الأقوى أخذت في التآكل والنقصان منذ اليوم الذي ولد فيه.

وبالرغم أنني محدود فيما أستطيع إنجازه من خلال استخدام السلطة فقط، فإننا نشكر الله لأن ابني يخضع طواعية لتأثيري.

في هذا الشكل، التأثير يمثل استعداد الطفل ليضع نفسه تحت السلطة بدافع الثقة. هذه الثقة لها عدة عوامل. الأبناء يثقون بك عندما يعرفون أنك تحبهم، وملتزم بما يعود عليهم بالفائدة، وعندما يعرفون أنك تفهمهم، وعندما يعرفون أنك تفهم نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم، وعندما يعرفون أنك تبذل نفسك لتشجيعهم وتقويمهم وتوبيخهم ومناشدتهم وتوجيههم وتحذيرهم وفهمهم وتعليمهم والصلاة من أجلهم. عندما يعرف الطفل أنك في كل حياته تحاول أن ترى العالم من خلال عينيه هو، فإنه سيثق بك. عندما يعرف أنك لم تحاول أن تجعله مثلك ولا مثل أي أحد آخر، ولكنك كنت تسعى لمساعدته على أن يحقق كل إمكانياته الكامنة كمخلوق من الله ليعرف الله ويعيش في علاقة وعشرة معه، عندئذٍ سيثق بك.

النتيجة واضحة: كلماتك سيكون لها وزن. أي طفل يريد أن يتخلى عن مثل هذه العلاقة؟ ستمارس تأثيرًا عليه. كل يوم ستعيشه مع أبناءك، سيزداد تأثيرك. بينما يتعلم الأبناء عن الحياة، سيتعلمون أن يثقوا في أبيهم وأمهم أكثر. الأم تعطي تحذيرات عن العلاقات ونصائح حكيمة عن كيف تكون إنسان الله في عالم يريدك أن تتشكّل على صورته. فيجرب الأبناء ذلك وينجح؛ لأن هذه النصائح مبنية على الحكمة الكتابية. كل يوم يعيشه أبناؤك، سينمون في فهمهم لرعاية والديهم الحنونة والمُحبة.

تخيلوا أنني أكثر مستشار موثوق فيه لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية. تخيلوا أنه لا يتخذ قرارًا ولا يفعل شيئًا غير ما أنصحه به. ما حجم السلطة التي لي في الحكومة؟ لا شيء. ليس لديّ منصب منتخب. وليس مطلوبًا من أحد أن يصغي إليّ. ما هو حجم التأثير الذي لي؟ تأثير كبير، ربما أكثر من أي شخص آخر.

عندما تتفاعل مع أبناءك من خلال تواصل كامل وثري كما وصفناه قبلاً، فأنت لا ترعاهم فقط، بل تنمي علاقة من الوحدة والثقة معهم.

الإعداد للعلاقات

سيحتاج أبناؤك لمهارات مصقلة للتواصل لكل علاقة سيدخلون فيها. وكعمّال، سواء في موقع الموظف أو صاحب العمل، لابد أن يفهموا الآخرين ويعبّروا عن أفكارهم للآخرين. وكزوج وزوجة يحتاجون لنفس القدرات، وكمستهلكين ومواطنين، وأفراد في جسد المسيح، وكآباء وأمهات في كل مرحلة من المراحل - لابد أن يتعلّموا كيف يتحدثون بشكل دقيق وواضح. ولابد أن يكون لهم القدرة على إقناع الآخرين من خلال التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم.

التواصل هو فن التعبير بطرق ترضي الرب عما في قلبي، وهو فن الاستماع بشكل كلّي وفهم ما يفكّر به ويشعر به الآخر.

والبيت هو مكان اكتساب هذه المهارات. ويا له من مكسب كبير للطفل الذي تعلَّم أن يصيغ أفكاره ويفهم الآخرين!

في كل مرة تقنع أبناءك بشكل رقيق ليعبّروا عن أعمق أمنياتهم وآمالهم وأفكارهم وآرائهم ورغباتهم، فأنت تصبح مثالاً وقدوة في كيفية التعامل في هذا الجانب من العلاقة.

فهم مكتمل للحياة

التواصل الحساس يمكّن أبناءك من فهم تعقيد الحياة. ويتعلّمون أن الحياة تتعلق بكل من عالم المشاعر وعالم الأفكار. ومعناه فهم نفسك والآخرين. ومعناه أن يكون لك رؤية طويلة المدى وكذلك أهداف قصيرة المدى. ومعناه ألا تكون مهتمًا فقط بـ «ماذا حدث»، ولكن مهتمًا أيضًا بـ «لماذا حدث» (الأسباب).

معنى التواصل هو رؤية أن تطور الشخصية أكثر أهمية من الإشباع اللحظي. فقط التواصل الكتابي سيكشف هذه الأمور الحياتية الهامة. كلما تحدثت مع أبناءك، ساعدتهم

على فهم أنفسهم، وفهم الإغواءات التي يتعرضون لها، ومخاوفهم وشكوكهم، زاد إعدادك وتجهيزك لهم لفهم الحياة في هذا العالم.

الفداء الذي يكمّل الحياة

كل هذا التواصل سيمنح أبناءك فهمًا كتابيًا للجنس البشري. ويمنحهم فهمًا أفضل لذواتهم. ويساعدهم على فهم المعيار الإلهي. ويتعلم أن الله هو المرجعية النهائية. وهذا يوفر منظورًا كتابيًا لفهم الحياة. سيتعلمون أن مشكلة البشرية هي الخطية. كلنا نخطئ وآخرون يخطئون في حقنا. نحن جناة وضحايا أيضًا. لهذا السبب، لابد أن يُنظر للحياة بأكملها من منظور استعادة الله للإنسان بالفداء.

ويرون مركزية إنجيل النعمة. جاء يسوع إلى الأرض وعاش الحياة التي ينبغي أن يعيشها كل الرجال والنساء. وأطاع ناموس الله كاملاً، ومن خلال الإيمان يمكن أن تُحسب طاعته لهم. ويتعلمون أنه في المسيح يمكن أن يجدوا الغفران والتجديد والتمكين. وكلما عرفوا أنفسهم واحتياجاتهم بعمق، فهموا بأكثر عمق احتياجهم للتغيير الداخلي والقوة التي تجلبها النعمة.

ويرون كيف أن معرفة الله ومحبته، والحصول على النعمة والقوة والامتلاء في شخصه، يسددان احتياجاتهم العميقة. وتعاش الحياة كلها من خلال قوة الإنجيل ونعمته. نحن نحتاج المسيح في كل مكان وفي كل شيء في حياتنا.

بهذه الطريقة، يصبح لدى أبناؤك مصفاة (Filter) يرشحون من خلالها أحداث الحياة عندما لا توجد بشخصك لتقدّم التوجيه والتقويم. ويتدربون على الاستقلالية، ويتدربون على عدم الاعتماد على مساندة الوالدين. أي تدريب آخر أفضل من إعداد طفلك ليفهم الحياة من خلال منظور كتابي خلاصي؟

يستطيع الأبناء أن يخرجوا بعد ذلك إلى الجامعة، ويبنوا علاقات بنّاءة مع زملائهم، أو مع المجتمع المسيحي. لا ينبغي أن نندهش عندئذٍ عندما يبحثون عن علاقات جديدة تشبه العلاقات التي استمتعوا بها في البيت.

هل يستحق الأمر التكلفة؟

المكاسب هائلة، وبلا شك هناك مكاسب أخرى يمكن استنباطها. كل أب وأم يريد هذه الأشياء التي تحدثنا عنها سابقًا لطفله. ولكن بأي ثمن؟ من المؤكد أن هذه الأشياء لا تأتي بثمن زهيد. التكلفة عالية جدًا. وتتطلب أن تكون متاحًا ومنخرطًا بالتمام في عملية التربية.

هناك طريقة بسيطة للنظر إلى تكلفة التواصل العميق والمتكامل. لابد أن تنظر إلى التربية كأحد أهم المهمات طالما كان لديك أطفال في بيتك. هذه دعوتك. لابد أن تربي أطفالك في خوف الرب وإنذاره. ولا يمكنك أن تفعل هذا بدون أن تبذل نفسك في حياة من التواصل والمراعاة لتساعد أبناءك على فهم الحياة والله. ليس هناك شيء أهم من ذلك. لا تملك سوى فترة قصيرة من الحياة لتبذل نفسك في هذه المهمة. ولديك فرصة واحدة لتفعل ذلك. ولا يمكنك أن تتراجع أو تأخذ فرصة ثانية.

التربية هي دعوتك الأولى. التربية ستعني أنك لن تقدر أن تفعل كل الأشياء التي كان بإمكانك أن تفعلها بدون مهمة التربية. هذا سيؤثر مثلاً على سباق الجولف الذي تشارك فيه. وقد يعني أن منزلك لن يبدو مثل صور العقارات الفارهة في المجلات. وستؤثر على حياتك المهنية وصعودك السلم الوظيفي. وستغيّر نوعية الصداقات التي سيكون متاحًا لك أن تضعها. وستؤثر على نوعية الخدمة التي ستكون قادرًا على القيام بها. وستؤثر على كمية الوقت المتاح لك للعب البولنج وممارسة الصيد، ومشاهدة التليفزيون، وعدد الكتب التي ستقرأها. وستعني أنك لن تقدر على اكتساب كل هواية ستجدها في طريقك. التكلفة عالية جدًا.

كيف تقدر أن تقيّم التكلفة في مقابل المكسب؟ لقد قضيت أوقاتًا مع آباء وأمهات منكسرين. لقد شاهدت وجوهًا مرسومة لآباء وأمهات اختبروا انكسار القلب لرؤية أبنائهم يهربون من بيت لم يجدوا فيه مَن يفهمهم ويشاركهم. كذلك عرفت بهجة الاستماع لأبناء كانوا يتمتعون بمشاركة والديهم بشكل كتابي وهم يقولون «بابا، أنا مذهول كيف صرت مستعدًا للحياة بشكل دقيق. سأظل ممتنًا لك لما علمتني إياه أنت وأمي». ما هي التسعيرة التي يمكن أن يضعها أب أو أم على هذه العبارة؟

إن الله يدعوك أن تبذل نفسك في هذا الطريق مع أبناءك. هذا النوع من التواصل ليس فقط نافعًا، وإنما إلزامي! إنه طريق البركة لأنه طريق الطاعة. هل هذا النوع من التواصل مكلّف؟ نعم! لكن الفوائد تفوق التكلفة كثيرًا.

في بداية الفصل السابع، شرحت طريقتين لتربية الأطفال: التواصل والعصا. في الفصل التالي سننظر إلى دور العصا في التربية الكتابية.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٠

١- لو أمكنك أن تحصل على هذا النوع من التواصل مع أبناءك الذي شرحناه هنا، كيف ستكون التكلفة عليك؟ هل أنت مستعد لتدفع الثمن؟

٢- كيف تستمتع لما يقوله طفلك؟

٣- هل الاعتراف بخطاياك، حينما يكون الموقف ملائمًا، يمثّل جزءًا منتظمًا من تواصلك مع أبناءك؟

٤- ما هي الموضوعات الخاصة بالتقديس والتي تحتاج أن تهتم بها لتقود أبناءك في الطريق الذي رسمناه في هذا الفصل؟

٥- كيف تساعد أبناءك أن يكون لهم رؤية عن نوعية التواصل كما وصفناه في هذا الفصل؟

الفصل الحادي عشر

تبنّي أساليب كتابية: العصا

جذبت أذنـي كل كلمة وحـرف من مناشدة الأم الصادقة: «حبيبي، أنت تعرف ما قالته ماما ولـم تطع ماما. والآن سأضربك. حبيبي أنـت تعرف أنني لست غاضبة منك، ولكنك لابد أن تتعلّم الطاعة».

كانت الطفلة صامتة أمام التقويم، ولكنها كانت مجرد دُمية. ماذا عن الأم؟ كانت الأم هي فتاة ذات ٤ سنوات تُدعى لورين. من الواضح أن المتكلم وراء المتكلم هو أمها.

تعلمت لورين أن تؤدب الدُّمي من تأديب أمها لها. لورين تقلد والدتها. وتفهم أمها أن لورين تملك قدرات غير موجودة في الدُّمى. فهي تعرف أن تصرفات لورين لها بُعد أخلاقي. وأن لورين ليست محايدة من الناحية الأخلاقية. وأن سوء سلوك لورين يضعها في معارضة مع ناموس الله. ويتعامل قلبها مع أمور لها علاقة بالخير والشر. وتفهم الأم أيضًا أن الهدف من التقويم يتجاوز الحاضر. كل العقوبات الدنيوية تفترض مسبقًا اليوم العظيم حيث كل المصائر محددة منذ الأزل. والأم تريدها أن تستعد لذلك.

ووبينما كنت أستمع لهذه الفتاة الصغيرة ذات الأربع سنوات، انبهرت الصيغة الواضحة والأسلوب اللبق لهذه الحلقة المتخيلة من التأديب. العبارات كانت محفوظة بشكل جيد. فقد سمعتها لورين مرات كثيرة. لم يوجد غضب في الحديث، فقط هناك حزم في صوتها بينما تمهد لدميتها ما ينتظره. الهدف كان واضحًا أيضًا- «لابد أن تتعلم الطاعة». لم يوجد شيء في أسلوب هذه الفتاة «المقلدة» لدور «الأم» بدا أنه إيذاء للأطفال. ومع ذلك تنظر ثقافتنا لكل عقوبة جسدية كشيء قاسٍ ومهين. بالنسبة لبعض الآباء والأمهات قد يكون هذا كردة فعل لإيذاء تعرضوا له. ولكن بالنسبة لمعظمنا هو شيء يتعلق بالأسلوب الذي يجب أن نتبعه.

أستطيع أن أتفهم مقاومة كثير من الآباء والأمهات للتأديب الجسماني. فربما تعرضوا هم أنفسهم للإيذاء. وربما اختبروا تأديبًا كان تعبيرًا لغضب متجاوز الحد. وكان أبواهم يضربون دون إنذار للتنفيس من غضبهم وإحباطهم. وكأطفال ربما اختبروا الخوف والجُرح والإيـذاء القاسي. وربما ظنوا في أنفسهم «عندما أكون أبًا وأمًا، لن أفعل هذا لأطفالي أبدًا».

لكل هؤلاء الآباء والأمهات أقول «أتفق من كل قلبي بتصميمكم على ألا تفعلوا بأبناءكم ما فعله والديكم بكم. فإذا تلقيتم مثل هذه المعاملة المهنية، فهي خطأ، ومن المؤكد لا ينبغي أبدًا أن يتعرض أطفالكم لنفس الشيء».

ولكني أخشى أن يكون موقف الغالبية ضد الضرب عبارة عن مسألة تتعلق بالموضة أو النمط الحياتي. إن عالم الأفكار يتغيَّر. الأفكار لديها فترات شيوع وانزواء. ومثل مجموعات الألوان التي تظهر وتختفي في صيحات عالم الموضة والديكور، كذلك الأفكار تلقى رواجًا لفترة ثم تصبح موضة قديمة.

العصا أيضًا، كشكل من أشكال التأديب، هي فكرة لا تلقى رواجًا في الوقت الحاضر. لو كنت ألَّفت هذا الكتاب في الخمسينيات، ما كان القارئ العادي سيهتم كثيرًا بالجزء المتعلق بالتواصل. لم يكن أحد يتحدث مع الأبناء وقتها. بل كانوا يطردون الأبناء إلى مخزن الحطب، على طريقة John Wayne. كان الأب من النوع القوي والصامت الذي لا يتحدث كثيرًا، ولكنه كان يستخدم عضلاته ليجعل صبيه يسير وفقًا للقواعد بانضباط كامل.

نحن نعيش في حقبة تُستخدم فيها مفاهيم حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية لإثبات أن ضرب الأبناء هو عمل بربري. وأصبحنا حساسين لاحتمالية إيـذاء الطفل. لا نريد أن يشعر الأبوان أن من حقهما أن يضربا أبناءهما وقتما أرادوا. اليوم التواصل المبني على الاستقامة والاحترام المتبادل يمثل فكرة أكثر شيوعًا. ولهذا من السهل الكتابة عنها.

المنطق وراء العصا

كثير من الأسئلة عن الضرب تجتاح عقولنا. ماذا يمكن أن يحقق؟ هل هو ضروري فعلاً؟ ألا توجد طريقة أخرى؟ ما هي الفكرة من ورائه؟ هل سيجعل أبناؤك يستاءون منك؟

كان Nick وهو صديق من الكنيسة يزورنا مع صديقته Angela في اجتماع للطلبة. وخلال تناولنا للطعام، كان أحد أبنائنا يتصرف في عدم طاعة. فأخذته إلى حجرة خاصة في دور علوي لأودبه.

استقصت Angela : «ماذا ينوي أن يفعل معه؟»

ردت زوجتي متأكدة «غالبًا سيضربه»

في هذه اللحظة كان يمكن سماع صوت بكاء ابني من أعلى. فخرجت Angela من البيت في حالة هياج كبير.

ماذا كانت مشكلتها؟ لم تفهم الضرب من وجهة نظر الكتاب المقدّس، لذا شعرت بالإهانة، وأثارها ما بدا لها من وجهة نظرها قسوة من الوالدين. كانت ردة فعلها غير مستغربة.

طبيعة المشكلة

ما هي طبيعة أهم احتياج للطفل؟ إذا ولد الأبناء محايدون من الناحية الأخلاقية والأدبية، فليسوا بحاجة إلى التقويم. بل يحتاجون إلى التوجيه. ولا يحتاجون إلى التأديب، بل يحتاجون إلى التثقيف.

من المؤكد أن الأبناء يحتاجون إلى التوجيه والتثقيف. ولكن هل مشكلاتهم الأساسية هي غياب المعلومات؟ هل تختفي كل مشكلاتهم مرة واحدة عندما يكونون قادرين على تعلُّم بعض الأشياء؟ بالطبع لا!

لا يولد الأبناء محايدون من الناحية الأخلاقية والأدبية. يعلِّمنا الكتاب المقدّس أن «**اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ**» (إرميا ١٧: ٩). ومشكلة الطفل ليست عبارة عن نقص في المعلومات، بل مشكلته تتمثل في أنه خاطئ. هناك أشياء بداخل قلب الطفل الجميل، التي إذا سمح لها بأن تمد براعمها وتثمر، فإنها ستؤدي إلى دمار محقق.

تعمل العصا في هذا السياق. إنها موجهة لمخاطبة احتياجات داخل الطفل. هذه الاحتياجات لا يمكن تلبيتها بالحديث فقط. يقول سفر الأمثال: «**اَلْجَهَالَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِقَلْبِ الْوَلَدِ. عَصَا التَّأْدِيبِ تُبْعِدُهَا عَنْهُ**» (أمثال ٢٢: ١٥). الله يقول إن هناك شيئًا خاطئًا في قلب الطفل. الحماقة (أو الجهالة) مربوطة في قلبه. ولابد من إزالة هذه الحماقة، لانها تضع الطفل في خطر.

عندما تتحدث عن الحماقة، فنحن لا نقصد الصبيانية. الأطفال يفعلون أشياءً صبيانية. إنهم يسكبون الحليب على المائدة في الإفطار في الصباح. (إذا كان لديك أطفال صغار فلابد أنك تستعد إلى مسح كميات كبيرة من الحليب). ويحاولون أن يعطوا دميتهم القليل من عصير البرتقال الخاص بهم. نحن لا نؤدب على الأفعال الصبيانية حتى إذا كانت مزعجة للغاية.

خلال سفر الأمثال تستخدم كلمة الحماقة/الحمق لوصف الشخص الذي ليس لديه مخافة لله. الأحمق هو مَنْ لا يسمع التوبيخ. الأحمق هو مَنْ لا يخضع للسلطة. الأحمق هو مَن يستهزئ بطرق الرب. الأحمق يفتقر إلى الحكمة (مخافة الله). «**قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: لَيْسَ إِلـهٌ**» (مزمور ١٤: ١). يقول الأحمق: «أرفض الاعتراف بالله. ليس هناك إله يُعتد به. همي الوحيد هو نفسي وأهدافي».

حياة الأحمق تُدار بواسطة رغباته ومخاوفه. وهذا ما تسمعه من أبناءك الصغار. أكثر العبارات الشائعة في مفردات الأطفال في سن الثالثة: «أريد كذا....» أو «لا أريد كذا.....». الأحمق يعيش بدافع إلحاح شهواته، واشتيقاته، وتوقعاته، وآماله ومخاوفه.

إنها مسألة تتعلق بالسلطة. هل سيعيش الطفل تحت سلطان الله، وبالتالي سلطة والديه، أم تحت سلطة ذاته- مدفوعًا برغبته وشهواته؟

هذه هي الحالة الطبيعية لأبنائنا. ربما تكون مستترة بشكل غامض تحت خصلة من الشعر المجعد. قد تكون غير ملحوظة في ابتسامة الطفل الصغير. ومع ذلك فإن أطفالك في حالتهم الطبيعية يحملون قلوبًا حمقاء. لهذا فهم يقاومون التقويم. ويعترضون على محاولتك لقيادتهم. لاحظ رضيعًا وهو ينازع رافضًا تغيير الحفاضة أو ارتداء قبعة في الشتاء. حتى هذا الرضيع العاجز على وصف أو حتى تصور ما يفعله يظهر إصراره على عدم التحكم فيه من خارج. هذه الحماقة مربوطة في قلبه. وإذا سمحت لها أن تتجذر وتنمو لمدة أربعة عشرة أو خمسة عشر سنة، فإنها ستثمر مراهقًا متمردًا لن يسمح لأحد بأن يتحكم فيه.

لقد أعد الله عصا التاديب لهذه الحالة. إنها عملية الضرب (إذا نفذت بطريقة كتابية كما نوردها في الفصل الخامس عشر) فإنها تطرد الحماقة من قلب الطفل. إن المواجهة، بالإضافة إلى الشعور الفوري والمحسوس بوضوح الناتج عن الضرب، يجعلان الطفل العنيد لطيفًا. لقد شاهدت النتيجة الصحيحة لهذا المبدأ في مرات لا حصر لها. إن الطفل الذي يرفض الخضوع إلى السلطة هو في وضع خطير للغاية.

دور العصا في هذه الحالة المتفاقمة. «**تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ.**» (أمثال ٢٣: ١٤).إن نفوس أبناءك في خظر الموت- الموت الروحي. مهمتك أن تنقذ أطفالك من الموت. إن الاستخدام الأمين للعصا وفي الوقت المناسب يمثل وسيلة الإنقاذ.

هذا يضع العصا في وضعها الصحيح. إن استخدام العصا ليس مجرد أب غاضب ينفث عن غضبه على طفل صغير لا حول له ولا قوة. بل إن استخدام العصا يشير إلى أب/ أم أمين يدرك الحالة الخطيرة لطفله ويوظف الدواء الذي أعطاه الله له. كذلك ليس الأمر مجرد إصرار الوالدين على أن يُطاعوا. بل أن الأمر يتعلق باحتياج الطفل إلى إنقاذه من الموت. الموت الناتج عن التمرد الذي يُترك بلا مواجهة في القلب.

وظيفة العصا

ماذا تفعل عصا التقويم للطفل؟ كيف تُحدث تأثيرها؟ في سفر الأمثال يقول الله: «**اَلْعَصَا وَالتَّوْبِيخُ يُعْطِيَانِ حِكْمَةً**» (أمثال ٢٩: ١٥). وفي مواضع أخرى يربط سفر

الأمثال الحكمة بمخافة الرب. إن مخافة الرب واكتساب الحكمة يأتيان من خلال مفعول أداة العصا.

إن العلاقة بين العصا والحكمة لها أهمية عميقة. الطفل الذي لا يخضع لسلطة والديه يتصرف بحماقة. إنه يرفض قضاء الله، ويعيش حياته من أجل الإشباع الفوري لاحتياجاته ورغباته. في النهاية عندما يرفض حكم الله فهذا يعني أنه يختار حكم ذاته وهو ما يؤدي إلى الموت. هذه ذروة الحماقة.

لكن عصا التقويم تجلب الحكمة إلى الطفل. وتعمل على إظهار فوري وملموس لحماقة العصيان، وإن التأديب عندما يُنفذ بشكل صحيح يجعل قلب الطفل يتضع، ويجعله خاضعًا لإرشاد الوالدين، ويخلق جوًا يمكن أن يقدّم فيه الإرشاد. الضرب يجعل الطفل طيعًا ومستعدًا لقبول كلمات واهبة للحياة.

توضح رسالة العبرانيين هذا الشيء كالتالي: «**وَلكِنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ فِي الْحَاضِرِ لاَ يُرَى أَنَّهُ لِلْفَرَحِ بَلْ لِلْحَزَنِ. وَأَمَّا أَخِيرًا فَيُعْطِي الَّذِينَ يَتَدَرَّبُونَ بِهِ ثَمَرَ بِرّ لِلسَّلاَمِ.**» (العبرانين ١٢: ١١).

إن عصا التأديب، بالرغم أنها تجلب الألم، فإنها أيضًا تعطي ثمر البر والسلام. والطفل الذي يستخدم أبواه العصا في وقتها المناسب وبطريقة صحيحة يتعلَّم الخضوع للسلطة.

ألا يتعلم كل الأطفال في النهاية أن يطيعوا؟ الإجابة «لا». حسب سفر الأمثال : «**اَلْعَصَا وَالتَّوْبِيخُ يُعْطِيَانِ حِكْمَةً، وَالصَّبِيُّ الْمُطْلَقُ إِلَى هَوَاهُ يُخْجِلُ أُمَّهُ.. أَدِّبِ ابْنَكَ فَيُرِيحَكَ وَيُعْطِيَ نَفْسَكَ لَذَّاتٍ.**» (أمثال ٢٩: ١٥، ١٧).

لقد أوصى الله باستخدام العصا في تأديب الأبناء وتقويمهم. العصا ليست الشيء الوحيد الذي تفعله، ولكن لابد من استخدامها. لقد أخبرنا الله أن هناك احتياجات بداخل أبناءكم تتطلب استخدام العصا. إذا أردتم إنقاذ أبناءكم من الموت، وإذا أردتم أن تنزعوا جذور الحماقة المرتبطة في قلوبهم، وإذا أردتم أن يبلغوا إلى الحكمة، لابد أن تستخدموا العصا.

ما هي العصا؟

تمثل العصا أبًا (أو أمًا)، في إيمان أمام الله وأمانة تجاه أبنائه، يتحمل مسؤولية تنفيذ عقوبة جسدية بقدر مناسب وفي التوقيت المناسب وعدم الخروج عن السيطرة، وذلك بهدف التأكيد على أهمية إطاعة الله، وبالتالي إنقاذ الابن/أو الابنة من الاستمرار في حماقته حتى الموت.

ممارسة من الوالدين

دعنا ننظر إلى عناصر هذا التعريف السابق. حسب التعريف يعتبر استخدام العصا ممارسة أبوية (من الوالدين). كل النصوص التي تحث على استخدام العصا تضعها في سياق العلاقة المصونة بين الوالدين وأبنائهم. الوصية تقول «أَدِّب ابنك». ولا يمنح الكتاب المقدّس السماح لكل الكبار بأن يشتركوا في عقوبة جسدية لكل الأبناء. تمثل العصا عنصر واحد في مجموعة كبيرة من المهام المتنوعة للوالدين. ولا يمكن أن تُستخدم بمفردها.

هذه إحدى مشكلات ضرب الأطفال في المدرسة. عندما يقدِم المعلم أو المعلمة على الضرب، فإن عملية الضرب تخرج من سياقها.. أي العلاقة بين الوالدين وأبنائهم. فنفس الأم والأب اللذين يعزيان الطفل عندما يمرض، ويصطحبانه إلى المتنزهات، ويتذكران عيد ميلاده، هما أنفسهما مَن ينفذان عملية الضرب. يصبح الضرب شيئًا مختلفًا تمامًا عندما يُنفذ من غير الوالدين.

من أعمال الإيمان

إن استخدام العصا من أعمال الإيمان. لقد ألزم الله باستخدامها. وعلى الأب (أو الأم) أن يطيع، ليس لأنه يفهم تمامًا تأثيرها، ولكن لأن الله أوصى بذلك. إن استخدام العصا هو تعبير عميق عن الثقة في كلمة الله وعلو مشوراته.

تعبير عن الأمانة

استخدام العصا يمثل تعبيرًا عن الأمانة تجاه الطفل. فالأب أو الأم يتولى استخدام العصا، مدركًا أنه يوجد رجاء في التأديب، ورافضًا أن يكون سببًا في موت طفله. إنها تعبير عن الحب والالتزام.

في حالات عديدة، شاهد أبنائي دموعًا في عينيّ عندما كان يحين الوقت لضربهم. لم أكن أريد أن أفعل ذلك. لكن محبتي لأبنائي كانت تدفعني لتنفيذ هذه المهمة. وما كنت لأضربهم يومًا إذا لم أقتنع من خلال كلمة الله بأن الله يدعوني لاتمام هذه المهمة. هذا أمر لا علاقة له بشخصيتي. لقد تعرضتُ أنا وزوجتي Margy لبعض تعاليم سفر الأمثال التي أقنعتنا أن للضرب مكانًا صحيحًا في التربية. وأصبحنا مقتنعين بأن الامتناع عن ضربهم سيكون عدم أمانة تجاه نفوسهم.

مسؤولية

العصا تمثل مسؤولية. إنها ليست تصميم الأب أو الأم على المعاقبة. بل إنها تصميم الأب أو الأم على إطاعة وصية الله. إن الأب أو الأم وهو ممثل عن الله، هو مَن ينفذ نيابة عن الله ما دعاه إليه أن يفعله. إن الوالد لا ينفذ مهمة خاصة به، ولكنه ينفذ مهمة الله.

عقوبة جسمانية

العصا هي استخدام العقوبة الجسدية بقدر موجّه وبقدر مناسب في توقيته المناسب وبعناية. العصا لا تمثل تنفيثًا لغضب الوالدين. وليس هو الشيء الذي يفعله الوالدين عندما يكونا محبطين. وليس كردة فعل لإحساس بأن الطفل جعل حياة صعبة على الوالدين. إنه دائمًا بقدر مناسب وموجّه. يعرف الأب أو الأم القدر الصحيح من الشدّة التي تناسب هذا الطفل بالتحديد في هذا التوقيت بالتحديد. ويعرف الطفل كم عدد الضربات التي تنتظره.

مهمة إنقاذ

العصا تمثل مهمة إنقاذ. الطفل الذي يحتاج إلى الضرب قد ابتعد عن والديه بسبب عصيانه. ويهدف الضرب إلى انقاذ الطفل من الاستمرار في حماقته. لأنه إذا استمر في حماقته، فمصيره محتم. ومن ثَم فإن الأب أو الأم بدافع محبتهما للطفل لابد أن يستخدما العصا.

إن العصا تؤكد على أهمية إطاعة الرب. تذكر أن المسألة ليست أبدًا «أنت أخفقت في إطاعتي». لأن السبب الوحيد الذي يدعو الابن لإطاعة ماما وبابا هو أن الرب أوصى بذلك. ولذلك عندما تخفق في إطاعة بابا وماما، فهذا يمثل إخفاق في إطاعة الرب. هذا هو محور المسألة. لقد أخفق الطفل في إطاعة الله. وأخفق في فعل ما ألزم به الله. والإصرار في ذلك يضع الطفل في خطر جسيم. وليس عطفًا من الوالدين أن يتجاهلا التمرد ضد سلطة الله، الأمر الذي سيؤدي في النهاية إلى تأديب أعظم من الله.

مفاهيم مغلوطة عن العصا

ولأن العصا تمثل فكرة تواجه صعوبات كثيرة في ثقافتنا، نحتاج أن نصحح أفكارنا عن بعض المفاهيم المغلوطة عن العصا. لا أريد أن تظنوا أنني أدافع عن إحدى هذه المفاهيم المغلوطة عن العصا. وبالتالي فيما يلي بعض الأشياء التي لا تعبِّر عن معنى العصا:

العصا ليست هي الحق في إطلاق العنان للغضب

المفهوم الكتابي للعصا ليس معناه الحق في إطلاق العنان للانفعال. كما سنناقش بأكثر تفصيل في القسم الثاني من الكتاب، لابد أن تستخدم العصا وبتحفظ شديد، وبنظام مُحكم لتجنب احتمالية الإيذاء. لا يوجد موضع يعطي الله فيه الآباء أو الأمهات الحق في الانفجار في نوبات غضب في وجه أبنائهم. مثل هذا الغيظ الهائج هو شيء شرير ولا يرضي الله. ويستنكر الكتاب المقدّس هذا الشيء. يقول يعقوب في رسالته: «**لأَنَّ غَضَبَ الإِنْسَانِ لاَ يَصْنَعُ بِرَّ اللهِ**» (يعقوب ١: ٢٠).

العصا لا تعني الحق في ضرب أبنائنا متى شئنا

المفهوم الكتابي للعصا لا يعني الحق في ضرب أبنائنا من أي وقت نشاءه. بل تستخدم العصا في سياق التقويم والتأديب. مرة أخرى العصا لا تعني الحق في استخدام القوة المادية متى شاء وكيفما شاء الوالدين. إن الله يحذر من مخاطر إغاظة أبنائنا (تنغيص حياتهم) في أفسس ٦. إن الأب أو الأم الذي يستقوي على طفله جسمانيًا حتمًا فإنه سيغيظه.

العصا ليست تنفيثًا عن الإحباط

المفهوم الكتابي للعصا لا يمثل طريقة للوالدين لينفثا عن إحباطهما في وجه أبنائهما. لم أتقابل أبدًا مع أب أو أم لم يمر بلحظات إحباط من أبنائه. في أوقات سيثيرك الأبناء، وسيتركونك مجروحًا وغاضبًا. ليست العصا وسيلة للتنفيث عن غيظك وإحباطك المكتوم داخلك.

العصا ليست للعقاب

المفهوم الكتابي للعصا ليست لتنفيذ عقوبة على الخطأ الذي ارتكبه الطفل. إنها ليست ثمنًا يُدفع. كثير من الآباء والأمهات يفكرون بطريقة عقابية. ويرون أن التأديب هو أن يدفع الطفل ثمن خطاياه. وبدلاً من أن يكون التقويم له هدف إيجابي هو الإصلاح، فالهدف يكون سلبيًا هو دفع ثمن فعلته. يشبه هذا عندما يسدد المجرم دينه تجاه المجتمع بقضاء فترة في السجن. هذا ليس مفهومًا كتابيًا للتأديب.

العصا غير مرتبطة بالغضب الانتقامي

هناك فكرة مغلوطة أخرى تتلخّص في أن العصا لابد أن ترتبط بالغضب الانتقامي. كان على صديق لي أن يضرب ابنه خلال زيارة مع أقاربه. فأخذ ابنه إلى غرفة خاصة، تحدث معه ونفذ عقوبة الضرب. بعد ذلك أكد لابنه مرة أخرى على محبته له. ضحكا سويًا، ثم خرجا من الغرفة. وانتهت عملية الضرب. لقد أُعيد الابن إلى أبيه. كانا كلاهما

سعداء وفي سلام. ومع ذلك كانت الجدة متضايقة. لم يضايقها الضرب. وإنما لأن صديقي (والد الطفل) لم يكن غاضبًا ومتباعدًا عن الطفل، هذا هو الذي أزعجها. وقالت الضرب لن يؤتي ثماره إذا لم يكونا غاضبين من أحدهما الأخر بعد الضرب. كانت ترى الضرب كشيء يؤدي إلى التباعد بدلاً من التقارب.

أعرف أن هناك شيئًا يُسمى الغضب المقدّس، وإن كنت أظن أنه شيء غير مفهوم على نحو دقيق. يميل الناس إلى الظن هكذا: «أنا على حق، وأنا محتد (غاضب)، ومن ثم فهذا غضب مقدّس». الفارق بين الغضب المقدّس وغير المقدّس يمكن توضيحه بالسؤال التالي: «أنت تعمل على إكرام مَنْ؟». إذا كنتُ غاضبًا لأن الله أُهين وهذا يضايقني، فأنا على الأرجح أختبر غضبًا مقدّسًا. أمّا إذا كان غضب من نوع «لا أصدق أنك تفعل هذا بي، مَنْ تظن في نفسك أيها الفتى الصغير»، فغالبًا هذا غضب غير مقدّس. هذا النوع من الغضب سيعكر مياه التأديب.

اعتراضات شائعة عن استخدام العصا

أحب أبنائي حبًا كبيرًا بحيث لا أستطيع أن أضربهم

هذا الاعتراض يمكن أن نتفهمه بسهولة. لا أعرف شيئًا أصعب عليّ من ضرب أبنائي. من الصعب أن تمسك طفلك وتضعه على ركبتيك وتكون أنت سبب بكائه. أنت تشعر أنك تحبه لدرجة تمنعك من أن تفعل ذلك. ولكن اسأل نفسك هذا السؤال: مَنْ يستفيد إذا لم تضرب طفلك؟ بالتأكيد ليس الطفل. النصوص السابقة توضح أن مثل هذا الإخفاق يضع الطفل في خطر. مَنْ يستفيد؟ أنت مَن تستفيد. أنت تتخلّص من الانزعاج الناتج عن ضرب طفلك. وتتخلّص من عدم الارتياح وفقدان الوقت الذي يحتاجه التأديب الكتابي. أعتقد أن هذا السبب الذي لأجله يقول الكتاب المقدّس في سفر الأمثال «**مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ**» (أمثال ١٣: ٢٤). وفقًا لهذا النص، الكراهية وليس المحبة هي التي ستمنعني من ضرب ابني. والحب هو الذي سيصبرني على فعل ذلك.

أخش أن أؤذيه

معظم الآبـاء والأمهات المسيحيين يتجاوبون بشكل سلبي مع المفهوم الكتابي عن «العصا»، لأنهم تعرضوا لعقوبة جسدية مؤذية في طفولتهم. لذلك فإن كلمة «العصا» تستحضر إلى أذهانهم والدين غاضبين يضربان أبناءهم في غضب شديد خارج عن السيطرة. هذا السلوك لا يمثل الاستخدام الكتابي للعصا. وإنما يعتبر نوع من الإيذاء للطفل.

بعض الآباء والأمهات يتخوفون كثيرًا من إيذاء أبنائهم. ويخشون أن ضررًا جسمانيًا قد ينتج عن العقاب بالضرب. يتوقع سفر الأمثال مثل هذا الاعتراض فيقول: «**لاَ تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ، لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لاَ يَمُوتُ. تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ**.» (أمثال ٢٣: ١٣-١٤).

إن التأديب الكتابي المتوازن لا يسبب أخطارًا جسمانية للطفل.

أخش أن يجعله متمردًا وغاضبًا

أنت كأب أو أم تريد من أبناءك أن يحبوك ويقدورك. تريد منهم أن يعتقدوا أن ماما وبابا شخصان عظيمان. وتريد منهم أن يشعروا بأنك شخص محب وعطوف. ربما تخشى أن الضرب سيجعلهم يظنون أنك قاسٍ وعنيف. وربما تخشى أن التأديب سيخرج أسوأ ما في طفلك. يذكر سفر الأمثال عكس ذلك: «**أَدِّبِ ابْنَكَ فَيُرِيحَكَ وَيُعْطِيَ نَفْسَكَ لَذَّاتٍ**» (أمثال ٢٩: ١٧).

فبدلاً من أن يؤدي التأديب إلى أطفال غاضبين ومتجهمين، يؤدي إلى أطفال يعيشون في سلام معك. ويؤدي إلى أطفال يسرون قلبك.

لا ينطبق هذا فقط على المدى البعيد، ولكنه على المدى القصير أيضًا. عندما تطبق الضرب بالطريقة التي نصفها في الفصل الخامس عشر سيؤدي إلى طفل متعاون وسعيد – حتى بعد الضرب مباشرة.

أخشى أن أعلّمه الضرب

يَخشى آباء وأمهات كثيرون أن يظن الأبناء أن الضرب يمثل وسيلة لحل المشكلات. إن خطر أن يرى الأبناء الضرب كردة فعل ملائمة للإحباط سيحدث فقط إذا كان الآباء والأمهات يضربون في حالة من الغضب. إذا تم اتباع الطريقة التي نشرحها في الفصل الخامس عشر، لن يكون الضرب أبدًا تعبيرًا عن الغضب والإحباط. وسيصبح الأبناء قادرين على إدراك أنه عندما يضربون شخصًا في غضب فهذا شيء مختلف تمامًا عن الاستخدام الذي يتميز بالصبر والرأفة للعصا كما شرحناه في هذا الكتاب.

لأنه لا ينجح

هذا الاعتراض يتطلب مزيدًا من التمحيص للطريقة التي يمارسها الآباء والأمهات في التأديب. إن سنوات من الخبرة الرعوية قد أوصلتني إلى قناعة بأن الحالات التي لا تنجح فيها العصا يمكن تلخيصها كالتالي:

أ- السبب الأول في أن الضرب لا يكون مؤثرًا هو ممارسة الضرب بغضب. لن يخضع الأطفال أنفسهم طواعية لسلطة أب أو أم غاضب وخارج عن السيطرة. هناك إحساس فطري للعدالة عند الطفل، إنهم من الداخل سيقاومون إخضاع قلوبهم لأب أو أم يستقوي عليهم. ربما ينكمشون خوفًا. وربما يستجيبون للعقاب بدافع الخوف، ولكنهم لن يضعوا أنفسهم طواعية تحت سلطة والدين يؤدبان وهم في حالة من الغضب غير المقدّس.

ب- استخدام متقطع ومتناقض للعصا. بمعنى أن الطفل لا يعرف ابدًا ما الذي سيستدعي الضرب. ولذلك فهو يختبر والديه طوال الوقت.

ج- إخفاق في الاستمرارية. بعض الناس لا يجربون أي شيء لفترة طويلة حتى ينجح. إنهم يعطون العصا اختبارًا لبعضة أيام. وأطفالهم لا يتغيّرون في يوم وليلة. لذلك يستسلمون في إحباط.

د- إخفاق في الفاعلية. لقد شاهدت أطفالاً تُضرب بالحفاظة الورقية بحيث لم يتوقف الطفل لحظات حتى يعرف أنه يُضرب. وكان الضرب غير فعّال لأن الوالدين لم يجعلا العصا شيئًا محسوسًا.

أخشى القبض عليّ بتهمة إيذاء الطفل

هناك قدر من الصحة في هذا التخوف، بالرغم أن ضرب أبناءك لا يمثل شيئًا غير قانوني. الشيء غير القانوني هو إيذاء الطفل (child abuse)، لكن الضرب عندما يُنفذ بشكل صحيح لا يسبب إيذاءً. من الواضح أنه في مجتمع لا يفهم الكتاب المقدّس، ويساوي بين الضرب والايذاء، لابد أن يتحلى المرء بالحكمة. لابد أن يُنفذ الضرب في إطار خصوصية البيت. ولا يصح أن يكون علانية. ربما أضيف هنا أن الضرب أمام الآخرين قد يضيف فكرة «التخجيل» للضرب الذي ينبغي أن يكون حدثًا خاصًا بين ثلاثة أطراف: الله والأب /الأم والطفل.

ربما ستأتي ظروف خارج المنزل ستختار فيها أن تتغاضى على بعض السلوكيات التي ما كنت لتختار التغاضي عنها لو كنت في البيت. أحيانًا كان بعض الوالدين يقولون لي: «إذا اعتدت ألا أؤدب وأنا خارج البيت، سيعرف أبنائي ذلك، وسيصبح الأمر خارج السيطرة». عند التعامل مع الأطفال الصغار، معظم الوقت ستكون في البيت، وستتاح لك فرصة كثيرة للتعامل مع هذه الأمور. بمقدورك دائمًا أن تغادر أي مكان توجد فيه، وتذهب إلى البيت إذا كانت الأمور هامة وتستدعي المغادرة.

ثمار العصا

العصا تعلّم أن هناك نتائج للسلوك. والاستخدام المتواصل للعصا يعلّم أبناءك أن يكتسبوا فكرة الحصاد، وسيتعلمون أنهم سيحصدون ما زرعوه. يجب أن يتعلم الصغار الطاعة. عندما يُقابل العصيان بتبعات غير مريحة، يتعلم الأبناء أن الله وضع مبدأ الزرع والحصاد في هذا العالم الذي يعيشون فيه.

العصا تُظهر سلطان الله على بابا وماما. الأب أو الأم الذي يستخدم العصا كنوع من الطاعة لله يكون قدوة في الخضوع لله. أحد أسباب عدم تقبل الأبناء للسلطة هو أنهم لا يرونها متجسدة في نماذج في مجتمعنا.

العصا تدرّب الطفل ليكون خاضعًا للسلطة. وسيتعلم الطفل أهمية الطاعة عندما يكون هناك تبعات محددة مترتبة على العصيان. ويتعلم الطفل وهو لا يزال غاضبًا أن الله وضع الجميع تحت السلطة وأن أنظمة السلطة هذه بركة من عند الله.

العصا تجسّد حب الوالدين والتزامهما. تشرح رسالة العبرانين الأصحاح ١٢ بوضوح أن العصا هي تعبير عن الحب. في آية ٥ يعد التأديب علامة على البنوة. الأب أو الأم الذي يؤدب يظهر أنه يحب طفله. وهو بهذا لا يكون غير مهتم، ولا يكون متأرجحًا، بل يكون مشاركًا وفعّالاً. سيكون التزامه راسخًا لدرجة أنه ينفق ذاته ويقدم رعاية وتأديبًا.

تثمر العصا حصاد البر والسلام. نقرأ في رسالة العبرانيين: «**وَلكِنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ فِي الْحَاضِرِ لاَ يُرَى أَنَّهُ لِلْفَرَحِ بَلْ لِلْحَزَنِ. وَأَمَّا أَخِيرًا فَيُعْطِي الَّذِينَ يَتَدَرَّبُونَ بِهِ ثَمَرَ بِرّ لِلسَّلاَمِ**» (العبرانيين ١٢: ١١). إن التأديب في الوقت الصحيح و بطريقة صحيحة، حتى وإن كان مزعجًا ومؤلمًا في وقته، فإنه ينتج أبناءً سعداء وناجحين.

العصا تحمل ثمارًا عجيبة. وأنا كأب لأبناء كبار الآن، أشكر الله دائمًا على رحمته بعائلتنا. عندما تعرضنا لأول مرة للأفكار التي نناقشها في هذا الفصل، كان لدينا طفل واحد. وكان جامحًا وهو لا يزال في عمر السنة والنصف، وكان في طريقه إلى ويلات العام الثاني! هذه المبادئ منحتنا طريقة للتعامل مع ابننا. ومكنتنا لنوفر له الأمان الناتج عن ممارسة التأديب. ومكنته من اكتساب ضبط النفس، وساعدته على إظهار الاحترام والحب لوالديه.

العصا أعادت الطفل إلى دائرة البركة. ولو تُرك لنفسه، كان سيستمر في حياة تحركها الشهوات. وكان سيستمر في طلب التعزية في عبودية رغباته ومخاوفه. عصا التقويم أعادته إلى دائرة الخضوع للوالدين، في هذه الدائرة وعد الله بالبركة.

العصا توفر مناخًا من التقارب والانفتاح بين الطفل ووالديه. إن الأب أو الأم الذي يشارك طفله ويرفض أن يتجاهل أشياءً تهز من قوة العلاقة بينهما سيختبر تقاربًا وحميمية مع طفله. ولكن عندما يترك الطفل ليصبح متمردًا ومتجهمًا، ستنشأ مسافة بين الطفل ووالديه. أمّا الوالد الذي يرفض الجفاء بينه وبين طفله، سيتمتع بعلاقة تتسم بالقرب والانفتاح معه.

أفضل الاثنين

إذا ركزنا فقط على العصا أو التواصل، سنصبح مثل سفينة والحمولة كلها على جانب واحد. ولن تبحر بأمان. التواصل والعصا لا يلغي أحدهما الآخر. وإنما صممًا ليعملان معًا.

هذا هو المقصود في عبرانيين ١٢: ٥-٦ «**قَدْ نَسِيتُمُ الْوَعْظَ الَّذِي يُخَاطِبُكُمْ كَبَنِينَ: يَا ابْنِي لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ، وَلاَ تَخُرْ إِذَا وَبَّخَكَ. لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَيَجْلِدُ كُلَّ ابْنٍ يَقْبَلُهُ**».

يحتاج أطفالك إلى مَنْ يعرفهم ويفهمهم - ومن ثَم فإن التواصل العميق لا غنى عنه. كما يحتاجون إلى السلطة. ويحتاجون إلى حدود تكون واضحة وتقويم يكون متوقعًا - ومن ثَمّ فإن العصا لا غنى عنها.

استخدام العصا يحافظ على السلطة الأبوية المؤسسة على مبادئ الكتاب المقدّس . والتركيز على التواصل الثري يحول دون التأديب البارد والتعسفي.

من الواضح أن تفوق أحد هذين الأسلوبين يعتمد على المرحلة العمرية لأبناءك. وسوف نتطرق إلى هذا الأمر بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

بعض الآباء والأمهات لديهم مقدرة أكبر إمّا في استخدام التواصل أو استخدام العصا. من الجيد أن نكون حساسين للانحرافات غير الكتابية لكلا الأسلوبين. الشخص الذي يرتاح أكثر لاستخدام العصا قد ينحرف إلى التعسف والاستبداد. والأب أو الأم الذي

يكون التواصل بالنسبة إليه شيئًا طبيعيًا وسهلاً قد يميل نحو التساهل. الآباء والأمهات المتسلطون يميلون إلى الافتقاد إلى العطف. أمّا الآباء والأمهات المتساهلون فيميلون إلى الافتقاد إلى الحزم. قيّم أيًا من الانحرافين عن التربية الكتابية قد تميل إليه. وجاهد من أجل تحقيق توازن أكبر.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١١

١- ما هي المشكلة التي يعاني منها أبناؤك وتحتاج إلى استخدام العصا؟

٢- ما هي وظيفة العصا؟

٣- لمن أوكل الله وظيفة تأديب الأبناء باستخدام العصا؟

٤- راجع الاعتراضات الشائعة عن استخدام العصا. هل كنت تعترض في السابق بأحد هذه الاعتراضات؟

٥- اذكر بعض المفاهيم المغلوطة عن العصا.

٦- كيف تصف العلاقة بين التواصل والعصا؟ أي الطريقتين هي الأسهل بالنسبة لك؟

الفصل الثاني عشر

تبنّي أساليب كتابية: الاحتكام إلى الضمير

لم يكن برنامجًا ذا وتيرة سريعة. ربما هذا ما جعلني ألتفت إليه. كان البرنامج في وقت متأخر، وكان يومي مكتظًا بما يكفي! لم يكن لديّ رغبة في مشاهدة مليودراما حياة شخص آخر. تحدث الرجل على التليفزيون بصراحة. وفي نبرة رقيقة شرح صنعته. كان يعمل رسامًا. وعندما شاهدته كان يُعد قطعة القماش التي سيرسم عليها.

وقال بصوت خفيض «لا يمكنك البدء في الرسم على الفور». قبل الألوان وقبل الملمس، وقبل الأشكال وعمل الرسم، يضع الفنان نوعًا من الغسول على القماش. هذا الغسول يمثل الخلفية لكل ما سيُرسم بعد ذلك. الرسم يسبقه الغَسل.

هذا الفصل بمثابة الغسول. في الفصول السابقة ناقشنا التواصل والعصا. وتضمن حديثنا عن التواصل والعصا أمرين هما الاحتكام إلى الضمير والتركيز على عمل الله الفدائي. هذه الأمور تعطي شكلاً ونظامًا كتابيًا لتربيتنا.

الاحتكام إلى الضمير

لابد أن يترك تقويمك وتأديبك علامة على ضمير ابنك أو ابنتك. لقد منح الله الأطفال قدرةً على التعقُّل والتمييز في المسائل المتعلقة بالصواب والخطأ. يذكّرنا بولس أنه حتى هؤلاء الذين ليس لهم ناموس الله يظهرون أن متطلبات الناموس مكتوبة على قلوبهم عندما يطيعون الناموس (رومية ٢: ١٢-١٦). وهم إمّا يعذرون أو يتهمون أنفسهم بسبب ضميرهم.

إن الضمير المعطى من الله هو حليفك في مهمة التقويم والتأديب. وأقوى احتكام يمكن أن تقدمه هو الاحتكام الذي يؤنب الضمير. وعندما يستيقظ الضمير المذنب، سيترك التقويم والتأديب علامته.

هناك مثالان كتابيان يوضحان هذا الأمر. يبرر سفر الأمثال استخدام العصا في التقويم: «**لاَ تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ، لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لاَ يَمُوتُ. تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ**» (أمثال٢٣: ١٣، ١٤). ومع ذلك فالعصا ليست هي الأداة الوحيدة في هذا النص. هناك أداة أخرى. وهي الاحتكام إلى الضمير. هذا الأصحاح يمتلئ بالمناشدة الجادة:

«**لاَ يَحْسِدَنَّ قَلْبُكَ الْخَاطِئِينَ..**» (ع ١٧).

«..**أَرْشِدْ قَلْبَكَ فِي الطَّرِيقِ..**» (ع ١٩).

«**اِسْمَعْ لأَبِيكَ الَّذِي وَلَدَكَ..**» (ع ٢٢).

«**اِقْتَنِ الْحَقَّ وَلاَ تَبِعْهُ، وَالْحِكْمَةَ وَالأَدَبَ وَالْفَهْمَ**» (ع ٢٣).

«**يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ**..» (ع ٢٦).

بالفعل النص يكتظ بالمناشدات الرقيقة والحلوة التي تحتكم إلى الضمير. هل سليمان مفتون بالعصا؟ لا! لكنه يدرك محدودية العصا. إنه يعرف أن العصا تلفت الانتباه، ولكن تربة الضمير لابد أن تُمهد وتُزرع بالحق الإلهي.

كذلك أحاديث المسيح مع الفريسيين تقدّم مثالاً واضحًا عن الاحتكام للضمير. في متى ٢١: ٢٣ ، تحدى رئيس الكهنة والشيوخ سلطة المسيح. فأجاب يسوع بمثل الابنين:

«**مَاذَا تَظُنُّونَ؟ كَانَ لإِنْسَانٍ ابْنَانِ، فَجَاءَ إِلَى الأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي. فَأَجَابَ وَقَالَ: مَا أُرِيدُ. وَلكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيرًا وَمَضَى. وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذلِكَ. فَأَجَابَ وَقَالَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ. فَأَيُّ الاثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟ قَالُوا لَهُ: الأَوَّلُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ، لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِهِ.**» (متى ٢١: ٢٨-٣٢).

وفي نهاية المثل سألهم سؤالاً موجهًا إلى تعقلهم للمسائل المتعلقة بالصواب والخطأ. وقد أجابوا على نحو صحيح. فقدّم لهم مثلاً آخر هو مثل الكرامين:

«اِسْمَعُوا مَثَلاً آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذلِكَ. فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلاً: يَهَابُونَ ابْنِي! وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوُا الابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟ قَالُوا لَهُ: أُولئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ! وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ، خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ.» (متى ٢١: ٣٣-٤٦).

لاحظ كيف احتكم يسوع إلى إدراكهم للصواب والخطأ. إنه يحتكم إلى ضميرهم: « **فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ**..»

إنه يسألهم ليقدموا حكمًا. وقد حكموا صوابًا. ثم أظهر لهم أنهم بهذا أدانوا أنفسهم. وفي (ع ٤٥) يتضح أنهم قد فهموا المقصود إذ يقول متى: «**عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ**».

وهذه هي الطريقة: يحتكم المسيح إلى ضمائرهم بحيث لا يقدرون على الهروب من نتائج خطيتهم. ثم يتعامل مع المشكلات العميقة، وليس فقط المسائل السطحية.

بدا سؤالهم الأول في متى ٢١: ٢٣ «**بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هذَا؟ وَمَنْ أَعْطَاكَ هذَا السُّلْطَانَ؟**» كسؤال عن مصدر سلطانه. ومع ذلك كان الأمر تحديًا لسلطانه. وبالتالي رسمت إجابته حدود المعركة. وأكد أن سلطانه من عند الله. وبالرغم أنهم لم يتوبوا، فإن الاحتكام لضمائرهم قد ترك بصمته. عرفوا أنه يتحدث إليهم. وقد أدانوا أنفسهم.

هذه مهمتك في رعاية أبناءك. لابد أن تحرص على الاحتكام إلى ضمائرهم. ولكي تراهم يتعاملون مع القضايا الخاصة بتوجههم نحو الله، لابد أن يتجاوز تقويمك مسألة السلوك إلى مخاطبة الأمور التي تتعلق بالقلب. أنت تخاطب القلب بفضح الخطية والاحتكام إلى الضمير بصفته المحكِّم الذي منحه لنا الله للتمييز بين الصواب والخطأ.

مؤخرًا بعد فترة عبادة اقترب مني رجلٌ في حالة هياج شديدة. لقد رأى طفلاً صغيرًا يسرق بعض المال من طبق العطاء بعد فترة العبادة. شعر الرجل بقلق شديد على الصبي. فأشرت عليه بأن يخبر والد الصبي حتى يستفيد الطفل من تأديب والده له وتدخله.

بعد دقائق طلب الصبي وأبوه أن يقابلاني في مكتبي. ثم أخرج الطفل دولارين وقال إنه أخذهما من طبق العطاء. كان يبكي، ويعترف بأنه حزين، ويطلب المسامحة.

بدأتُ أتحدث معه «أنا سعيد يا Charlie بأن أحدهم رأى ما فعلت. إنها رحمة من الله بأنك لم تفلت بما فعلت! لقد أعفاك الله من قساوة القلب التي تحدث عندما نخطئ ونفلت من العقاب. ألا ترى كم كان الله رؤوفًا بك؟» نظر إليّ في عينيّ وأومأ بالموافقة.

ثم أكملت قائلاً: «هل تعرف يا Charlie.. لهذا جاء يسوع. لقد جاء يسوع لأن الناس مثلك ومثلي ومثل أبيك لديهم قلوب تريد أن تسرق. كما ترى فنحن نتسم بالجسارة والتطاول حتى إننا نسرق من العطاء الذي أعطاه الشعب لله. لكن الله يحب الناس والصبيان الأشرار حتى أرسل ابنه ليغيّرهم من الداخل إلى الخارج، ويجعلهم أشخاصًا محبين للعطاء وليس محبين للآخذ.»

في هذه اللحظة انفجر Charlie في البكاء بتشنج، وأخرج عشرين دولارًا أخرى من حافظته. لقد بدأ هذا الحوار الوجيز وهو مستعد ليتجاوب ويرد الدولارين اللذين أخذهما. ولكن شيئًا حدث بينما كان يسمعني أتحدث عن رحمة الله للخاطئين الأشرار. لم تكن هناك نبرة اتهام في صوتي. ولم نكن نعرف أنا أو أبوه بأن هناك أموالاً أخرى. ماذا حدث؟ تأنَّب ضمير Charlie برسالة الإنجيل! شيء ما مما قلته أصاب وترًا حرك شيئًا داخل قلبه الصغير المحب للسرقة. لقد أصابت رسالة الإنجيل عمق ضميره.

تقويم بتركيز على الفداء

إن بؤرة التركيز في تربية الأبناء تتمثل في قيادة الأطفال إلى تقييم متزن لأنفسهم كخطاة. لابد أن يفهموا رحمة الله، الذي قدم المسيح ذبيحة من أجل الخطاة. كيف يتحقق ذلك؟ لابد أن تخاطب القلب كمنبع للسلوكيات، والضمير كقاضٍ أودعه الله فينا للتمييز بين الصواب والخطأ. لابد أن يكون صليب المسيح هو بؤرة التركيز في تربية الأبناء.

أنت تريد أن ترى طفلك يعيش حياة منغمسة في تربة عمل المسيح الخصبة. ولابد أن تكون بؤرة التركيز لتأديبك وتقويمك هو أن يرى أبناؤك عجزهم التام عن فعل الوصايا التي أمر بها الله إذا لم يعرفوا معونة الله وقوته. لابد أن يتمسك تقويمك بمعيار البر بنفس المستوى الذي يتطلبه الله. ومعيار الله هو سلوك صحيح نابع عن قلب يحب الله وهدفه الأوحد في الحياة هو تمجيد الله. وهذا ليس شيئًا متأصلاً بالفطرة في أطفالك (ولا في والديهما أيضًا).

إن التأديب يكشف عن عجز طفلك عن إظهار الحب لأخته من قلبه، أو تفضيل الآخرين على نفسه بصدق. التأديب يقود إلى صليب المسيح حيث يُغفر للخطاة. الخطاة الذين يأتون إلى المسيح في توبة وإيمان يجدون نعمةً ورحمة. إن عمل يسوع الفدائي يتضمن الغفران والتغيير الداخلي، والقدرة على عيش حياة جديدة.

البديل هو أن تخفض توقعاتك من أبناءك بدون نعمة الله. البديل هو أن تعطيهم قانونا يسيرون عليه. البديل هو معيار منخفض لا يتطلب النعمة، ولا يجعلهم يعتمدون على المسيح، وإنما على إمكانياتهم الشخصية.

كثير من الآباء والأمهات يرتبكون مع هذه الفكرة. ويدركون أن أبناءهم عاجزون على حب بعضهم البعض من القلب بدون الخلاص وبدون الميلاد الثاني. ومن ثَم يستنتجون أنه طالما أن هذا مستحيل، فلابد من تخفيض المعيار المطلوب منهم. ويضعون معيارًا يتناسب مع إمكانيات أطفالهم.

إن الاعتماد على إمكانياتهم يبعدهم عن الصليب. ويبعدهم عن أي نوع من تقييم الذات الذي يجبرهم على الوصول إلى حقيقة احتياجهم الشديد لغفران المسيح وقوته.

لقد تحدثت مع آباء وأمهات كثيرين يخشون أن يربوا أبناءً صغار مرائين يفتخرون بأنفسهم وأبرارًا في عيني أنفسهم. إن الرياء والبر الذاتي هي نتيجة إعطاء الأطفال قانونًا يمكن تحقيقه بسهولة وإخبارهم بأنهم صالحون. وبقدر نجاحهم، سيكون تشبههم بالفريسيين، أي أناس طاهرون من الخارج، بينما من الداخل مملوؤن نجاسة وقذارة. كانت عبقرية الفريسية في أنها خفضت الناموس وجعلته معيارًا لأمور خارجية سهلة، وبإمكان أي شخص أن يتدرب على تنفيذه. وفي كبريائهم وبرهم الذاتي رفضوا المسيح.

لابد أن يرتكز تقويم الأبناء ورعايتهم على المسيح. وفي المسيح فقط يمكن للطفل الذي ضَلّ واختبر تبكيتًا عن الخطية أن يجد الرجاء والغفران والخلاص والقدرة على الحياة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٢

١- تجاه مَنْ يشعر طفلك بأنه محاسب أمامه عندما يخطئ؟

٢- كيف تجعل طفلك يركز على حقيقة أن الطاعة للوالدين مبنية على وصية الله؟ هل تجد نفسك أحيانًا تبنّي طلباتك ببساطة وفقًا لإرادتك ورغباتك؟

٣- هل تركيز تقويمك وتوجيهك على السلوك أم على اتجاهات القلب؟ هل يظن أبناؤك في أنفسهم أنهم خطاة بسبب ما يفعلونه أو بسبب ما هم عليه؟

٤- كيف يختلف الاحتكام إلى الضمير عن مخاطبة السلوكيات الخارجية؟ ما الفائدة من الاحتكام للضمير بدلاً من التركيز على السلوك؟

٥- في المسيح هناك رجاء للأطفال الخطاة. اجعل طفلك يضع رجاءه في عمل المسيح؟

٦- هل تجد نفسك تصرخ كثيرًا في وجه أطفالك بطريقة تجعل من المستحيل أن تتوقف وتصلّي للمسيح ليساعدهم؟

الفصل الثالث عشر

رعاية القلب ـ تلخيص

في الجزء الأول من الكتاب، وضعت أساسان التربية الكتابية. هذا الفصل يلخّص بإيجاز عناصر الجزء الأول.

١- أبناؤكم هم نتاج شيئين. الشيء الأول: التأثيرات التي تُشكّل حياتهم- تكوينهم الجسماني وخبراتهم الحياتية. الشيء الثاني: التوجه نحو الله- يحدد كيفية تفاعلهم مع هذه الخبرات. تتضمن التربية: ١- توفير أفضل التأثيرات المشكّلة لحياتهم بقدر الإمكان، ٢- الرعاية والاعتناء لاستجابات أطفالك لهذه التأثيرات.

٢- القلب يحدد السلوك. لذلك تعلّم أن تعمل على السلوك رجوعًا إلى القلب. افضح صراعات القلب. ساعد أبناءك على رؤية أنهم مخلوقون لبناء علاقة مع الله. وأن عطش القلب يمكن أن يُروى بمعرفة حقيقية لله.

٣- لديك سلطة لأن الله جعلك وكيلاً عنه. هذا يعني أنك تعمل لديه، ولا تعمل لشأنك. ومهمتك أن تساعد أبناءك على معرفة الله والطبيعة الحقيقية للواقع. هذا سيمكّنهم من معرفة ذواتهم.

٤- طالما أن الغاية العُليا للإنسان هي تمجيد الله والتمتع به إلى الآبـد، لابد أن تضع هذه النظرة الكونية أمام أبناءك. لابد أن تساعدهم على تعلُّم أنه في الله فقط سيجدون أنفسهم.

٥- لابد من تحقيق الأهداف الكتابية من خلال أساليب كتابية. لذلك، لابد أن ترفض الأساليب البديلة التي تقدمها ثقافتنا.

٦- لقد أعطى الله وسيلتين في تربية الأطفال. هما ١- التواصل، ٢- والعصا. لابد أن تتضافر هاتين الطريقتان معًا في ممارستك. يحتاج أطفالك مَن يعرفهم ويفهمهم. وبالتالي، التواصل الثري لا غنى عنه. العصا تعمل على التأكيد على أهمية الأشياء التي تتحدث معهم فيها.

في الجزء الثاني سنطبّق هذه المبادئ على خصائص تربية الأطفال في المراحل المختلفة لنمو الأطفال.

الجزء الثاني

الرعاية خلال مراحل الطفولة

الفصل الرابع عشر

من سن الرضاعة إلى الطفولة: أهداف التربية

أصيب ابن Howard بإصابة في المخ خلال سن الرضاعة. ولم يكن Howard متأكدًا من مدى قدرة ابنه على الفهم. وبالرغم من النمو المتأخر لمخ ابنه، تحدث إليه عن طرق الله. وبلغ الابن الثالثة والنصف من العمر، وكان لا يزال عاجزًا عن الكلام. واستمرا الأبوان في التحدث معه عن الله، والصلاة معه، والسعي إلى رعايته بأسلوب كتابي.

أحد الأيـام احتاج الصبي إلى التقويم والتأديب. وكان Howard مرتبكًا بينما كان يحاول أن يشرح له، غير مدرك إلى أي مدى يستوعب ابنه. وبينما كان يزداد إحباطًا من عملية التواصل. قاطعه ابنه. لقد تحدث! وكانت أولى كلماته «صَلِّ يا بابا!».

هذا الطفل الصغير، الذي أُضعف بالإصابة في المخ، كان يفهم دروسًا قيمة طوال الوقت. لقد عرف إيمان والده بالله. وعرف أن الإنسان يلتجأ إلى الله عندما ينزعج. وعرف أن الله يستطيع أن يساعد أباه ليتواصل. يا له من مثال رائع لأهمية السنوات الأولى من عمر الطفل!

السمات الأولية – التغيُّر

تتضمن المرحلة الأولـى من النمو – من الرضاعة إلـى الطفولية – الفترة من الولادة إلى عمر الرابعة أو الخامسة. هذه الفترة يمكن وصفها بكلمة واحدة – التغيُّر. ومع كل مرحلة من النمو يُدهش الطفل أبويه بالتغيير المذهل الذي يطرأ عليه.

التغير البدني

فكّر في التغيرات الجسمانية. الرضيع الجديد لا يتحرك، ولا يستطيع أن يرفع رأسه. ولا يستطيع أن يتقلّب بجسده، ولا يستطيع أن يجلس. ومع ذلك توجد قوى هائلة تعمل بداخله. في غضون أشهر يجلس ويقف ويخطو ويمكنه حتى أن يمشي. ويتعلم الجري، والمشي على قدم واحدة، وتسلق الأشجار، وعمل أشياء أنت كبرت جدًا على فعلها الآن.

ويطور قدراته في تقليد الأشياء. وسرعان ما سيفتح مقابض الأبـواب، وسينظم سريره. ويتعلّم كيف يُطعم نفسه. ليس هناك فترة من الحياة يكون التغير الجسماني بمثل هذه القوة.

التغيُّر الاجتماعي

كذلك التغيُّر الاجتماعي يكون هائلاً. كانت العلاقة الاجتماعية الأولى له مع أمه. ولكن سرعان ما تتسع دائرة الأشخاص المألوفين بالنسبة له لتضم أفـرادًا آخرين من العائلة. ويكتسب أسلوبه الخاص في التواصل مع الآخرين. ويتعلّم لماذا يحبه الآخرون. ويتعلّم كيف يسعى طلبًا للاستحسان في عالم آخذ في التوسع من العلاقات الاجتماعية. ولكن مع حلول عمر الرابعة والخامسة، سيكون له أصدقاء خاصين به.

التغيُّر الفكري

التغيُّر الفكري أيضًا يكون هائلاً. يستطيع الصغير تركيب المعاني. ويسمع اللغة ويعمم قواعد اللغة. حتى أخطائه تتبع الأشكال المنطقية لقواعد اللغة - فيقول I thinked بدلاً من I thought.

كل خبرة هي خبرة تعليمية. يزداد الفضول. لماذا تدور الأبواب على مفصّلات؟ هل توجد الأشياء عندما لا أفكر فيها؟ لماذا تسقط الأشياء على الأرض؟ هل يراني الناس عندما أغمض عينيّ؟ يتعلّم الطفل الكلام، والحساب، والهزار، وأن يكون مرحًا، وأن يكون جادًا. يتعلّم القيم - وما هو مهم وما هو غير مهم.

التغيُّر الروحي

إنه ينضج روحيًا. هذا النضوج يمكن أن يُرعى بكلام بسيط عن معرفة الإله الحقيقي ومحبته، أو يتم تجاهله. كلا الأمرين يؤدي إلى نضوج روحي. لأنه كائن روحاني، فإمّا أن يتعلّم أن يعبد الرب يهوه ويعتمد عليه، أو يتعلّم أن يسجد لآلهة أقل.

ملخّص

إن التغيرات السريعة خلال هذه السنوات المبكرة تمد الوالدين بأفكار عظيمة عن أبنائهم. كثير من الآباء والأمهات يعتقدون بشدة أن أطفالهم في سن الحضانة هم من العباقرة. يجب أن يكونوا كذلك، إنهم يلتقطون كل شيء بشكل مبهر. إنهم يتعلمون الكثير في فترة وجيزة من الزمن. والآباء والأمهات متأكدون أنه لا حدود لقدرات طفلهم.

فهم السلطة

في ظل هذه التغيرات الهائلة على مدار فترة زمنية قصيرة، من السهل أن تفقد التركيز. أين ينبغي أن توظف طاقاتك؟ تحتاج إلى هدف أشمل للتربية، هدف محدد بما يكفي لتقدم التوجيه الحازم في مواقف محددة، وواسع بما يكفي ليحتوي عالم الطفل المتغير.

درس واحد كبير

أهم درس للطفل أن يتعلّمه في هذه المرحلة هو **أنه فرد تحت سلطان**. لقد خلقه الله وعليه مسؤولية أن يطيع الله في كل شيء. النص الكتابي المفتاحي لهذه الفترة هو :

«أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، أَطِيعُوا وَالِدِيكُمْ فِي الرَّبِّ لأَنَّ هذَا حَقٌّ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، الَّتِي هِيَ أَوَّلُ وَصِيَّةٍ بِوَعْدٍ، لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ، وَتَكُونُوا طِوَالَ الأَعْمَارِ عَلَى الأَرْضِ.» (أفسس ٦: ١-٣)

تركيز نحو اللّه

لاحظ أن الطاعة هي استجابة لله. لابد أن يتعلّم الأطفال أنهم خلقوا لله. ولديهم التزام نحوه. وله الحق في تملكهم. وهم مدينون له بالطاعة.

لن يخضع أبناؤك لك أبدًا بدون فهم هذه الحقيقة. ولن يروا الحياة أبدًا من منظور تمجيد الله. سينغمسون في ذواتهم- وسينغمسون في عبادة الأشياء الهامة في عالمهم الخاص.

إن الخضوع لسلطة أرضية هو تطبيق مباشر لكونك مخلوقًا تحت سلطان الله. والخضوع لسلطة الله قد يبدو بعيدًا ونظريًا. ومع ذلك، بابا وماما موجودان. إن إطاعة الله تنعكس عندما يزداد فهم الطفل لطاعة الوالدين. عرّف أبناءك على مفهوم السلطة والخضوع عندما يكونون في سن الرضاعة. يبدأ التدريب على ذلك منذ اليوم الذي تأتي من المستشفى إلى البيت.

هذه الدروس، عندما تُرسّخ جيدًا في السنوات الأولى، ستظهر ثمارها في سنوات الطفولة. رسّخ هذه المبادئ، وستتخلّص من نزاعات متكررة على السلطة.

عندما تعلَّم ابننا المراهق القيادة لأول مرة، كنا نخشى على السيارة أن تتحول إلى ملتقى اجتماعي خارج سيطرة الوالدين. فوضعنا قواعد إرشادية واضحة. كانت هناك قواعد ضد اصطحاب غرباء بدون موافقة بابا وماما. كانت هناك قواعد ضد تغيير وجهات الوصول. نحن بالطبع رحبنا بالمكالمات التليفونية للاستئذان. الخطط يمكن أن تتغير دائمًا. لكننا لم نكن نريد أية مفاجآت. كنا سعداء بتلقي مكالمات من حين لآخر لتغيير الترتيبات ولنتأكد أن ابننا لا يصطحب غرباء، أو أنه يذهب لأماكن بدون الموافقة بشكل مسبق عليها. كان بإمكانه أن يفعل هذا بدون علمنا، لكنه لم يفعل. كان لدينا ابن مراهق يقود السيارة يمكن الاعتماد عليه بفضل الدروس التي تعلّمها في طفولته المبكرة.

دائرة البركة

في أفسس ٦: ١-٣ رسم الله دائرة لبركة عظيمة. على الأبناء أن يعيشوا داخل دائرة الخضوع للسلطة الأبوية.

الخضوع للوالدين يعني **الإكرام والطاعة**. وبداخل هذه الدائرة ستسير الأمور على ما يرام، وسيتمتعون بطوال الأعمار.

ستسير أمورهم بخير

إنه من الملزم للأبناء أن يتعلّموا الإكرام والطاعة. سيعود عليهم هذا بالخير. طاعتهم غير مؤكدة حتى يقدروا أن يطيعوك لأجل شخصك. لابد أن تُطاع من أجلهم أيضًا! هم المستفيدون المباشرون من إكرام بابا وماما وإطاعتهما. إن الطفل المتمرد يخرج من دائرة البركة. لابد أن يستعيد الأب أو الأم طفلهما سريعًا إلى العلاقة الصحيحة مع الله ومعهما. فعندما يعود الطفل إلى دائرة البركة، ستسير الأمور جيدة معه وسيتمتع بحياة مديدة.

شكل (٧) دائرة الأمان

الأمان بدلاً من الخطر

إن دائـرة الخضوع لسلطة الوالدين تمثل مكانًا آمنًا. وبالتبعية فإن الخروج من هذه الدائرة هو مكان خطر.

إن طفلك في خطر إذا كان عاصيًا ومتمردًا. لهذا عليك أن تتحرك بسرعة لتعيده إلى دائرة الحماية والأمان.

وظيفة الانقاذ

إن وظيفة العصا والتواصل هي الانقاذ. إن التقويم والتأديب ينقل طفلك من خطر التمرد والعصيان غلى دائرة الأمان. لأن الطفل لم يعصِ ماما أو بابا، لكنه عصى الله. وإنه عرّض نفسه للتأديب والتقويم الذي أعدهما الله للأبناء العصاة.

لقد رسمت هذه الدائرة لأبنائي عشرات المرات، مناشدًا إياهم ليقبلوا الخضوع للسلطة، وشارحًا لهم أن بابا ليس غاضبًا عليهم، لكن بابا في مهمة إنقاذ. كنت أسألهم: «كيف أراكم في خطر ولا أتحرك لإنقاذكم؟»

تعريف الإكرام

إن إكرام الوالدين يعني أن نعاملهم باحترام وتقدير بسبب مكانتهم وسلطتهم. والإكرام لدورهم في تولي هذه السلطة. وإذا أراد الطفل أن يكرم والديه، فهذا سيكون نتيجة شيئين: ١) لابد أن يدرّبه الأبوان على فعل ذلك. ٢) لابد أن يكون الأبوان مكرّمين في سيرتهما وسلوكهما.

ليس من السهل أن تربي الأبناء على إكرام الوالدين في ثقافة ليس فيها أحد يُكرم أحدًا. أحد أوضح الطرق لإظهار الإكرام هي طريقة تحدث الأبناء مع والديهم. ليس مسموحًا أبدًا بالتحدث مع والديهم بلغة فيها أوامر. ولا يجب أن يتحدثوا مع بابا وماما مثلما يتحدثون مع رفقائهم. ويجب أن يتعلّموا أن يعبّروا عن أفكارهم بطريقة تظهر الاحترام اللائق.

وهذا يمكن تحقيقه من خلال عبارات رقيقة مثل «أنا أسف يا حبيبي، لكن من غير المسموح أن تتحدث بهذه الطريقة معي. لقد جعلني الله أمك وقال يجب أن تعاملني بإكرام. الآن لنشاهد هل توجد طريقة محترمة يمكنك بها التعبير عما تريد أن تقوله.»

أو «عزيزتي أنا لست واحدة من أصحابك. ربما تتحدثين مع أصدقائكِ بطريقة فيها تطاول، لكن من غير المسموح لكِ أن تتحدثي معي بهذه الطريقة. الآن، ماذا أردتِ

أن تقولي؟». أو «حبيبي، لا يمكنك أن توجّه لي الأوامر. ربما توجه طلبات، لكن غير مسموح أن توجه لي الأوامر؛ لأن الله أعطاني سلطة عليك.»

لا تؤجل هذا التدريب حتى يصل أبناؤك إلى سن المراهقة. لأنك إذا أجلت ذلك، ستعاني مهانة عدم احترامهم. اعمل على هذا في السنوات الأولى. المراهقون المحترمون يصبحون كذلك من عمر سنة واثنتين وثلاثة وأربعة، وليس في الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر والسادسة عشر. (إذا وجدت نفسك تواجه مراهقين غير محترمين، احتفظ بهذه المفاهيم وتحدث معه عن كيف كان ينبغي عليك أن تربيهم.)

لقد لاحظت هذا الحوار مؤخرًا:

الوالد: عزيزي، أريدك أن تجلس الآن

الطفل: (بتكشيرة وصفاقة) لماذا؟

الوالد: أعتقد أنك تحتاج أن تبطئ قليلاً.

الطفل: (بنفس التكشيرة، مع القليل من التهكم) لماذا؟

الوالد: لآن...

الوالد: بسبب...

الطفل: لماذا؟

الوالد: لأن.....

الطفل: لماذا؟

بعد دقائق توجهت أم هذا الطفل تجاهي مفسّرة: «أحيانًا لا أستطيع أن أجعله يتحلى بالجد».

كان الصبي جادًا بالفعل. وعرف أن أمه تريد منه التعاون معها. ولكن لم يكن مستعدًا للخضوع لها. لم يكن هناك شيء أكثر جدية من هذا.

إن الأب/ الأم المحترم أمام أبنائه ويعلّمهم بكرامة واحترام، سيحترمه أبناؤه. غير مسموح بأن تصرخ في وجه أبناءك. ولا أن تجعلهم عبيدًا لك. إن تعريضهم للإهانات لا يمكن أن يكون جزءًا من خضوعهم للسلطة. عندما تخفق في أن تكون محترمًا ودمث الخلق، أو عندما تخطئ في حقهم، لابد أن تطلب الغفران منهم. يوجد هنا مبدأ الزرع والحصاد. أيًا ما كنت تزرعه ستحصده أيضًا. هذا المبدأ ينطبق على التربية مثلما ينطبق على أي شيء آخر.

تعريف الطاعة

لا تحقق الطاعة في مجتمعنا رواجًا. يمكن أن تجد مناهج تقدّم التدريب على توكيد الذات، ولكنك لن تجد مناهج تقدّم التدريب على الخضوع. الطاعة هي الخضوع الإرادي لشخص لسلطة شخص آخر. الطاعة أكثر من مجرد أن يفعل الطفل ما يطلب منه. بل تعني فعل ما يُطلب منه:

بدون تحدٍ

بدون أعذار

بدون تأخير

كثيرًا ما يكون الخضوع هو أن يفعل ما لا يريد فعله، أو على الأقل ما لا يريد فعله في هذه اللحظة.

إذا أيقظت أطفالك وأعلنت لهم أنك ستصطحبهم إلى الملاهي اليوم، فلن تعتبر تعاونهم نوعًا من الخضوع. إنهم يفعلون ما يريدونه. ما أريد أن أقوله هو: الخضوع للسلطة يعني أنه سيكون على طفلك أن يفعل أشياءً لا يرغب في القيام بها.

من المحتم أن تدرب طفلك على الطاعة. وربما تدربهم على الطاعة فقط بعد أن تصيح وتترجى أو تتوعد. وربما تدربهم على الطاعة فقط عندما يرغبون في ذلك. وربما لا تدربهم على الطاعة مطلقًا. حتى هذا يمثل نوعًا من التدريب على الطاعة.

عندما تقابل توجيهاتك بحديث فحواه أن ما طلبته ليس عادلاً، فإن أطفالك بهذا لا يطيعون. وعندما تُقابل بأعذار وتفسيرات، فهم بهذا لا يطيعون. وعندما يرفضون التجاوب على الفور، فهم لا يطيعون. **الخضوع للسلطة يعني أن يطيعوا بدون تأخير، بدون أعذار، وبدون تحدٍ.**

من السهل أن يُساء فهم الطاعة. عندما تقول لطفلك: «حبيبي، أريدك أن تذهب إلى السرير الآن» فليس هناك إلا ردًا واحدًا مقبولاً. هذا الرد ليس هو «سأذهب بعد أن أنتهى من تلوين هذه الصفحة». وليس هو «لماذا عليّ دائمًا أن أذهب إلى النوم مبكرًا جدًا؟».

ليس هناك سوى رد واحد يعبّر عن الطاعة. وهو أن يذهب إلى السرير بدون تأخير. أمّا إذا قبلت أي ردود أخرى، فأنت تدرّب طفلك على عدم الطاعة.

تذكر الخطورة هنا هي: إنه إذا أرادوا الخير وأرادوا التمتع بطول العمر، فلابد أن يكرموا والديهم ويطيعوهم.

دعوة لعدم التناقض

الوالد الجاد لابد أن يكون مستعدًا للسباحة ضد التيار، لأن ثقافتنا فقدت أي صورة من صور الخضوع للسلطة. لابد أن تكون متسقًا. لابد أن تدرب أبناءك على الطاعة من خلال تأديب واعٍ وإشارات دقيقة. لابد أن تكون القواعد هي نفسها كل يوم.

وإذا كان عليهم أن يطيعوا، عليك أن تعترض على العصيان وتثابر حتى يتعلموا دروس الخضوع. الانتصار لا يتحقق للخائفين. من النادر أن ترى قوة إصرار للإرادة مثلما ستجد في طفل في عمر المشي صمم على ألا يطيع.

التوجيهات الواضحة والمتابعة الدقيقة شيئان لا غنى عنهما. لا تسمح أبدًا لأبناءك أن يعصوا بدون التعامل مع ذلك. عندما يعصون، فإنهم يخرجون من دائرة بركة الله إلى مكان يحدق به الخطر الهائل. إذا فهمت مخافة الرب، فلن تسمح لطفلك بأن يتجاهل وصايا الله بدون تدخل. لأن تدخلك سيرجعه إلى دائرة البركة.

يعترض بعض الآباء والأمهات قائلين «إنه لمجد أن يتغاضى الإنسان عن الإهانة» كتبرير للسماح ببعض العصيان. إنهم لا يفهمون القضية. إن الطاعة للوالدين ليست قضية تتعلق بالطفل ووالديه.

لو كان الأمر كذلك، لكان بإمكان الوالدين أن يكونا انتقائيين ويحددا متى يرغبان من أبنائهما أن يطيعوهما. الطاعة ليست مجرد أمر بين الوالدين والأبناء. إنها أمر بين الأبناء والله يمثل فيه الوالد وكيلاً عن الله في استعادة الطفل مرة أخرى إلى داخل دائرة البركة. ليس من المجد أن تتغاضى على إهانات من هذا النوع.

وبمجرد أن يتعلّموا دروس الخضوع، فإنهم يتعلّمونها لمدى الحياة. بينما أكتب الآن، أبنائي في المرحلة الثانوية والجامعة. ولم نختبر تنافسًا على أمر الخضوع لسنوات. إن الله صادق في وعده.

عملية الاستئناف

بمجرد أن يفهم أبناؤك أنهم مخلوقات تعيش تحت سلطان، وليس بمقدورهم دائمًا أن يفعلوا ما يروق لهم، بمقدورك أن تبدأ في تعليمهم كيف يستأنفون أمام السلطات التي يخضعون لها.

لا يمكنك أن تقبل رفض الطاعة. لا يمكنك أن تقبل الطاعة فقط عندما يكون أبناؤك مقتنعين أنك على صواب أو على حق. ولا يمكن أن يُطلب منك أن تقنعهم بصحة توجيهاتك. هذه الأمور لابد أن تراعى بقوة؛ فهي غير قابلة للتفاوض.

ومع ذلك بمقدورك أن تعلّمهم الاستئناف للسلطة. إنهم ليسوا ماكينات، بل لديهم أفكار وآراء. يُظهر لنا سفر دانيال الأصحاح الأول كيف نستأنف أمام السلطات. من الهام أن تعلِّم أبناءك كيف يراجعون السلطة بطريقة محترمة.

إن عملية الاستئناف هي صمام الآمان للوصية الكتابية بالطاعة. إنها نقطة مراجعة في اتجاهين ١- مراجعة ضد الجموح من ناحيتك فربما تسرعت في الحديث بدون

دراسة الأمر جيدًا. الاستئناف يوفر سياقًا يمكنك أن تلغي فيه أمرًا تسرعت في التفوه به أو كان غير ملائمًا للموقف. ٢- هو صمام أمان لأبناءك. إنهم يعرفون أن لديهم سماحًا بالاستئناف ضد أمر ما. ويعرفون أن بابا (أو ماما) سيعيد النظر في الأمر بأمانة مرة أخرى، وسيُلغى الأمر إذا كان هذا في صالح الفرد أو العائلة. هذا يحمي الأطفال من الشعور بأنه من المحتم عليهم أن يطيعوا. إن عملية الاستئناف تمثل صمام أمان جيد بعد «إصدار الأوامر».

يوجد صمام أمام هام للوالدين قبل إصدار الأوامر. الوالد الحكيم سيزن هل التوجيه الذي يعطيه ضروري ومناسب أم لا.

على سبيل المثال، تخيَّل طفلك يقرأ في السرير. وحان وقت إطفاء الأنوار. يمكنك ببساطة أن تغلق الأنوار. ويمكنك أن تخبره بأن يطفئ هو الأنوار. في كلا الحالتين، واجب الطفل أن يطيع. أو يمكنك أن تسأل: «كم تبقى لديك من الصفحات حتى تنتهي من قراءة هذا الفصل؟ نعم.. صفحة ونصف. حسنًا، يمكنك الانتهاء منها ثم تطفئ الأنوار». أنت كوالد حكيم، لابد أن تتدرب على مراعاة احتياجات طفلك وأمنياته بينما تقدّم التوجيه له. وعندما تفعل ذلك، فأنت تجسّد شكلاً من السلطة يرضي الرب يتسم بالرفق حقًا.

طريقة للاستئناف

فيما يلي بعض الإرشادات الهامة التي يجب اتباعها في عمل استئناف على الطريقة الكتابية.

- تبدأ في الطاعة على الفور، وليس بعد الاستئناف.
- لابد أن تستعد للطاعة في كلتا الحالتين (قبول أو رفض الاستئناف).
- لابد أن تقدّم الاستئناف بطريقة محترمة.
- لابد أن تقبل نتيجة الاستئناف بروح راضية.

مثال توضيحي على الاستئناف

تقول الأم «حان وقت الذهاب إلى النوم». يبدأ الطفل في التوجه إلى السرير، وأثناء ذهابه في الطريق يُسمح له بأن يسأل «هل يمكن أن أنتهي من تلوين هذه الصورة أولا؟»

قد تقول الأم «نعم، يمكن أن أوافق على ذلك»، أو قد تقول «لا يا عزيزي لقد تأخرت ليلة أمس. وتحتاج إلى النوم». أيًا كانت الإجابة، لابد أن يكون الطفل مستعدًا لأن يطيع **بدون تحدٍ، وبدون أعذار، وبدون تأخير**.

يجب أن نعتاد على أن نجيب بـ «نعم» على أي طلب، ما لم يكن هناك أسباب كافية لقول «لا». من السهل أن نقول «لا» لأننا لا نريد أن نفكر في تبعات قول «نعم».

إن فوائد هذه الطريقة في الاستئناف واضحة. لابد أن يُحفظ للطفل فرصة الاستئناف. إنه يتعلّم الخضوع للسلطة في سياق بعيد عن التعسف. ويتعلّم أن يتعامل مع رؤسائه بطريقة محترمة. يمكن للوالد أن يغيّر رأيه في سياق من الاستئناف المقدّم بطريقة محترمة، وليس في وجود تمرد سافر.

أهمية القدوة

من الصعب للغاية أن تعلِّم الخضوع للسلطة في ثقافة ليس بها الكثير من النماذج التي يمكن أن نتبعها. في زمان آخر كان الكبار يقدمون نماذج للخضوع للسلطة. كانت الأم تخضع للأب كرأس العائلة. وكان الأب يخضع إلى رئيسه في العمل. كان هناك فهم عام لدور المرء في الحياة، وكان التصرف يسير وفقًا لهذا الدور.

لكن كل هذا تغيَّر بفضل الحركات الليبرالية المتحررة المتعددة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين. ولأن مفهوم ثقافتنا عن المساواة وكرامة الأفراد غير مبني على الكتاب المقدّس، فقد فقدنا فكرة الاحترام للشخص بسبب مركزه أو مكانته كسلطة. لذلك فإن أطفالنا يكبرون في ثقافة ليس بها نماذج مستعدة للخضوع للسلطة.

لابد أن تقدّم نماذج في الخضوع للسلطة لأبناءك. بمقدور الآباء أن يجسدوا هذا الأمر بممارسة سلطة تتسم بالحب ووفق الكتاب المقدّس على عائلتهم، بينما تخضع الأمهات بطريقة كتابية أيضًا إلى أزواجهن. ويمكن ذلك أيضًا من خلال الخضوع بطريقة كتابية لأصحاب العمل. ويمكن ذلك أيضًا من خلال العلاقة مع الدولة والكنيسة. احرص على أن تكون معاملاتك مع السلطات المختلفة نموذجًا للخضوع.

كذلك بطريقة تجاوبك مع خيبة الأمل تجاه السلطات الموجودة في مجتمعك، وفي العمل، وفي الكنيسة، أنت تعلِّم أبناءك كيف يخضعون للسلطة. المواقف التي تظهرها تعلِّمهم إمّا الخضوع الكتابي أو الاستقلالية والتمرد الذي يناقض الكتاب المقدّس.

ارع طفلك في مواقف صالحة

الاهتمام الأساسي لهذا الكتاب هو توجيه أبناءك إلى الله. وأن رعاية هذه العلاقة هي أحد المهام الأساسية للتربية.

إن تعليم الخضوع للسلطة يوفر لك فرصًا رائعة لرعاية علاقة طفلك بالله. يأمر الله الأبناء أن يطيعوا بابا وماما. هذا أمر من الله. يجب أن تجعل أطفالك يعرفون أن العيش في عالم الله كمخلوقات لله يعني الخضوع إلى ذلك الإله الصالح والحكيم في كل شيء. إن دعوة الخضوع لماما وبابا هي دعوة للثقة بالله أكثر من الثقة بالذات. «الذات» تقول للطفل لا تخضع. «الذات» تقول «افعل ما تريد، عندما تريد، وكيفما تريد».

يا لها من فرصة رائعة لتتحدث مع الأطفال عن تمرد قلوبهم! بيِّن لهم كيف تميل قلوبهم إلى العصيان، والابتعاد بعدم عقلانية عما هو لصالحهم. واجههم بضعفهم وعجزهم عن إطاعة الله بدون عمل الله بداخلهم. ماذا يحدث للطفل الذي يقتنع بأن الطاعة صالحة بالنسبة له؟ هل تختفي مشكلاته عن الخضوع؟ لا. ليس أكثر من عدم اختفاء مشاكلك حتى بعد أن تعرف ماذا ينبغي عليك أن تفعل. فعمل ما يعرف أنه صائب يظل يراوغه. هذا أيضًا يأخذه إلى الله. لابد أن يتعلّم أن يتمسك بالله طلبًا للمعونة والقوة لكي يطيع.

تبدو رسالة الإنجيل بعيدة عن الطفل المعتد بنفسه الذي لا يُطلب منه أن يفعل أي شيء لا يريد أن يفعله. وكذلك تبدو بعيدة عن الطفل المغرور الذي كان يُقال له طوال حياته كم هو رائع. لكن رسالة الإنجيل قريبة من الطفل المقتنع بأن الله يدعوه ليفعل شيئًا غريبًا عن قلبه الشرير- وهو أن يخضع بفرح وطواعية لسلطة شخص آخر! ولكن قوة رسالة الإنجيل فقط يمكن أن تعطيه قلبًا مستعدًا وقدرةً على الطاعة.

مكاسب تعلُّم الخضوع للسلطة

لقد وعد الله بأن الأطفال الذين يكرمون ويحترمون والديهم سيكون لهم الخير وسيتمتعون بطول الأعمار على الأرض. من الواضح أن الطفل الذي يخضع للسلطة الأبوية يُبارك بغنى. أحزن عندما أرى أطفالاً لم يتعلموا يومًا هذه المبادئ فتسحقهم الحياة بسبب سلوكياتهم المتمردة وغير الخاضعة. في المقابل أبتهج عندما أرى آباء وأمهات يرسّخون هذه المبادئ في نفوس أبنائهم ويربونهم على احترام سوي للسلطة وخضوع لها. والنتيجة هي أطفال تسير أمورهم في خير. ويُحترمون من مدرسيهم، ويُعطون فرصًا خاصة، ويقدّرهم أقرانهم في المجتمع المسيحي. وينمون في بصيرة روحية بينما يخضعون لله ويسيرون في طريق الحكمة. إن الخضوع الصادق لسلطة تعرف الله يحمل ثمارًا جيدة.

الطفل الذي يتدرب على الطاعة الكتابية يكون قادرًا أكثر على فهم رسالة الإنجيل. إن قوة ونعمة الإنجيل يفهمها بعمق أكثر ليس مَنْ لم يواجهوا التزاماتهم الكتابية، ولكن مَنْ يواجهونها. عندما نعرف مقاومتنا الفطرية للسلطة، ونعرف عجزنا عن فعل ما أوصانا به الله، فنحن نواجه باحتياجنا للنعمة وقوة يسوع المسيح. وهنا نعرف أهمية صلاة بولس بأن يعمل الله بروحه القدّوس في الإنسان الداخلي بقوة عظيمة. هذه القوة فقط هي القادرة على إرجاع أطفالك إلى الدائرة التي يُبارك ويُحمى مَنْ بداخلها.

ما هي الدروس الثانوية للتأديب الكتابي؟ حتى بالرغم أن الطفل سيكون عاجزًا عن التقدير الكامل لأهمية الخضوع، فإن تدريبه على فعل الصواب، بغض النظر عن مشاعره، سيعده ليكون شخصًا يعيش وفقًا لمبادئ وليس أهواء أو نزوات. وسيتعلم

أنه لا يستطيع أن يثق في نفسه في الحكم على الصواب والخطأ. ولابد أن يكون له نقطة مرجعية خارج ذاته. وسيتعلم أن السلوك له تضمينات أخلاقية ونتائج حتمية.

وفّر الوقت – قم بفعل الصواب.

في أحد مواسم الشتاء، كان العمل نادرًا، وأنا كمقاول كان العمل الوحيد الذي يمكن أن أجده هو إضافة طابق سفلي (بدروم) لبعض البنايات. المشكلة أن المنزل يكون قد بُني بالفعل. كنت أقضي الشتاء مع فريق عمل في استكشاف وصَبّ الحوائط والأسقف. كنا نبني بالفعل بدرومات تحت بيوت مبنية بالفعل. كانت هناك بناية غالية جدًا تطل على بحيرة، وبالتالي كان الاستثمار مُستحَق وله قيمة. لكني أستطيع أن أشهد أنه من الأفضل أن تبني الأساس قبل أن تبني البيت!

إن قضية الخضوع للسلطة هي قضية تأسيسية للعلاقة الكاملة بين الطفل ووالديه. من الممكن أن تبني هذا الأساس بعد البدء في البيت. ومع ذلك فهو أمر أكثر صعوبة وأكثر تكلفة.

إذا كان أبناؤك صغارًا، افعل الصواب من البداية. لا تدعهم يكتبسون عادات العصيان. احرص على أن يتعلّموا الطاعة بدون تحدٍ وبدون أعذار وبدون تأخير.

إذا كان أبناؤك أكبر سنًا ستكون مهمتك أكثر صعوبة. ابدأ بأن تعلّمهم بلطف وصبر. خذهم إلى نصوص كتابية مثل أفسس ٦. ساعدهم على أن يروا المنطق والحكمة في خضوع الإنسان إلى السلطة. وهدفك أن تقنعهم أنه بالرغم أن الخضوع صعب، لكنه طريق البركة والسلام.

لا تضيّع الوقت في محاولة تلطيف مفهوم الخضوع لتجعله مستساغًا. الخضوع يعني بالأساس أن تفعل ما لا ترغب في فعله. وهو شيء ليس سهلاً أبدًا ولا يمر بدون ألم. لابد أن يوجد الخضوع الكتابي الصحيح في معرفة المسيح ونعمته. لا تحاول أن تجعله شيئًا لا يحتاج إلى النعمة. لا تقلّص من الخضوع للسلطة بما يتناسب مع الإنسان الطبيعي والقدرات الطبيعية.

سنتطرق تاليًا إلى أساليب التربية التي تُستخدم من أجل الأطفال في المرحلة من فترة الرضاعة إلى الطفولة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٤

١- لماذا تُعد الطاعة أفضل شيء لطفلك؟

٢- ما هي الوعود التي يقطعها الله لهؤلاء الذين يكرمون ويطيعون والديهم؟

٣- ما هي الخطوط الإرشادية التي يجب أن تضعها لتنفيذ السلطة الكتابية؟

٤- كيف يمكنك أن تتحدث لأطفالك في سن المدرسة عن تغيير بيتك من كونه بيتًا به مشكلات كثيرة إلى بيت منظم بشكل صحيح؟

٥- لماذا يُعد إعطاء مساحة للاستئناف شيئًا مهمًا في عملية التربية؟

٦- ما هي المخاطر الواجب تجنبها في عملية الاستئناف؟

٧- هل تقدّم نموذجًا جيدًا للخضوع للسلطات؟

٨- ما هي أنماط العصيان التي تتغاضى عنها في بيتك؟

٩- ما هي أنماط عدم الاحترام التي تتغاضى عنها في بيتك؟

١٠- ما هي الجوانب التي تحتاج إلى توضيحها للتأكيد على السلطة في بيتك؟

١١- ما هي النتائج السلبية لفشلك في التأكيد على السلطة حسب مفهوم الكتاب المقدّس؟

١٢- ما هي وعود الكتاب المقدّس التي تشجعك في التأكيد على السلطة في بيتك؟

١٣- هل يمكنك أن تشرح بأسلوبك شكل رقم ٧؟

الفصل الخامس عشر

من مرحلة الرضاعة إلى الطفولة: أساليب التربية

لقد اعتدنا أن نلاحظ أنماطًا متكررة في سلوكيات أبنائنا. ففي كل بضعة أشهر، يصبحون معاندين. لم يكونوا في حالة تمرد حقيقية، ولكن طاعتهم تكون بطيئة. وكان هناك تأخر متزايد بين قبول التوجيه والاستجابة له.

وكنا نقوم بمضاعفة جهودنا. ونكون أكثر دقة في إعطاء التوجيه. ونكون أكثر اتساقًا (عدم تناقض) في التأديب. وكنا نبتعد عن التذكير، والإلحاح، والفظاظة. وكنا نعود إلى الأساسيات- نتحدث مرة واحدة ونتوقع الطاعة- ونؤدب إذا لم تتبع الطاعة.

وخلال يوم يملأ السلام بيتنا مرة أخرى. ويصبح الأبناء سعداء وطائعين ونكون نحن أكثر صبرًا. وكنا نشعر أكثر بالنجاح كوالدين.

وفي يوم خطر ببالنا! نحن من بدأنا هذه الدورات المتكررة. عندما كانت الأمور تسير على ما يرام، نصبح متكاسلين. وفي النهاية يصبح التدهور في أبنائنا ملحوظًا بشكل موجع. وكنا نتجاوب بشجاعة وجُهد متجددين.

لكي تعلِّم أبناءك ليخضعوا للسلطة، لابد أن تتهيأ لتأديب العصيان. ويلزم عدم التناقض إذا أردت لأبناءك أن يتعلّموا أن الله يوصي بالطاعة.

إن العصيان بالإضافة إلى إغفال التأديب يرسلان رسائل. من ناحية، أنت تقول إنهم لابد أن يطيعوا. وتخبرهم أن الخير الأبدي والزمني متعلقان بالطاعة. من الناحية الأخرى، أنت تقبل العصيان، وتتحمل سلوكًا يجعله في خطر.

تذكر معي الرسم الذي ورد في الفصل السابق. في أفسس ٦: ١-٣، إن طرق الله تشكل دائرة الخضوع للسلطة الأبوية.

الخضوع للأبوين يعني إكرامًا وطاعة. وبداخل هذه الدائرة توجد بركة وطول الأعمار. وبمجرد أنه يخرج طفلك من دائرة الأمان، يحتاج إلى إنقاذه من خطر الاستقلالية العنيدة عن سلطتك. إن سلطتك تمثل سلطة الله. (تذكر أنك تقوم بدور الوكيل عن الله).

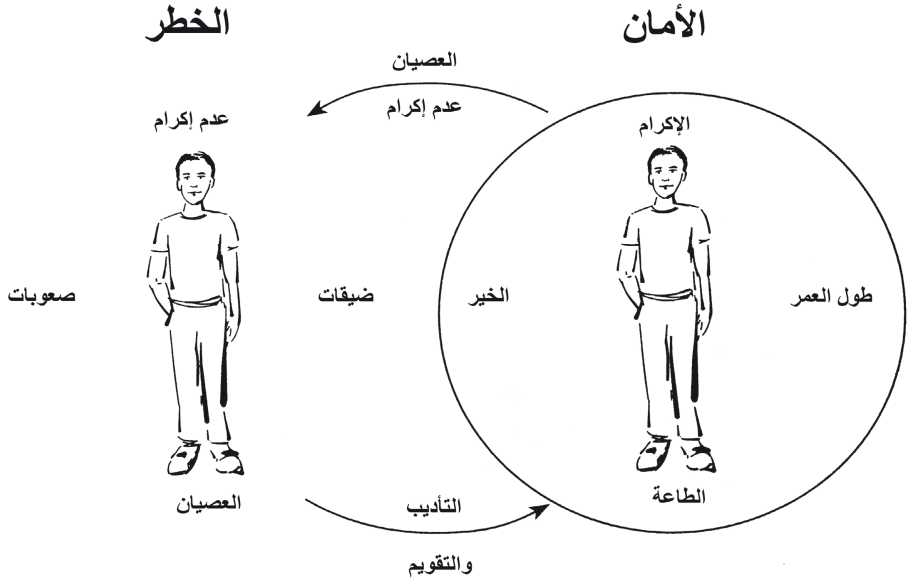

شكل (٨) الإنقاذ من الخطر

ويمثل الأب والأم فرقة الإنقاذ، ويكونا متسلحين بالوسائل التي وهبهما الله – أعني بذلك العصا والتواصل.

في هذه السنوات المبكّرة من الطفولة، العصا شيء أولي. شيء أولي لأن الله أمر بها. تذكّر أن الله يقول: «**اَلْجَهَالَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِقَلْبِ الْوَلَدِ. عَصَا التَّأْدِيبِ تُبْعِدُهَا عَنْهُ**» (أمثال ٢٢: ١٥).

الطفل الصغير لا يعطي وزنًا صحيحًا للكلمات فقط. أنت تضمن انتباهه عندما توازن هذه الكلمات باستخدام صحيح للضرب.

«متى» الضرب

متى يحتاج الطفل إلى الضرب؟ عندما تكون قد أصدرت توجيهًا، وسمعه الطفل، وفي نطاق قدرته على الفهم، ولم يطعه بدون تحدٍ وبدون أعذار وبدون تأخير، فإنه يحتاج إلى الضرب. إذا أغفلت الضرب، فأنت تغفل النظر إلى كلام الله بجدية. أنت بذلك تقول أنك لا تؤمن بما يعلمه الكتاب المقدّس عن أهمية هذا الأمر. وتقول إنك لا تحب طفلك بما يكفي لتقوم بالأشياء الموجعة التي دعاك الله لتفعلها.

إن توقيت الضرب في منتهى البساطة لدرجة أن الوالدين يفوتهما هذا التوقيت. إذا لم يطع طفلك، فهو يحتاج إلى الضرب. وإذا أخفق في الاستجابة إلى توجيهك، يكون قد خرج عن دائرة الأمان.

إذا كانت الطاعة أمرًا ملزمًا للطفل بشكل لا رجعة فيه، فلا يمكنك أن تتجاهل أو تتغاضى عن العصيان. وإذا كان العصيان مسموحًا به في بعض الأوقات، فلماذا لا يكون مسموحًا به طوال الوقت؟

والإخفاق في الاستمرارية والحفاظ على عدم التناقض يمثل شيئًا لا يمكن الاعتماد عليه. التناقض يعني أن التقويم يدور حول راحتك وليس حول مبادئ كتابية موضوعية. وبينما لا يزال الأطفال صغارًا، لابد أن تعلّمهم أن الطاعة ضرورة، وليست خيارًا من بين خيارات كثيرة.

إذا قبلت التحدي والتأخير والأعذار، فأنت لا تدرّب على الخضوع. وإنما أنت تدرّب أطفالك كيف يتلاعبون بالسلطة ويعيشون في خطر العصيان. وتعلمهم أن يرموا لك من حين لآخر عضمة الطاعة ليتقوا شرك.

لا يجب أن تحذّر. لا يجب أن تسألهم هل يريدون أن يُضربوا أم لا. إذا فعلت ذلك، فإنت تدربهم على انتظار التحذير قبل الطاعة. لابد أن يفهم أبناؤك أنه حين تتحدث لأول مرة، فإنك تتحدث لآخر مرة.

أحيانًا يمثل التحدي لسلطة الله (من خلالك أنت كوكيل عن الله) ليس فقط إخفاقًا للطاعة. أحيانًا يكون التمرد مُعلن بالكلام. ربما يقول الطفل «لا» على طلبك. ربما تسمع كلمة «لماذا» بنبرة متذمرة. ربما ترى نظرة استهانة وازدراء. أيًا كان الشكل الذي يأخذه العصيان، فلابد من مقاومته. تذكر أن خير طفلك في خطر. لقد خرج طفلك العاصى من حدود البركة- التي تتمثل في الخضوع للسلطة الأبوية.

يمكننا تصور الأمر كالتالي. الطفل غير المطيع يعيش كأحمق. **«قَـالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: لَيْسَ إِلهٌ».** الأحمق أو الجاهل هو مَن يقول «أرفض الاعتراف بأنه يوجد إله، وأنني سأحاسب أمامه». مثل هذه المواقف تمثل حماقة كاملة، لابد أن تنقذ طفلك منها بكل سرعة ممكنة.

«كيف» الضرب

كيف تقدِم على الضرب؟ هناك مشكلات كثيرة يجب تجنبها. لابد أن تتجنب التجاوب في غضب. ولابد أن تتجنب التعامل مع طفلك بدون احترام لائق لشخصه وكرامته. لابد أن تلطّف من الحزم الشديد بالرأفة والرقة. تذكر أن التأديب هو مهمة إنقاذ. ولابد أن تقصر الضرب على المسائل المتعلقة بالقلب.

الطريقة التالية يمكن أن تقدم تأديبًا يحفظ كرامة الطفل:

١- خُذ طفلك إلى مكان خاص حيث يمكن التحدث إليه في خصوصية. لا يصح أن يسلب التأديب الطفل من كرامته. لا يصح أبدًا أن تمارس التأديب أمام أطفال آخرين في العائلة. هو ليس شيئًا للمشاهدة. ليس الهدف هو إذلال الطفل. أنت تظهر له الاحترام عندما توفر له خصوصيته.

٢- أخبره تحديدًا بما فعله أو أخفق في فعله. لابد أن يرتبط التأديب الجسدي بأمور محددة يسهل توضيحها. وبينما ينمو الفهم العقلي للطفل، يمكنك وقتها أن تؤدب أحيانًا على أمور عامة أكثر أو تتعلق بتوجهات القلب، هذا ليس ممكنًا مع الأطفال في سن ما قبل المدرسة. لابد أن يكون الضرب دائمًا متوجهًا حول موقف أو حادثة محددة. لا تضرب أبدًا لأجل «أهداف عامة»، أو بسبب أنه «فاض الكيل» بك.

٣- احرص على اعتراف الطفل بما فعله. هذا كثيرًا ما يحتاج إلى بعض الوقت. في أحيان كثيرة سيرغب الأطفال في تجنب الضرب بأي ثمن بحيث يكذب بشأن ما فعله.

قد يسير الحوار كالتالي:

الأب: بابا قال لك يجب أن تجمّع لُعبك، أليس كذلك؟

الطفل: (يومئ الطفل) نعم.

الأب: لم تطِعني، أليس كذلك؟

الطفل: (ناظرًا إلى أسفل) صحيح.

الأب: هل تعرف ما يجب أن يفعله بابا الآن. لابد أن يضربك...

ذكّره أن وظيفة الضرب ليس التنفيث عن إحباطك، أو بسبب أنك غاضب، وإنما لترد طفلك إلى المكان الذي وعد الله فيه بالبركة. عبِّر عن قلقك بشأن خروجه من مكان الخضوع الصحيح لسلطتك. لابد أن يعكس ضربك له طاعتك لتوجيهات الله، واهتمامك بخيره وصالحه. ليس لديك حق في ضرب طفلك تحت أي ظروف مخالفة للتأديب الذي أقره الكتاب المقدّس.

٥- أخبر الطفل كم ضربة سيتلقاها (هذا مؤشر هام يدل على أنك مسيطر على نفسك). وسيختلف عدد الضربات من طفل إلى آخر. أحد أبنائنا كان لديه مؤخرة سميكة الجلد، ولم يكن يتأثر بسهولة. وكان لدينا ابن آخر مطاوعًا جدًا بحيث كان يطيع على الفور بمجرد أن يرى الملعقة الخشبية. هذا الطفل كان يحتاج إلى عدد ضربات أقل.

٦- انزع سرواله حتى لا يفقد تأثير الضربة بسبب حشو بنطاله. هذا يجب أن يحدث في آخر لحظة ممكنة. ثم البسه السروال مرة أخرى بمجرد الانتهاء. من الأفضل أن تضع الطفل على حجرك بدلاً من وضعه على السرير أو الكرسي. هذا يجعل الضرب في سياق علاقتكما الجسدية. بهذا لا يؤخذ منك إلى أداة محايدة بغرض تأديبه.

وبينما يكبر الأطفال ويصبحون أكثر وعيًا، لابد أن تكون حريصًا على ألا تخجلهم أو تحرجهم. إليك قاعدة أساسية هنا: إذا كان طفلك صغيرًا بحيث لا يستطيع الاعتناء بنظافته الشخصية، فلن يحرجه إذا رأيت مؤخرته خلال الضرب. أنت ترى مؤخرته كل يوم في سياق الأمور العادية. أمّا إذا كان كبيرًا بحيث يتولى نظافته الشخصية (أي يستحم بنفسه، ويغيِّر ملابسه الداخلية بنفسه وهكذا)، بالتالي لا تنزع عنه بنطاله. لست بحاجة إلى أن تحرج طفلك، أو تجعله يشعر بخزي التعري. بل تحتاج فقط أن تتأكد هل توجد مجلات محشوة في بنطاله تجعل ضربك غير فعّال.

٧- بعد الانتهاء من الضرب، خذ الطفل إلى حجرك واحضنه، وأخبره كم تحبه، وكم يُحزنك أن تضربه، وكم ترجو أنك لا تضطر لذلك مرة أخرى. هذا يجعل الضرب مرجعه الإصلاح، وليس الانتقام.

في هذه الحالة لابد من إصلاح كامل للعلاقة بينك وبين طفلك. إذا لم يحدث ذلك، وإذا كان غاضبًا منك، أو رفض أن يقبل عاطفتك نحوه، فهناك شيء خطأ. في مثل هذه الحالات راجع آمرين.

راجع نفسك هل كنت قاسيًا معه؟ هل خرجت عن السيطرة؟ هل أخطأت في حقه أو في طريقة تأديبك له؟ إذا أظهرت غضبًا غير مقدّس في هذه المهمة المقدّسة، لابد أن تعترف بخطيتك وتطلب المسامحة وتسعى إلى إصلاح العلاقة.

راجع نفس (قلب) طفلك. هل غضبه هذا انعكاس لرفضه لتأديبك؟ هل هو غاضب منك؟ هل يحاول أن يعاقبك على ما فعلته به؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن حصة التأديب لم تنتهِ بعد.

نحن نسير دائمًا وفقًا للعبرانيين ١٢: ١١- «**لكِنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ فِي الْحَاضِرِ لاَ يُرَى أَنَّهُ لِلْفَرَحِ بَلْ لِلْحَزَنِ. وَأَمَّا أَخِيرًا فَيُعْطِي الَّذِينَ يَتَدَرَّبُونَ بِهِ ثَمَرَ بِرّ لِلسَّلاَمِ**». إذا لم يثمر التأديب ثمر البر والسلام، لا يكون التأديب قد انتهى. في بعض الأحيان كان عليّ أن أقول لأبنائي : «حبيبي، بابا ضربك، لكنك لست لطيفًا بما يكفي الآن – سيكون علينا أن نذهب لأعلى من أجل دفعة أخرى من الضرب».

من الواضح، لا أنوي تكرار ما فعلته في السابق كاملاً مرة تلو الأخرى إذا لم يكن الطفل مستعدًا لإصلاح العلاقة معي. لكن إذا كانت حصة التأديب لم تثمر السلام، لابد أن أشير للطفل أن هناك شيئًا ما خطأ. قد أقول شيئًا مثل: «أنا أحبك يا ابني، وقمتُ بتأديبك بالقدر المناسب هذه المرة. رغبتي أن أراك خاضعًا لبابا. وهدفي أن نستعيد علاقتنا وتقاربنا بالكامل. أنا سأصلّي لك ولي. سأصلّي لكي أكون بابا الذي يتسم بالحكمة والعطف. سأصلّي أن تخضع للترتيب الإلهي لحياة العائلة وتكرم وتطيع بابا وماما.»

تُعد عملية استعادة العلاقة على قدر هائل من الأهمية. إذا كان الأمر لا علاقة له بغضبك، ولكن الطفل يتحرك خارج دائرة الأمان، فأنت لا تريد لطفلك أنه يبقى مغضوبًا عليه. ولا تريد أن تكون أنت مغضوب عليه.

عندما ينتهي التأديب، يكون قد انتهى. لا يترك بقية. والصفحة تكون بيضاء. وحان الوقت لبداية جديدة. إن عملية استعادة العلاقة تضمن لك أن تفعل هذا.

٨- صلِّ معه. شجعه بحقيقة أن المسيح جاء لأننا نخطئ كأشخاص. وهناك غفران في المسيح. ويمكن التعرّف على المسيح. وهو يستطيع إزالة القلب الحجري ويعطي قلب لحم. ويستطيع المسيح أن يعمل بروحه لتحفيزه على إطاعة الله. ويستطيع المسيح أيضًا أن يقويه ويمكّنه من الطاعة في المستقبل.

تحتاج أن ترى أطفالك في طرق الرب طوال الوقت. ومع ذلك ليس هناك وقت أقوى للتأكيد على تصريحات الإنجيل أكثر من الوقت الذي يواجه فيه أبناؤك باحتياجهم لنعمة المسيح وقوته خلال التأديب. عندما يكون الشمع ساخنًا خلال التأديب، يحين الوقت لنقش أمجاد فداء المسيح.

من جهة أساليب التدريب، أنت تستخدم كلا الطريقتين التي أعطاهما الله: العصا، والتواصل. ولأنك تتعامل مع أطفال صغار، هناك تركيز هائل على خبرة الضرب الملموسة والتي لا يمكن إنكارها. كلماتك لها وزن للطفل الصغير، إذا تم دعمها بالضرب.

راجع الفصل السابع، «نبذ الأساليب غير الكتابية» ، وإمّا أنك ستقوِّم وتؤدب مستخدمًا أداة العصا والتواصل، أو أنك حتمًا سترجع إلى أحد الطرق التي رفضناها في الفصل

السابع. بعض الآباء والأمهات يستسلمون إلى الرشوة، وعمل اتفاقات، واستخدام تعديل السلوك، وعمل تضرعات عاطفية قوية، والتأريض (الحرمان من شيء).. إلخ. ليس هناك من الوالدين مَن لا يربون. كل الآباء والأمهات يربون بشكل أو بآخر. المشكلة أن كثير من هذه التربية هي تربية فقيرة.

«لماذا» الضرب

أسباب الضرب تتمثل في أن الله يوصي بذلك. فضلاً عن ذلك فإن الضرب يمكّنك من التعامل مع أمور تتعلق بالقلب. تذكّر أن القلب يوجّه السلوك. والتأديب يخاطب القلب ولا يرتكز على السلوك وحده.

السلوك السيئ يمثل فشلاً في الطاعة، وبالتالي يمثل فرصة للتقويم، وبؤرة التركيز للتقويم ليست هي السلوك، لكن بؤرة التركيز هي قلب الطفل الذي دُعي للخضوع لسلطة الله. هدف التقويم ليس ببساطة تعديل السلوك، وإنما تشجيع الطفل للخضوع لإرادة الله بقلب متضع بحيث يطيع الأب والأم. القلب هو أرض المعركة. والضرب يُستخدم فقط لأنه أداة أعطاها الله لطرد روح الحماقة بعيدًا عن قلب لطفل.

وبينما تنظر إلى الوقت الحالي، فإنك تعرف أن هناك أمورًا كثيرة في خطر. أين سيكون طفلك بعد ٣٠ سنة من الآن إذا لم يواجه أحدٌ إصراره على فعل ما يريد وقتما يريد؟ أي نوع من الأزواج سيكون إذا رفض أن يخضع لوصية الله؟ أي نوع من الموظفين سيكون إذا لم يتعلّم أبدًا الخضوع للسلطة؟

أين سيكون أحفادك بعد ٥٠ سنة من الآن إذا لم تطرد الحماقة المتعلقة بقلب طفلك؟ كيف سيرى طفلك احتياجه لغفران المسيح ونعمته إذا لم يواجه أبدًا التمرد المتأصل في طبيعته وعجزه عن إطاعة الله من القلب؟

أسئلة شائعة

بينما كنت أدرِّس في مناطق كثيرة حول العالم عن رعاية الأطفال في سن المشي تعرضتُ للأسئلة التالية مرات عديدة.

ما هو الموضوع الذي يستحق الضرب؟

في هذه المرحلة عندما تعلّم أبناءك ليكونوا خاضعين للسلطة، يجب أن يقتصر الضرب على المسائل التي لها علاقة بالتمرد المتعمد، وإهمال الإكرام، وإهمال الطاعة. عندما تتعامل مع طفل في عمر المشي، لا تضع أهمية كبيرة على نسيانه قواعد السلوك بالمنزل. لأنك ينبغي أن تكون مستعدًا لإخباره في كل مرة يجلس فيها على الكرسي العالي أنه غير مسموح له بأن يلقي طعامه على الأرض. وبالتأكيد لا يمكنك أن تؤدب على الأفعال الصبيانية. الأطفال قليلو التعقل، ويفتقرون إلى الحكم الصائب على الأمور. سيخبطون وسيكسرون الأشياء. هذه الحوادث الناتجة عن قلة الخبرة لا تستدعي الضرب.

مع الأطفال الصغار لابد أن تكون شديد الحرص والتركيز، الضرب للتحدي فقط. وبينما يكبر الأطفال، يكون من العدل أن نضم أمورًا أخرى تتعلق بالسلوكيات داخل البيت. إذا لم تسمح بالتزحلق من على الدرابزين أو القفز من فوقه على الكنبة، من العدل أن تتوقع من طفل في سن المدرسة أن يتذكر هذه الأشياء. سيكون من الملائم أن نتعامل مع هذا الأمر كعصيان يستحق الضرب.

متى يكون طفلي كبر؟

عندما يصبح طفلك كبيرًا بما يكفي ليقاوم توجيهاتك، يكون كبيرًا بما يكفي ليتلقي التأديب. عندما يقاومك، فهو يعصيك. وإذا أغفلت التجاوب مع هذا، ستترسخ مثل هذه المواقف المتمردة. وكلما تأخرت عن التأديب، أصبح علاج العصيان صعبًا.

التمرد قد يكون شيئًا بسيطًا مثل طفل يصارع ضد تغيير الحفاظة، أو يصلّب جسده عندما تريده أن يجلس على حجرك. تكون عملية التأديب مثلما شرحناها سابقًا. ليس لديك طريقة لتعرف ما مدى فهم طفل أقل من سنة، لكننا نعرف أن الفهم يأتي قبل القدرة على النطق بكثير.

سيكون لديك ميل للانتظار حتى يتعلم أطفالك الكلام والتعبير عن تمردهم قبل أن تتعامل معه. عندما كان طفلنا الأكبر في عمر ثمانية أشهر تقريبًا، كنا نواجه

تربية أول أطفالنا وكان كثير الحركة. كان يزحف في كل مكان. كان لديه رف مكون من عوارض وقوالب من الطوب. وخشيت أن يسقط الرف عليه، فأخبرته زوجتي Margy ألا يشد نفسه عليه. وبعد إبعاده عن الرف، تركت الغرفة. وبينما ترقبه أمه، لاحظت أنه يراقب جميع أنحاء الغرفة. وبينما ترقبه أمه، تقدّم راجعًا إلى الرف المحرّم. هذا طفل صغير، غير قادر حتى الآن على المشي أو الكلام، كان يراقب خلو المكان حتى يستطيع أن يعصي أوامر أمه. فمن الواضح أنه كان كبيرًا بما يكفي ليؤدب.

متى يكبر طفلي على مرحلة الضرب؟

دائمًا ما أخبر الآباء والأمهات بأنني لا أعرف الإجابة على هذا السؤال. هناك عوامل متعددة يمكن وضعها في الحسبان. هناك مستويات مختلفة للنضوج بين الأطفال. هناك ترتيب الطفل بالمقارنة بالأطفال الآخرين في البيت. هناك اختلافات في الميول والطباع. كل هذا يجعل من المستحيل وعدم الحكمة أن نختلق تاريخًا اعتباطيًا بعده لا يصح الضرب أبدًا.

رأيي في هذا كالتالي: الضرب يكون في أعلى فاعليته مع الأطفال الصغار، فهم يخافون من أن يُضربوا. والضرب يعطي وزنًا لكلماتك. والضرب يجعل الطفل متضعًا ومتعقلاً. وبينما يكبر الأطفال تجدهم لا يتأثرون بالضرب. ويتعلّمون كيف يتعاملون معه. نفس شدة الضرب المطلوبة لنفس للتأثير على طفل عمره ١٢ سنة ستكون مفرطة إذا استخدمتها لطفل عمره سنتان.

وبينما ينضج الأطفال، هناك تبعات أخرى يمكن توظيفها. في فصل لاحق سنتطرق إلى طرق ووسائل لتوظيفها عند التعامل مع الأطفال الأكبر سنًا والمراهقين.

هل أستطيع استخدام طريقة الوقت المستقطع (time-out) بدلاً من الضرب؟

في كثير من النقاشات التي تعقب محاضراتي عن الضرب، تحدث حوارات تسير على النحو الالي: «يا Tedd ، يعجبني كل الأشياء التي شرحتها، دائرة البركة، والتأكيد

على نعمة الإنجيل، وأهمية التواصل. كل هذا عظيم. ولكن إليك هذه الصفقة، لا أحب الضرب، ألا يمكنني استخدام طريقة الوقت المستقطع بدلاً من الضرب؟»

ليس لديك الحق في أن تستبدل ما أمر به الرب بأفكار شائعة لدى ثقافتنا. لقد دعا الله الوالدين ليضربا أبناءهما. وأنت كأب/ كأم ليس لديك الحق لتقول «لا أحب فكرة الله. بل أحب فكرتي أو أن طريقة الثقافة المحيطة أفضل».

تحتاج أن تثق في الله وتطيعه. هذا يُقال، إذا كان لديك طفل كثير الحركة في عمر السنتين، ربما من الملائم أن تقول «يا حبيبي، تحتاج أن تجلس لدقيقة وتهدأ. وهذا كتاب يمكنك النظر فيه. وسأعلِمك عندما يُسمح لك بالنهوض». او إذا قال شيئًا قبيحًا، تقول لطفل عمره ثماني سنوات: «تحتاج أن تذهب إلى غرفتك، وتفكّر فيما قلته، أو فيما فعلته. سآتي وأتحدث معك لاحقًا». لا هذا ولا ذاك يُعد شيئًا خطأ عندما تفعله، ولكنك لا تستطيع أن تستبدل طريقة «الوقت المستقطع» بالضرب.

ماذا لو قال طفلي: «لكني لم أسمعك»؟

لم أشكك أبدًا في صحة هذه العبارة، ولكن علَّمت أبنائي إنها عبارة غير مقبولة. أحد أبنائنا بدا أن لديه مشكلة مع «السمع».

جلسنا مع هذا الطفل، وجرى بيننا هذا الحوار: «لديك مشكلة في السمع. أنا أتحدث معك بنبرة عادية. أنا قريب منك بما يكفي لتسمعني. لذلك أظن أنه من الأفضل أن تبدأ في اكتساب قدرة على تمييز صوتي من بين الضوضاء الأخرى المحيطة بنا. عندما تسمع صوتي، يجب أن ترهف أذنيك. من الآن فصاعدًا، إذا لم تطع لأنك «لم تسمع»، سأضربك لأنك تغفل سماع صوتي».

ضربته مرة واحدة فقط لأنه أغفل أن يسمعني. وبعد ذلك أصبحت مشكلة السمع غير موجودة.

إذا اتبعت نصيحتك، كل ما سأفعله هو الضرب

يبدو كثيرًا للآباء والأمهات أن مثل هذا الإفراط فيما يتعلق بالطاعة يمثل طلب الكثير منهم ومن أبنائهم. الحقيقية هي، إذا كان الآباء والأمهات غير متناقضين في التأديب، سيجدون سريعًا أن الطفل يتجاوب وأن الحاجة إلى التأديب تقل.

هل يمكن أن تواجه العصيان طوال النهار لأنك تتحمله؟ طالما أنك غير مستعد لطلب الدقة في الطاعة، فإن قوة توجيهاتك ستضعف تدريجيًا. عدم التناقض هو السر.

هناك أمور على المدى البعيد ستكون في خطر: من الممكن أن تتغلب على عقبة الطاعة قبل أن يصل أطفالك إلى سن المدرسة. أشفق على الآباء والآمهات الذين يقضون كل حياتهم في تنافس على الطاعة، بينما يمكن ترسيخ السلطة مبكرًا في مرحلة الطفولة.

ربما تأتي أيام لا يحدث فيها شيء لأنك تحرص على التأديب بشكل مستمر. ولكن الأمانة ستأتي بثمار جيدة. ويمكن تجاوز مسألة السلطة. ليس من المحتم أن تصبح الطاعة قضية كبيرة في بيتك إذا تعاملت معها في السنوات المبكرة. الاستمرارية ستمكّنك من تجنب التنافس على الطاعة خلال مراحل نمو طفلك. يمكن أن تضع هذه المشكلة خلف ظهرك.

ماذا لو كنتُ غاضبًا جدًا؟

كل الآباء والأمهات شعروا بغضب جامح أعمى تجاه طفل يسيئ التصرف. هذا دليل واضح على أنك غير مؤهل أن تمارس التأديب الكتابي. عندما تكون في نوبة غضب، فأنت لا تراعي المسائل المتعلقة بالتقويم الكتابي. وأن جدول أعمالك يُرضي شعورك أنت بالعدل. إذا لم تكن حريصًا، ستلوث عملية التأديب بغضبك غير المقدّس.

إذا كنت شخصًا تصارع مع الغضب، فأنت تعرف ذلك. وإذا ظننت أنك قد تصل إلى حافة الغضب، اطلب من شريك حياتك أن يقوم هو بمهمة الضرب إذا تطلب الأمر. إذا كنت سريع الغضب، لابد أن تعد أبناءك وشريك حياتك بالآتي: «لن أضرب أبدًا قبل أن أجلس منفردًا مع الله ليهدئ من قلبي حتى أستطيع أن أؤدب بطريقة مترفقة ترضي الله.»

إذا كنت غضوبًا جدًا لا تستطيع أن تؤدب بشكل صحيح، علِّم طفلك أن يجلس أو يذهب إلى غرفته. ثم لابد أن تطلب وجه الله. ولابد أن تتوب عن غضبك. ولابد أن تبقى أمام الله حتى تقدر أن تتعامل مع طفلك باستقامة قلب.

وإذا أخطأت في حق ابنك، نتيجة لضعف وعجز جسدنا، لابد أن تطلب السماح منه. إن طلب الغفران لا يكون بالقول «أنا آسف لأني غضب وصحت في وجهك، ولكنك عندما تفعل كذا وكذا...». طلب الغفران يكون بقول «أنا آسف. أخطأت في حقك. كنت غاضبًا. وانفجرت في نوبة انفعال شديد. ليس هناك تبرير لسلوك مثل هذا. من فضلك اغفر لي وسامحني». عندما تقدم أسبابًا لخطيتك، فأنت لا تطلب الغفران، أنت ببساطة تبرر خطيتك.

ماذا لو كنا خارج البيت؟

أحيانًا لا يطيع الأبناء في أوقات غير ملائمة أو أماكن غير ملائمة. وفي ثقافة لا تستطيع التمييز بين التأديب الكتابي وإيذاء الأطفال، ليس من الحكمة أن تضرب الأبناء علنًا. إذا أمكن، يجب أن تبحث عن مكان خاص لتنفذ التأديب الكتابي.

عندما يكون أطفالك صغارًا جدًا، ربما تختار أن تتغاضى عن أشياء لا تتغاضى عليها وأنت في البيت. هذه ليست مشكلة كبيرة، طالما أن معظم وقت تدريبك تقضيه في البيت.

يقول بعض الآباء والأمهات: «إذا لم أؤدب عندما نكون خارج المنزل، سيعرف أطفالي أنهم سيفلتون من العقاب على سلوكيات سيئة عندما لا نكون في البيت». إذا كانوا بنفس هذه الدرجة من الذكاء، سيتذكرون عندما يعودون إلى البيت. عندما يقترب الأطفال من سن المدرسة، يمكنهم تذكر أحداث ماضية بحيث يمكنك تقويمهم عليها في وقت لاحق.

من الهام أن تجعل تأديب أطفالك أمرًا خاصًا. إذا كنت في بيت شخص آخر، يمكنك أن تسأل عن مكان يمكنك التحدث فيه مع طفلك في خصوصية.

التواجد مع آخرين يصبح محرجًا عندما يتصرف أبناؤك بشكل سيء- ربما تشعر بأنك تتعرض لضغط اجتماعي هائل لتصبح ناجحًا. ربما تخاف لأن أقاربك يتوقعون منك الكمال في كل شيء. وأنت تريد أن تقدّم شهادة لهم. وتريدهم أن يروا أن الأساليب الكتابية تؤدي إلى ثمار. الإغواء يكون قويًا لتحل المشكلات من خلال التنازل لتجنب الإحراج. ولكن غير مسموح لك أن تستخدم أبناءك للترويج لقناعاتك. إن غرض التأديب ليس الكرازة. بل غرض التأديب هو رعاية أبناءك. وعندما تستخدمهم لتستعرض معتقداتك، فهذا يؤذي كرامتهم، ويهدد سلام علاقتك بهم.

عندما تشعر بضغط من المراقبين لك، غادر المشهد كله. اذهب إلى مكان خاص حيث يمكنك التجاوب مع احتياجات طفلك بدون ضغط مراقبة الآخرين لك.

ماذا لو عرفت أن طفلي يكذب عليّ؟

عندما تشعر أن طفلك يكذب، أفضل طريق يجب أن تسلكه أولاً هو أن تتحدث معه حتى تحصل على إجابة صادقة. إذا فشل ذلك (وغالبًا سيفشل)، تحتاج أن تنتقل إلى مناقشة عامة عن أهمية الاستقامة. ذكّر طفلك أن الله يطلب منّا الاستقامة. وأن كل الأشياء مكشوفة أمام الله، وأننا في النهاية سنعطي عنها حسابًا أمام محكمته. ناقش مكاسب الاستقامة في علاقتكما. ساعد طفلك ليرى المكاسب الناتجة عن الاستقامة. أحيانًا، لن ينجح شيء من هذا. ويستمر الطفل في عناده. ماذا تفعل؟ هل تدعوه كاذبًا؟ أبدًا! إذا أخبرت أطفالك بأنك لا تصدقهم، فإنك ستصيبهم باليأس. وإذا اقتنعوا بأنك لن تصدقهم ابدًا، فلا هناك داعٍ للحديث أو لبناء علاقة مستقبلية معهم. وبالتالي رفضك لأن تصفهم بالكذب واعتزازك بعلاقتك معهم سيشجع سلوكهم باستقامة. لقد اندهشت لدرجة الإفصاح وحتى إدانة الذات التي أظهرها أبنائي نتيجة ذلك.

إذا لم يقل طفلك الصدق عما بدر منه، فإنه سيفلت بفعلته هذه المرة. هذا مؤسف، ولكن خسائرك وخسائره إذا تركته ستكون أقل عما إذا وصفته بالكذب. إذا كان ما فعله خداعًا، سيكون لديك فرص أخرى لتعالج هذا الأمر. من الأفضل كثيرًا أن تخفق هذه المرة، وتحتفظ بالعلاقة أكثر من أن تحطم علاقتك به وتفشل في علاج الخداع أيضًا.

ماذا لو كنت غير متأكد مما حدث بالضبط؟

إذا لم تكن متأكدًا، وطفلك لن يخبرك بما حدث، فلا تفعل شيئًا. ستكون هناك أوقات أخرى ستكون متأكدًا مما حدث. في هذه المرات بمقدورك أن تتعامل مع احتياجات طفلك. إذا لم تكن متأكدًا مما حدث، كيف تحصل على اعتراف من طفلك (خطوة ٣ من طريقة الضرب)؟ وكيف لي أن أعرف الأمر المتعلق بالقلب إذا كان الموقف غامضًا؟ ستزيد مصداقيتك إذا لم تؤدب عندما تكون الأمور غير واضحة.

ماذا لو ينجح أي شيء؟

هناك طريقتان للنظر إلى هذه المشكلة. أولاً: تحتاج أن تقيّم هل هناك ثغرات أو عدم استمرارية وتناقض فيما تفعله. ثانيًا، تحتاج أن تكون مستعدًا لإطاعة الله سواء ظهر ثمر في الحال أم لا. من خلال خبرتي فإن معظم الادعاءات بأن التربية الكتابية لا تنجح يمكن فهمها من خلال هذين الطريقتين. سواء كان هناك فشل في الحفاظ على عدم التناقض في التأديب والرعاية، أم أن هناك افتقارًا للاستقامة بشكل أساسي في علاقة الوالدين بالله أو الطفل أو كلاهما.

ماذا لو تأخر الوقت؟

ربما تشعر «أنا أتعلم كل هذه الأشياء، لكن أطفالي ليسوا في الخامسة أو أصغر». لا شك أنه من السهل أن تقوم بمهمة التربية على النحو الصحيح، أكثر من تصحيح المشكلات لاحقًا. ومع ذلك فالله صاحب القدرة ولا يوجد موقف لا يمكننا فيه أن نظهر الطاعة لله. لقد رأيت عائلات يصلحون ما فات من خلال إطاعة كلمة الله بصبر وأمانة.

هذا ما يجب عليك فعله:

١- اجلس مع أبناءك واشرح لهم الأفكار الجديدة التي راودتك. أخبرهم بما تعتقد أنك أخطأت فيه في تربيتك لهم. (ركز على قصورك أنت وليس هم). ساعدهم على فهم كيف كان يمكن أن يستفيدوا لو أنك علمتهم أن يخضعوا للسلطة عندما كانوا صغارًا.

٢- اطلب منهم أن يسامحوك على إخفاقاتك كأب أو أم.

٣- قدّم لأبناءك تعليمًا كتابيًا واضحًا عن أهمية الخضوع للسلطة. ساعدهم على فهم أن الله وضع نظامًا للسلطة في العالم الذي خلقه. بيِّن لهم أن العيش بالخضوع للسلطة الإلهية يمثل بركة عظيمة. وعندما يفهم المرء مكانه فهذا يشبه معرفة الخطوات المناسبة في الرقصة الرباعية (square dance). يصبح الرقص ممتعًا للجميع إذا عرف كل فرد مكانه بالضبط. لتبدأ دائمًا أية تغييرات في حياتك العائلية بالتعليم.

٤- قدّم لهم توجيهًا محددًا عن التغييرات التي تعتقد أنها مطلوبة في سلوكياتهم ومواقفهم وهكذا. ناقش معهم هذه الأمور. ساعدهم على فهم أنه عندما يكونون خاضعين أكثر للسلطة سيجعل الأمور تسير على نحو أفضل معهم.

٥- حدِّد كيف ستتعامل مع العصيان في المستقبل. احرص على أن يفهموا ذلك، وكذلك يشعرون بالارتياح تجاه ما ستفعله.

٦- ليس هناك أساليب جديدة يمكن تنفيذها بنجاح بغرض وحيد هو تغيير أطفالك فقط. إنهم سيتجاوبون لمحاولاتك في الالتزام بكلمة الله في كل نواحي الحياة. وسيقاومون أي شيء يبدو لهم كنوع من التلاعب.

٧- أي شيء ستفعله سيحتاج إلى الصبر. من الصعب أن تغيِّر العائلة اتجاهها. ما ينتظرك هو مسألة حرب روحية ضد قوى الشر. الأمر أكثر من مجرد تطبيق بعض المبادئ. صلِّ، واطلب معونة الله. انتظر الرب. ادرس كلمة الله مع أبناءك. حاول أن تأخذهم معك في رحلتك الروحية. شارك معهم ما تتعلّمه، ومدى أهمية التغيرات المطلوبة في حياة عائلتك.

ليكن تركيزك هو أن تكرم الله في حياتك العائلية، وليس كيف تضبط أطفالك. سينضبط أطفالك كنتيجة طبيعية لإكرام الله.

قَبلت Sue وزوجها Neal المسيح عندما كانتا ابنتاهما في عمر الخامسة والتاسعة، وكانت حياتهم كعائلة مملوءة بالفوضى. فكانوا يعيشون في العالم بدون أي معايير وبدون

الحق الكتابي. كانت Sue تقضي معظم وقت فراغها عند الطبيب النفساني. وكان Neal يعمل لساعات طويلة، ويريح نفسه من وقت لآخر بالكحوليات والمخدرات. وكبرت البنتان بدون توجيه – تعيشان في عالم بلا أسوار، ولا أية نقاط مرجعية ثابتة.

قبل Neal وزوجته Sue المسيح في كنيسة إنجيلية كبيرة لا تقدّم تعليمًا كتابيًا واضحًا عن الأطفال. ولكنهما بدآا في قراءة بعض الكتب من تأليف رجال مسيحيين يقبلون أفكارًا كثيرة من علم النفس غير متوافقة مع الكتاب المقدّس. وبينما كانا يريدان مساعدة ابنتهما، تعقدت الأمور أكثر.

ولكن بتدبير إلهي، بدآا يتعلمان بعض المبادئ الواردة في هذا الكتاب. تعلّما عن القلب كمنبع للسلوك، وعن التأثيرات التي تشكل الأبناء. وبدآا في رعاية ابنتهما. اعترفا لفشلهما في تربية الابنتين بشكل صحيح. وتحدثا عن معايير الله التي كان يُفترض تطبيقها. ثم اتفقا على أن يعطيا التقويم والتأديب منظورًا جديدًا. صليا معًا مع ابنتهما. وبدآا في تخصيص وقت للعبادة العائلية محورها معرفة الله، وليس فقط قراءة الكتاب المقدّس معًا. وأظهروا جميعًا محبة المسيح في حياتهم العائلية.

وبنعمة الله، في السنوات العديدة التي مضت، تغيّرت البنتان. وبدأتا في فهم الحياة من منظور معرفة الله. ونضجتا في محبة والديهما. لقد تم انقاذهما! لم يكن هذا بالطريق السهل بالنسبة ل Neal وزوجته. من السهل جدًا أن تضع الأساسات قبل بناء البيت، ولكن شكرًا للرب، لأننا لم نوضع أبدًا في مأزق بحيث لا نجد طريقًا للطاعة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٥

١- ما هي المبادئ الكتابية التي يجب أن تحكم «توقيت» استخدام عصا التأديب؟

٢- ما هي العوامل التي يجب توفرها في «كيفية» استخدام عصا التأديب؟

٣- ما هي المشكلة التي يعاني منها أطفالك بحيث يحتاجون إلى عصا التأديب؟

٤- أي من الأسئلة الأكثر شيوعًا كنت تسألها لنفسك؟

٥- كيف توفر العصا فرصًا قيّمة لمساعدة أبناءك على إدراك احتياجهم لعمل المسيح؟

٦- ماذا يمكن أن تقول لشخص يقول أن الضرب هو مفهوم بدائي يسلب الأطفال كرامتهم؟

٧- أيهما أسهل بالنسبة لك، الضرب أم الحوار؟ كيف تتجنب عدم التوازن في هذه المسألة؟

الفصل السادس عشر

مرحلة الطفولة:
الأهداف التربوية

جاء اليوم الذي التحق فيه أول أبنائنا بالمدرسة. كنّا واثقين من نجاحه. كنا نعمل على أن يتعلّم الطاعة منذ سنوات عديدة. وقد تعلّم بالفعل أن يطيعنا بلا تحدٍ، وبلا أعذار، وبلا تأخير.

وقمنا بكل الطقوس الخاصة بالاستعداد لهذا اليوم. ذهبنا للتسوق لشراء كل المستلزمات المدرسية. اشترينا علبة لحفظ السندوتشات وزمزمية. قمنا بشراء شنطة للكتب تناسب حجمه، وزيناها بأقلام رصاص، وممساحات، وأوراق، وأقلام ألوان. اشترينا أيضًا ملابس مدرسية متينة. كنا متأكدين أننا أعددناه لكل شيء.

تكدرنا عندما وجدنا أن استعدادنا لم يكن كافيًا. لقد أنجزنا رحلة التسوق. لكن تدريبنا هو الذي لم يكن كافيًا. لقد علَّمنا ابننا أن يطيعنا. لكن المشكلة أننا لم نكن هناك معه في المدرسة لنقدّم التوجيه. كانت هناك مواقف كثيرة- في حافلة المدرسة، وخلال الفترة الحرة الخاصة باللعب، وفي غرفة الطعام- كان يحتاج في هذه المواقف إلى إرشاد. بدأنا ندرك أنه علينا أن نتبع أهدافًا تربوية مختلفة لهذه الفترة الجديدة من الحياة.

مرحلة الطفولة

أنا استخدم كلمة الطفولة لأشير إلى المرحلة المتوسطة من حياة الطفل. زمنيًا تتضمن الفترة من عمر الخامسة إلى الثانية عشر. إنها تمثل سنوات المدرسة الابتدائية. إنها الفترة

الزمنية التي غالبًا ما نتذكرها عندما نفكر في «الطفولة». إنها الفترة بين بداية المدرسة والبلوغ.

هناك تحديات جديدة تواجه الوالدين. يكتسب الطفل استقلالية متزايدة في القدرة على الاختيار والشخصية. ويقضي الطفل وقتًا أطول بعيدًا عن توجيه وإشراف والديه. ويواجه تجارب لا يستطيع الأبوان مشاهدتها أو الفصل فيها.

يكتسب أبناؤنا مزيد من الاستقلالية عنا. يفكرون بأفكارهم هم. يكون لديهم أفكارهم الخاصة عن الأشياء المسلية، والتحديات، والأشياء ذات القيمة. وقدراتهم تحدد اهتماماتهم التي تعبِّر عن تطور الطابع الشخصي المميز لهم.

في أحد الأيـام عندما وصل أولادي إلى عمر السادسة والحادية عشر، قررا أن يصنعا قطارًا يتزحلق على التل المجاور لبيتنا، فذهبا إلى التل، وقطّعا ألواحًا خشبية، وجمعا أجزاء القاطرة- كل هذا بدون مساعدتي! لقد امتلأت بمزيج غريب من المشاعر. كنتُ فخورًا بهما لأنهما قدرا على ذلك. ومع ذلك شعرت إلى حدٍّ ما بالحزن لأنهما فعلا ذلك بدوني. شعرت بالارتباك بشكل غريب.

مسألة كبيرة

لنفترض أنك علّمت طفلك الدرس الخاص بالمرحلة الأولى. وأصبح يرى نفسه خليقة الله ويعيش لله. وأصبح يفهم معنى الخضوع للسلطة. وتعلَّم أن يطيع بدون تحدٍ وبدون أعذار وبدون تأخير. لكن طفلك الآن يواجه مواقف لا يمكنك اختصارها فقط في الطاعة. كيف إذن تبني على أساس الخضوع للسلطة الأبوية؟

تنمية الشخصية

الموضوع الأهم خلال هذه السنوات المتوسطة هو الشخصية. لابد من تنمية شخصية طفلك من جوانب عديدة. يجب أن يتعلم طفلك الوفاء، والأمانة، واللطف، والمراعاة،

والرغبة في المساعدة، والاجتهاد، والولاء، والتواضع، وضبط النفس، والطهارة، والأخلاق، ومجموعة أخرى من السمات الشخصية.

ليس بمقدورك أن تتواجد معه كل الوقت. لابد أن يعرف ماذا يفعل في مواقف لا يمكنك توقعها. إنه يحتاج إلى حكمة كتابية. ولابد أن يتشكّل ضميره ليصبح جزءًا عقلانيًا من النفس حتى يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل حتى عندما لا تكون متواجدًا معه.

تغيُّر بؤرة التركيز عن المرحلة الأولى

في المرحلة الأولى كان التركيز على الطاعة. وكنت مهتمًا باجتثاث جذور التمرد الفطري من قلب الطفل. وكنت مهتمًا أن يواجه ميوله الطبيعية لمقاومة السلطة. وهكذا قمت بمواجهة العناد ودعيت طفلك إلى الخضوع إلى سلطة الله.

إن طلب الطاعة يمثل إعدادًا جيدًا، ولكنه لا يتعامل مع القضية التي يتوجب عليك مواجهتها في هذه المرحلة. إن عملية التأديب تخاطب السلوك العنيد. لكن ما يجب مخاطبته في هذه المرحلة هو السلوك الخاطئ، وليس العند.

الأنانية مثلاً ليست سلوكًا عنيدًا، ولكنها سلوك خاطئ. لم يخرج طفلك خارج دائرة البركة، ولكنه بداخل الدائرة، أظهر تمركز شديد حول الذات وهو أمر شرير وقبيح. مثال آخر هو السخرية. قد يسخر الطفل من أخيه بدون أن يكون بالضرورة عاصيًا أو غير محترم تجاهك. الهدف هو مساعدته على رؤية قبح مثل هذه السلوكيات.

أتذكر عودتي إلى البيت يومًا فرأيت أبنائي يفترشون الأرض ويلعبون لعبة ما، بينما تجري زوجتي هنا وهناك محاولة أن تفعل ١٠٠٠ مهمة بسيطة كان من الممكن أن يقوم بها أبنائي الصغار. كانوا يفعلون شيئًا جيدًا، ولم يكونوا يقومون بسلوك متمرد. لم يعصوا أمهم، ومع ذلك كنت غير سعيد بعدم اهتمامهم وأنانيتهم إيزاء مشغولية أمهم. أردت أن أرى فيهم سمات شخصية تتعلق بإظهار الشكر لعمل أمهم، واستعدادهم لتقديم المساهمة في حمل بعض أعبائها. إذا لم تعمل على الشخصية، لن تحصل على أكثر من الطاعة وفقط.

انحراف شائع

شاهدت بعض الآباء والأمهات يحلون هذه المشكلة بفرض قواعد أكثر. هذا حل ضعيف. وسرعان ما ستصبح الحياة العائلية مثقلة بقواعد أكثر مما يستطيع الأبناء أو الأبوان تذكُّرها، ناهيك عن اتباعها.

عرفت عائلة كان لديها قواعد عن المدة المسموح بها لاستخدام الحمام في الصباح. وكان هناك قواعد تختص بكل تفاصيل الاستعداد للذهاب إلى المدرسة- حتى عدد مرات استخدام فرشاة الشعر! هذا قد يجعلك تبتسم أو تشهق، ولكنها كانت محاولة صادقة في هذه العائلة. كان هناك أربع فتيات وحمام واحد. وبدا أنه من الأسهل أن نضع قواعد بدلاً من معالجة أمور تتعلق بالشخصية مثل حب الذات، واللامبالاة تجاه احتياجات الآخرين، وهكذا.

بالطبع مشكلة هذا الأسلوب أنه من المستحيل أن تضع قواعد شاملة بشكل كافٍ لتوقع كل احتياج للتوجيه. فضلاً عن ذلك، فإن عقل الشخص البالغ ليس ماهرًا بما يكفي لعمل قواعد لا يستطيع عقل الطفل الالتفات حولها. المزيد من القواعد غير فعّال.

تخيل أنك تسير بسيارتك. وابنك لديه كيسًا من لحلوى يلتهمه بدون أن يعرض مشاركته مع أخيه أو أخته. هنا الطفل لا يعصي، ولا يظهر سلوكًا غير محترم تجاهك. كيف يمكن أن تتعامل معه؟

إن معالجة شخصية الطفل تجعل التركيز على الأمور التي تتعلق بالقلب. وتمكنك من التعمق أكثر من السلوك ومعالجة الأفكار والدوافع ومقاصد القلب. على سبيل المثال تمثل عبارة «من فضلك شارك الحلوى مع أختك» أمرًا يقتضي الطاعة. فحتى الشخص الأناني يقدر على المشاركة من حين لآخر. لكن الجانب المتعلق بالشخصية أعمق من ذلك بكثير. الله يأمر بأكثر من مشاركات من حين لآخر. بل يطلب الله اتجاه القلب الذي يعطي بحرية وبدون التفكير في المقابل. بمخاطبة الأمور التي لها علاقة بالشخصية ستتجاوز السطح إلى رعاية قلب أطفالك.

مشكلة الفريسيّة

البديل لمخاطبة الأمور التي لها علاقة بالشخصية لدى أبناءك هو ترتيب الأمور حول قواعد سلوكية. عندئذٍ ستنشئ أطفالاً يتعلمون اتباع القواعد. ويصبحون معتدين بأنفسهم، ومصابين بالبر الذاتي. ويصبحون فريسيين عصرهم؛ كأسهم نظيف من الخارج ومملوء قذارة من الداخل.

كان جورج في الصف الثاني الابتدائي في مدرسة مسيحية في الجوار مثالاً لهذه الفريسية. علماه والده أن يطيع. وفي الفصل كان يسير وفق القواعد. كان يقوم بعمله. ولم يكن يتحدث أو يترك كرسيه بدون إذن. كان شديد الأدب. كان خارج الكأس نظيفًا. ومن الداخل كان جورج يضمر أفكارًا شريرة في قلبه. ومن الواضح أنه كان يظن في نفسه أنه أفضل من كل الأطفال الذين يحتاجون إلى تأديب مستمر. لم يكن يُسامح إذا أُخطئ في حقه. وربما يوافق على أن يغفر بنبرة متعالية. لا يشعر أبدًا بخطيته أو باحتياجه إلى المسيح. ويَعمى بصره عن مواقفه الأنانية والمتكبرة. وكان غير قادر على رؤية أنه حتى سلوكياته الجيدة تحتاج إلى التوبة، لأنها لا تعكس محبة لله وللآخرين. وإنما تعكس الكبرياء والبر الذاتي.

كان والدا جورج شخصين رائعين يحبان ابنهما. وقد ربياه بعناية. لكنهما تعاملا مع الأمور الخارجية الخاصة بالسلوك بدون معالجة أمور القلب. كان جورج يرى الخطية مثل الأشياء الخارجية، مثل عدم إطاعة المعلّم. لم يكن يرى أن انغماسه الذاتي في اللامبالاة بأي أحد إلا نفسه يمثل خطية.

في هذه المرحلة المتوسطة من تربية الأطفال لابد أن نعمل على الشخصية.

أداة ثلاثية للتشخيص

الفصل التالي يستكشف «كيفية» مخاطبة القلب والضمير. وقبل أن ندرس عملية معالجة الشخصية، سنتطرق إلى أداة للتحليل أو التشخيص.

أنت بحاجة إلى طريقة ما للنظر إلى أطفالك وفهم احتياجاتهم. أنت بحاجة إلى طريقة شاملة لترتيب الأشياء التي تشكّل شخصياتهم. أنت بحاجة إلى معيار تقيس عليه نقاط الضعف والقوة، بحيث تستطيع استهداف احتياجاتهم الحقيقية.

الأداة تتسم بالبساطة الكافية بحيث تكون فعّالة وشاملة بما يكفي لتكون نافعة. كل ستة أشهر أو ما شابه، قُم بهذا النوع من التحليل والتشخيص لاحتياجات أبناءك.

علاقة الطفل باللّه

أول جزء من التشخيص هو طفلك من حيث علاقته بالله. السؤال ليس سؤالاً يختص بالكرازة- هل لديه علاقة مع الله؟ إنما السؤال هو كيف ترى طبيعة هذه العلاقة.

هل يعيش طفلك بشعور واعٍ بالاحتياج لله، وما هو محتوى علاقته بالله؟ هل هو مهتم بمعرفة الله ومحبته؟ هل الله هو مصدر قوة وتعزية وعون له؟ هل يصنع اختيارات تعكس معرفة بالله؟ هل يتأثر بطرق الله ووصايا الله؟ هل يتفاعل مع الحقائق الروحية؟ هل هناك دليل على أنه في علاقة مع الله مستقلة عنك كأب أو كأم؟

هل هناك آلهة باطلة يسجد لها طفلك؟ ما هي الأشياء التي بدونها لا يستطيع أن يشعر بالسعادة؟ وما هي الأشياء الأخرى التي تحفزه غير الله؟ كيف يكمل العبارة التالية: «ما أريده حقًا، وأتوق إليه، وأرغب فيه وأقدّره هو...»؟

هل يتحدث عن الله؟ كيف يتحدث عن الله؟ كيف يفكّر في الله؟ هل الله بالنسبة له صغير أم عظيم؟ هل يفكّر في الله كصديق أم ديان أم معين أم سيد متعسف؟ هل يحيا حتى الملء برؤية نفسه في المسيح، أم أنه يحاول أن يعبد ويخدم ذاته؟

هذه ليست أسئلة عن فهم طفلك للحقائق الكتابية. وإنما هي أسئلة عن فهمه لطبيعة نعمة الله وخلاصه من خلال الإيمان في المسيح. ولكي ترعى قلبه، وتقوده إلى الله، لابد أن تدرك أين هو من الناحية الروحية.

علاقة الطفل بذاته

كيف يرى الطفل نفسه؟ إلى أي مدى يفهم ذاته؟ إلى مدى يعى نقاط قوته وضعفه؟ هل يفهم شخصيته؟ هل لديه وعي ذاتي بميول شخصيته؟

ابنة صديقي، جنيفر، شخصية لها قلب رقيق نحو احتياجات الآخرين. وبسبب هذا، تقدر كثيرًا على أن تخبرك بما يشعر به الآخرون. هذه قدرة ممتازة، إذ تجعلها تتحنن لمشاعر الآخرين. ولكن هناك جانب سلبي لهذه المقدرة. من السهل على مثل هؤلاء الأشخاص أن يسمحوا للآخرين أن يتلاعبوا بهم. ومن السهل عليها ألا تخبر الآخرين بما تشعر أو بما تفكر. وفي بعض الأحيان تميل إلى أن تدع شخصًا آخر يكسب المباراة حتى لا يشعر بخيبة الأمل.

لابد أن تفهم هذه الأمور عن نفسها. وإذا كان عليها أن تميز هذه السمات في شخصيتها، فلابد أن يفهم صديقي أولاً هذه السمات حتى يقدر على مساعدتها. معظمنا يتعلم هذه الأمور في وقت متأخر، ولكن غالبًا بعدما نصل إلى البلوغ. من المؤسف بعض البالغين لا يفهمون أبدًا جوانب شخصيتهم التي تحدد ردات أفعالهم.

نحن بمثابة خليط من نقاط الضعف والقوة. هناك أشياء نستطيع القيام بها بسهولة. وهناك أشياء أخرى مؤلمة ومضنية. وفهم هذه الأشياء يمكننا من تعويض نقاط ضعفنا وتطوير نقاط قوتنا. يحتاج أبناؤك أن يقبلوا ويقدّروا أنفسهم كخليط متفرد من نقاط القوة والضعف - وكأشخاص بطبيعة أرادها الله لهم. ساعدهم على تقبّل أنفسهم كأشخاص جيدين بما يكفي لينفذوا ما دعاهم الله لفعله وما دعاهم ليكونوا عليه. باختصار، أنت تريد منهم أن يكونوا راضين عن أنفسهم.

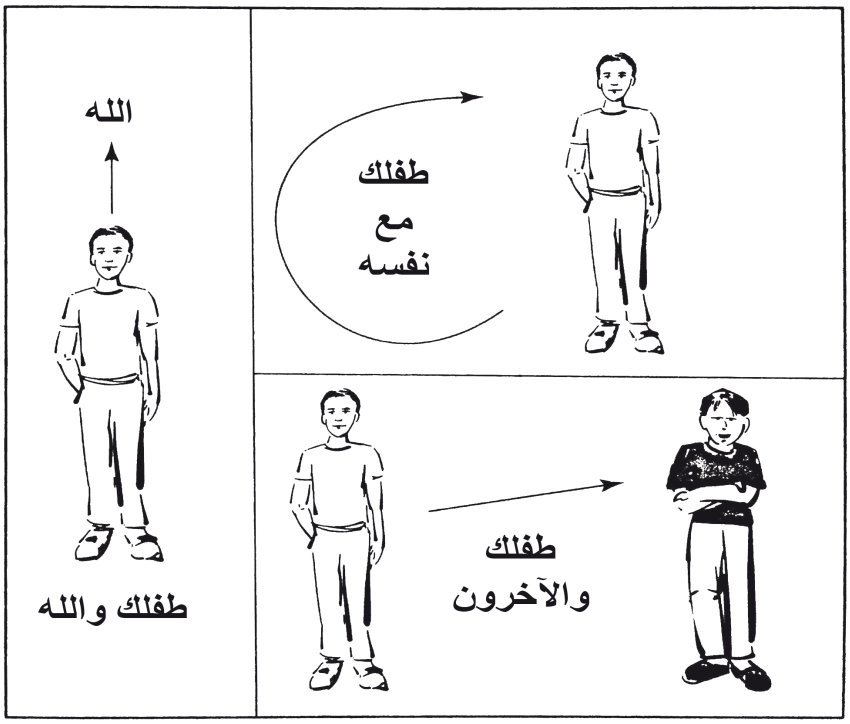

شكل (٩) طفلك من ثلاثة اتجاهات

هناك جانب آخر من معرفة الطفل لذاته. ما هي المواقف التي يظهرها تجاه نفسه؟ هل هو خجول أم واثق من نفسه؟ هل هو مغرور أم مفرط الخجل والحياء؟ هل تقيده المخاوف؟ هل هو قادر على أن يقدّم نفسه للآخرين؟ هل لديه اعتمادية باطلة على الآخرين؟ هل يشعر بأنه أفضل من الآخرين، أم أنه يشعر بعدم الكفاءة مقارنة بالآخرين؟

الطفل Harold في الصف الأول الابتدائي من بين معارفي، وهو مدمن علاقات. وكل شيء يفعله معلّق بنتائج العلاقات. عندما يجلس في مجموعة للقراءة يتفاعل مع المحيطين به أكثر من المحتوى الذي يقرأه. التجمع للراحة يمثل عملية تسابق للتعرف على أحدهم. عمل الواجبات يصبح له معنى بالتنافس مع أحدهم لاختبار مَن سينتهي أولاً. (ولا يهم حتى أن يعرف هل هو في منافسة أم لا). وأفكاره عن العلاقات مع الفتيات بها إيحاءات جنسية ومشحونة بأحمال لا يستطيع حملها طفل في السابعة من العمر.

هناك مدرس ماهر يساعد والدي Harold لكي يفهما ابنهما. يساعدهم على إدراك أن Harold يتعطل باحتياجه للعلاقات بشكل يصل إلى حَد الوثنية. ولابد أن يدرك أن الله وحده هو مَنْ يستطيع أن يروي ظمأ روحه للعلاقات. عشرات الأطفال يظهرون أشكالاً واضحة للاحتياج على مدار حياتهم، ولا يستطيعون أن يفهموها هم أو الأبوان. ويكبرون ليصيروا مستعبدين لاحتياجاتهم التي كانت واضحة في شكل بذور صغيرة في سنوات الطفولة.

سمات ضبط النفس أيضًا لاتـزال جانبًا آخر من علاقة الطفل بذاته. هل يقدر على الالتزام بمهمة بدون مساعدات خارجية؟ هل يقدر على العمل بمفرده؟ هل يعتمد على استحسان الآخرين، أم أنه هادىء ورزين؟

تحتاج أن تفهم نمو طفلك في هذه الجوانب حتى تستطيع أن ترعاه. تحتاج أن تسأل أسئلة صحيحة، لتثير أفكاره عن نفسه حتى تستطيع أن توجهه إلى المسيح بطرق تخاطب عطش روحه.

علاقة الطفل بالآخرين

ما هي علاقات طفلك؟ كيف يتفاعل مع الآخرين؟ ما نوعية العلاقات لدى طفلك؟ ماذا يجد في الآخرين؟ هل علاقاته متجانسة، أم أنه قائد أو منقاد دائمًا؟ هل يتملق ليلفت انتباه الآخرين؟

هل يتعامل بلطف مع الأطفال الآخرين في نفس عمره؟ كيف يتعامل مع خيبة الأمل في الناس؟ كيف يتجاوب عندما يخطئ أحد في حقه؟ ما هي جوانب القوة في علاقاته؟ وما هي نقاط الضعف؟

في المدرسة المسيحية كانت Genny من نوعية الشخصيات التي تتحمل المسؤوليات. إنها مولودة كرئيسة مجلس إدارة. أبلغت الجميع بما يجب ارتداؤه للذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. وخططت أن تضفر شعرها، ويجب على الفتيات الأخريات أن يضفرن شعرهن أيضًا. وحين جاء وقت الاستراحة، اختارت هي أي الألعاب سيلعبون. ثم اختارت الفرق!

فهمت معلّمتها هذه الأمور. كان بإمكانها أن تخبر Genney بألا تلعب دور الرئيس على الآخرين. لكنها عرفت أنه حتى لو حاولت Genny أن تطيع، ففي نهاية الأمر ستظهر نزعتها لتكون رئيسة على السطح من جديد.

لذا اختارات أن تساعد Genny بطريقة أفضل. عملت مع والديّ Genny لتفهّم سلوك الفتاة المتعالي. ومعًا ساعدوا Genny على رؤية نفسها، ورؤية ماذا تفعل بالآخرين، ورؤية كيف تحاول السيطرة على الآخرين، وأنها تجلب المتعة لقلبها من خلال التحكم في الآخرين. تعلّمت الفتاة أن تصلّي وتطلب من الله العون عندما تُغوى بالسيطرة على الآخرين. وأُنقذت من حياة البحث عن التمتع والمعنى من خلال السيطرة على الآخرين. وأُنقذت من حياة تجد التمتع والمعنى من خلال السيطرة على الآخرين.

متابعة منتظمة

يعمل صديقي كمدير لشركة توزيع. ويفهم أن نجاحه لا يعتمد على بضائعه التي يبيعها، وإنما على مهارات مندوبي المبيعات. وبالتالي يقوم بعمل فيديوهات تدريبية، ويحاول أن يساعد موظفيه على التطور. سألته يومًا عن الفترة الزمنية المطلوبة لمراجعة الأداء لكل موظف في شركته. فقال لي إنهم يخضعون لمراجعة الأداء كل أربعة شهور. فسألته عن الفترة الزمنية المطلوبة لمراجعة أدائه هو وزوجته فيما يتعلق بأبنائه. فاحمر وجهه. لم يعملوا مراجعة واحدة. وأعرف أن اعترافه هذا شائع جدًا.

مرة أو مرتان في العام، يجب أن تجلس أنت وشريك حياتك لمراجعة حياة أبناءك. ضع هذا الرسم البسيط (شكل ٩) في أول الصفحة. وتحت كل فئة قم بسرد ما يشغلك. اكتب أيضًا الأشياء التي تسرك. ابتكر استراتيجية للتعامل مع الجوانب التي تشغلك. إذا فعلت ذلك، ستمدان أنفسكما بجوانب كثيرة مثمرة لمساعدة أطفالكما.

في الفصل التالي، سنتطرق إلى طرق محددة لمخاطبة موضوع تنمية الشخصية خلال الفترة المتوسطة المثيرة للطفولة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٦

١- كم عدد الأسئلة التي يمكنك إضافتها تحت كل عنوان من الأداة الثلاثية للتشخيص؟

٢- كم مرة تجلس وتحلل حياة أبناءك من حيث هذه الأمور الثلاثة؟

٣- كيف تصف الاختلاف بين أهداف المرحلة الأولى وأهداف المرحلة الثانية؟

٤- ما هي الأهداف المتعلقة بالشخصية التي تسعى إلى غرسها في أبناءك في مرحلة المدرسة؟

٥- هل شعرت مرةً «لو كنت موجودًا، لكنت سيطرت على طفلي، ولكني لم أكن هناك؟»

٦- هل منعت طفلك يومًا من نشاط ما، لأنك كنت تخشى أنه لن يستطيع التصرف بشكل مقبول؟ ماذا تفعل لتعده ليتصرف حسنًا باستقلالية وبدون وجودك؟

الفصل السابع عشر

الطفولة:
أساليب التربية

إنه صوت سمعه كل أب وكل أم. أطفال يصرخون في وجه بعضهم البعض. هذا المنظر مألوف جدًا أيضًا: طفلان ودمية واحدة. وكل أب وأم لديه طريقة في التعامل مع هذا المشهد. معظمهم يسألون مَن أخذ الدمية أولاً، مختصرين الأمر في فكرة العدالة. البعض سيصرخ في الأطفال لـ «يشاركوا» أو يكونوا «لطفاء». البعض الآخر سيضبطون الساعة. «حسنًا، أنت تأخذها لمدة عشرة دقائق، ثم يأخذها أخوك لمدة عشرة دقائق».

البعض يتغاضون عن صراخهم، مقتنعين أن الأطفال سيقل شجارهم إذا تم تجاهل مشاجراتهم. ولا يزال البعض يعزون أنفسهم بالفكرة البالية بأن كل الأخوة والأخوات يتشاجرون، لذلك فإن هذا الشيء سيتجاوزونه ويكبرون.

معظم الآباء والأمهات يبتعدون عن مشاهد مثل هذه مقتنعين بأنه لابد أن هناك طريقة أفضل. ويتساءلون هل هناك طريقة مرضية للتعامل مع مثل هذه الخلافات بطريقة ما تتعامل مع الاحتياجات الحقيقية لأبنائنا.

ما هي الطريقة الأفضل؟ لا يمكنك ببساطة اللجوء إلى العقاب الجسماني - «هل تريد أن أضربك»، ولا يمكنك ببساطة اللجوء إلى الضغط العاطفي - «لا أحبك عندما تفعل...» أو «أنت تؤذي مشاعري عندما تفعل...». ولا يمكنك اللعب على محبتهم لبعض الأشياء- «هل تريد أن أخذ لعبك ولا أعطيها لك؟». لا شيء من هذه الأساليب يؤدي إلى ثمر دائم؛

لأنها لا تخاطب القلب بطريقة كتابية. قد تخاطب القلب بالفعل، ولكنها أساليب تهدف إلى استخدام أوثان قلب طفلك كمحفز للسلوكيات المقبولة.

وأيًا ما كان يحفز السلوك فهو يدرّب القلب. إذا حفزت باستخدام التخجيل، فأنت تعلّم أبناءك الاستجابة للتخجيل. وإذا حفزت باستخدام الوعود بأشياء مادية، فأنت تدربهم على التجاوب للمحفزات المادية. كثير منا ككبار نستطيع أن نرى ضعفات شخصياتنا في ذواتنا مرتبطة بتحفيزات كانت تقدّم لنا ونحن أطفال.

مخاطبة القلب

الميل يكون بالتركيز على السلوك. السلوك ملحوظ (أو ربما مسموع)، ويبدو أكثر سهولة في التعامل معه. تذكّر معي المبدأ الذي شاهدناه في الفصل الأول. **القلب يحدد السلوك**. السلوك هو تجسيد لما يجري في الداخل. ما يقوله الشخص أو يفعله يعكس ما بداخل القلب. «**مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ**» (لوقا ٦: ٤٥).

وتظهر هنا أهمية مبادئ التواصل التي ناقشناها في الفصول من الثامن إلى العاشر. السلوك له «متى» و «ماذا» و «لماذا». «**متى**» تصف الظروف التي حدث فيها السلوك. و«**ماذا**» تصف الأشياء التي قيلت أو فُعلت. و«**لماذا**» تصف الأمور الداخلية الخاصة بالقلب التي دفعت أو منعت سلوكًا معينًا. لابد أن تستكشف مع أطفالك ليس فقط «متى» أو «ماذا» المتعلقة بسلوكهم، ولكن «لماذا» أيضًا. لابد أن تساعدهم على النظر إلى «ماذا» (المحتوى) من منظور «لماذا» (الأسباب). مهمتك أن تساعدهم فهم الجانب الخاص بـ «فضلة القلب» من سلوكهم.

كانت Carrie تشكو وتتذمر ذات مساء. وكان من الصعب تحديد سبب المشكلة. كان الأسهل لوالديها أن يتعاملا مع السلوك- «توقفي عن التذمر!». أو «لا أريد سماع كلمة واحدة أخرى منك!» وربما كان بإمكانهم أن يلجأوا إلى الطريقة المختبرة لإسكات طفلتهما بتخجيلها - «يجب أن تخجلي من نفسك بسبب تذمرك بينما لديك بركات كثيرة.»

ولكنهما بدآا بالذهاب أبعد من السلوك، واختراق قشرة الأعذار والأسباب التي تفسر ظاهريًا سبب هذا النكد. وفي النهاية وصلا إلى الأمر المتعلق بـ «فضلة القلب».

كانت Carrie غاضبة لأن الأمـور لا تسير كيفما تريد. من الداخل، كانت تريد أن تتصرف كآلهة. أرادت أن تتخذ هي القرارات الهامة. أرادات أن تُنفذ مشيئتها على الأرض كما ينفّذ الله مشيئته في السماء. وكانت قد قررت كيف يجب أن تسير الأمور، ولم تسر كيفما أرادت. إن «فضلة القلب» هنا أن تكون غير راضية عن عمل الله في تدبيره للعالم. لم تكن واعية بكل هذا، ولكن كان هذا جذر المشكلة.

إذا لم تبعد السلوك بهذه الطريقة، سينتهي بك الأمر دائمًا بالتعامل مع الأمور الخارجية. وستكون مثل الرجل الذي يحاول أن يحل مشكلة الحشائش الضارة في مساحته الخضراء عن طريق قص العشب الأخضر، لتعود الحشائش الضارة في النمو مرة أخرى.

الاحتكام إلى الضمير

يحتاج أبناؤك إلى تغيير القلب. وتغيير القلب يبدأ بالتبكيت على الخطية. وتبكيت الخطية يحدث عن طريق الضمير. يحتاج أبناؤك ليتبكتوا لأنهم ارتدوا عن الله وأنهم نقضوا العهد. ولابد أن يشعروا بالتبكيت على أن الإنسان الباطن، الذي ينتمي إلى الله، يعبد الأوثان، ويقف مذنبًا أمام الله. ولكي تساعدهم لابد أن تلجأ إلى الضمير.

وكما ذكرنا في الفصل الثاني عشر، لدينا نمط معين للاحتكام إلى الضمير في خدمة المسيح. كان دائمًا يخاطب الضمير، ويدفع الناس إلى الحكم على أنفسهم ودوافعهم. إن التعامل مع الأمور التي لها علاقة بالشخصية تتطلب تعلُّم كيف نحتكم إلى الضمير. إذا رغبت في التعامل مع الشخصية وليس السلوك فقط، لابد أن تتعامل مع الطفل بطريقة عميقة تمكنه من رؤية تبعات سلوكه وإدانة نفسه.

في لوقا ١٠، جاء أحد الناموسيين (أي خبير في الأسفار المقدّسة) إلى المسيح، واختبره سائلاً «**يا معلم، ماذا أفعل لأرث الحياة الأبدية؟**» فسأله يسوع كيف تفهم الناموس. فأجاب بالوصيتين العظمتين: تحب الله، وتحب قريبك. أخبره يسوع بأنه أصاب في إجابته، وشجعه على إطاعة وصايا الله. ثم سعى الناموسي إلى تبرير نفسه، وسأل «**مَنْ هو قريبي؟**» كان التحدي أمام المسيح أن يساعد هذا الرجل على إدراك أنه بمجرد أن يدرك احتياجًا، فإنه ملزم بتسديد هذا الاحتياج.

وإذا أخفق في ذلك، فإنه يكون قد كسر الناموس. علّمه يسوع هذا من خلال قصة السامري الصالح. أنهت القصة على مقاومة الرجل، ومكنته من فهم كيف كان يخفق في السابق. احتكم يسوع إلى ضميره في نهاية القصة عندما سأله عمن هو قريب هذا المسافر المسكين. انتقل الناموسي من السؤال عمَن كان قريبه، إلى تقييم صحيح لمن كان يتصرف كقريب.

يقدّم رد المسيح على بطرس في متى ١٨ مثالاً توضيحيًا آخر على استخدام المسيح لأسلوب الاحتكام إلى الضمير. سأل بطرس عن الحدود الخارجية للغفران. «**يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟**» (متى ١٨: ٢١). كان بإمكان يسوع أن يقول ببساطة «يا بطرس عندما تسأل هذا السؤال، فإنت لم تفهم شيئًا عن الغفران». ولكن يسوع أخبره بقصة وضحت بقوة ماذا سيحدث عندما يُغفر لك.

في لوقا ٧، جاءت امرأة كانت تحيا حياة خاطئة ودهنت يسوع بالزيت، ومسحت قدميه بدموعها. فأدان سمعان، وهو أحد الفريسيين يسوع مدعيًّا أنه يفتقر إلى التمييز. اشمئز سمعان من المرأة الخاطئة. فأخبره يسوع، لأنه علم أفكاره، بقصة جعلته يحتكم إلى ضميره. وفي القصة كان هناك رجلان ومُقرض واحد. أحد الرجلين كان مدينًا بمبلغ هائل، والآخر كان مدينًا بمبلغ قليل. فسامح المقرض الرجلين. ثم سأل يسوع «أيهما يحبه (المقرض) أكثر؟»

أجاب سمعان «أظن أن الذي لغى له الدَّين الأكبر»

فقال له يسوع : «لقد أصبت في حكمك».

استخدم يسوع القصة ليبكت سمعان على بره الذاتي. كان الاحتكام إلى ضمير سمعان. وأدان سمعان نفسه بكلماته هو. كان الهدف من قصة يسوع أن هذه المرأة أحبته أكثر من سمعان البار في عينيّ نفسه.

لابد أن تطبق نفس المنهجية على احتياجات طفلك. لابد أن تصل إلى جذر المشكلة من خلال مخاطبة الضمير. تشير رومية ٢: ١٤-١٥ أن الضمير هو حليفك في تعليم

أبناءك فهم الخطية. إن الضمير بداخل الإنسان دائمًا ما يكون محتجًا (مدافعًا) أو متشكيًا (متهمًا). فإذا احتكمت للضمير، ستتجنب جعل التقويم عملية منافسة بينك وبين طفلك. والخصومة تكون دائمًا بين طفلك والله.

التعامل مع الأطفال بهذه الطريقة يجنبك تقديم قواعد يمكن تنفيذها، ومن ثَم يشعر الأطفال بالبر الذاتي والاعتداد بالذات. هذا يجعلهم وجهًا لوجه مع وصايا الله واحتياجهم الشديد لعمل المسيح المغيِّر والمجدد.

وعندما يبدأ طفلك في إدراك خطيته وشره (بفضل عمل الروح القدس، وممارسة الوسائل التي أعدها الله لرعاية الأبناء)، فلابد أن تقوده إلى المسيح، المخلّص الوحيد للجنس البشري.

جاهد أن تساعد طفلك، الخاطئ الأناني، على إدراك احتياجه لنعمة المسيح ورحمته في الصليب. التعامل مع ضجيج طفلك ليأخذ الدمية أولاً (خاصة إذا كنا مستعدين لأن نلخص الأمر في «مَن أخذها أولاً؟») بدون مخاطبة أنانية القلب التي هي المنبع لهذا السلوك، فإنك لن تقوده إلى الصليب أبدًا.

أمّا التعامل مع الأمور الحقيقية المتعلقة بالقلب فيفتح الطريق باستمرار إلى الصليب حيث يوجد الغفران للأولاد والبنات الخطاة والمعوجين والمنحرفين. الاستجابات المسيحية الحقيقية لا يمكن تحفيزها بطريقة ناموسية حرفية؛ لأنها تتعلق باتجاه القلب، وليس فقط بالسلوك الخارجي.

تنمية الشخصية

من الهام أن نخاطب القلب ونحتكم إلى الضمير بينما ننشغل بتنمية الشخصية خلال السنوات المتوسطة لحياة الطفل. الشخصية يمكن تعريفها على أنها **العيش بطريقة تنطبق مع مَن هو الله ومَن أنا**.

تدريب الشخصية

دعنا نأخذ سمة شخصية مثل كسب ثقة الآخرين. كيف يتفق التدريب على أن يكون الطفل جديرًا بالثقة ويمكن الاعتماد عليه مع هذا التعريف.

مَن هو الله	مَن أنا
لقد خلقني الله. وأوجدني هنا في هذا التوقيت. إنه السلطة النهائية. لابد أنني سأقف أمامه يومًا ما. ولابد أن أُحاسب أمامه. لقد وعد بأن يقترب من المتواضعين والتائبين في قلوبهم. وسيساعدني على اختبار قوته ومعونته. أستطيع التعرف عليه وأختبر القدرة على إطاعته. لقد وعد بمباركة الذين يعتمدون عليهم.	أنا مخلوق. لقد خلقني الله له. ووضعني هنا في هذا التوقيت، وأعطاني هذه الفرص. لابد أن أكرمه. أنا مخلوق لأمجّده. وكما اقتربت منه وطلبت وجهه، فإنه سيقويني لأطيعه. أستطيع اختبار معونته وقوته. لقد وعد الله أن يعطي نعمته لكل من يدعونه.

هذه المعلومات الواردة في هذين العمودين السابقين يشكلان أساسًا للتواصل مع طفلك بينما تساعده على أن يتعلّم كيف يمكنه الاعتماد علي الله. يجب أن تتمسك بطبيعة الله كأساس لعمل الخيارات المتعلقة بما يجب أن يفعل أو يتصرف، ودعوته كمخلوق يجب أن يُعتمد عليه. ولا يقول الله هذا الأمر ببساطة كقاعدة سلوكية، ولكنه أرسل ابنه ليغيّر الناس من الداخل أولاً ثم الخارج، حتى يكونوا حسب دعوة الله لهم. إن الله سيقاتل بجوار أولاده وبالنيابة عنهم. قدّم نصائحك وتشجيعاتك بطريقة تتفق مع طبيعة طفلك وتتفق مع طبيعة الله.

لا يمكنك أن تخبر طفلك باستقامة قلب أنه إذا اجتهد بقدر كافٍ، أو إذا كان جيدًا بدرجة كافية، أو إذا أراد فعلاً، فإنه يستطيع أن يكون حسب ما دعاه الله أن يكون. إنه لا يستطيع. الأمر ليس من طبيعته هو بعيدًا عن نعمة الله ومساندته. ولا يمكنك الوقوع في الخطأ الشائع. كثيرون يستنتجون بأنه إذا لم يكن طفلهم مؤمنًا، لا يستطيعون حثه على عمل واجبه في ضوء طبيعة الله.

إذا لم تدعه ليصير حسب دعوة الله له، سينتهي بك الأمر بإعطائهم معيارًا للأداء داخل حدود قدراته الطبيعية بمعزل عن النعمة. إنه معيار لا يتطلب معرفة الله والثقة به. بكلمات أخرى، إمّا أن تدعو أطفالك ليكونوا ما لا يستطيعونه بمعزل عن النعمة، أو تخفض المعيار وتعطيهم ما يستطيعون تنفيذه. وإذا فعلت ذلك، فأنت تقلل من احتياجهم لله بالتبعية.

لابد أن تكون مستعدًا لأن تحاسب طفلك ليقوم بهذه المهام التي أعطيت له. إن تعليمه أن يكون جديرًا بثقة الآخرين هي عملية مستمرة، وليست حدثًا يحدث مرة واحدة. وتُكتسب من خلال أيام من الصبر والتكرار المستمر لأمور ذكرناها سابقًا. وربما تأتي أوقات يتم التأكيد فيها على عملية التعليم باستخدام الضرب. ولكن لابد أن تستودع نفسك للتعليم بصبر.

ذكرت سابقًا أن أحد أبنائي اختبر فترة من تربية الخنازير. كان خزان المياه الذي يخزن فيه المياه خلال الشتاء على بعد بضعة مئات الأقدام من البناية التي وضع فيها الخنازير. تحتاج الخنازير لكمية كبيرة من الماء. وكان لابد أن تُحمل المياه وألا تتجمد في الخرطوم. وكان حمل المياه مهمة كبيرة كل يوم. وكانت تحتاج لساعة من طفل يبلغ من العمر الحادية عشر. وكان أحيانًا يتعثر ويسكب الكثير مهما يحمله. نحن شجعناه بأن هذه الوظيفة في حدود قدراته، وأن واجبه أن يعتني بحيواناته جيدًا، وأن الله سيساعده على القيام بهذه المهمة حتى وإن كانت مُجهدة.

وخلال السنوات الماضية، جرت محادثتان عن هذه الفترة من حياة ابني. إحداهم كانت مع أحد الجيران الذي كان يشاهده وهو يصارع مع حمله هذا وكان يريد مساعدته. هذا الرجل ظن وقتها أنني أثقلت على ابني بأكثر مما يستطيع. كان الحوار الثاني مع ابني، الذي كرر كثيرًا أن تلك الأيام كانت ذات قيمة عالية بالنسبة له. كانت مثل أيام طفولة داود الصعبة مع الدُّب والأسد. وقد أعدته ليحارب مع جليات بقوة الرب.

بينما كان لا يزال داود طفلاً (انظر صموئيل الأول ١٧: ٣٣) قال: «**الرَّبُّ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ يَدِ الأَسَدِ وَمِنْ يَدِ الدُّبِّ هُوَ يُنْقِذُنِي مِنْ يَدِ هذَا الْفِلِسْطِينِيِّ**» (صموئيل

الأول ١٧: ٣٧). لماذا نستطيع أن نرى داود وقد تعلّم أن يثق بالله في الأيام الصعبة في طفولته كصبي مع الأسد والدب، ومع ذلك نظن أن أطفالنا غير قادرين على تعلُّم هذه الدروس الإيمانية أيضًا؟ الأسوأ من هذا، ونحن نقدّم حياة أمام أبنائنا لا تتطلب حتى الإيمان. نحن نقدّم معيارًا يمكن الوصول إليه يجعلهم يعتمدون على إمكانياتهم وقدراتهم ومواهبهم الفطرية باعدين إياهم عن المسيح والصليب إلى أنفسهم وإمكانياتهم.

دعنا نتأمل سمه شخصية أخرى. كل الآباء والأمهات المسيحيين مهتمون بالنقاوة الأخلاقية. تذكّر أن الشخصية هي العيش وفقًا لطبيعة الله وطبيعتي.

مَن هو الله	مَن أنا
الله خلقني. وأنا ملك له. لقد خلق الحدود للعلاقات. ووعد ببركة عظيمة وحماية لمن يكرمونه في علاقاتهم، وحذّر من عبودية ودمار لمن لا يكرم مقاصده الإلهية. فالعلاقة التي أتمتع بها للحياة تمثل صورة لعلاقته مع الكنيسة. إن الله يعطي ما يأمر به. لذلك يمكن أن يُعرف بطريقة تعطي ضبطًا للنفس.	أنا مخلوق. أنا مخلوق بيد إله كلّي الحكمة وخلقني له. لديّ احتياجات لا يمكن إشباعها إلا في السياق الذي عيّنه الله. أنا مدعو لأسلوب حياة يتميز بالأمانة. أنا مسؤول أمام الله عن جودة العلاقات التي أصنعها. وبينما أكرم الله أجد اكتمالاً فيه، ثم اكتمال في الشخص الذي حدده الله لي. وإذا أهنت الله أو سمحت لنفسي بما حرّمه، سأعاني خسارة لا تعوّض من الكرامة وخزيًا وهوانًا.

أنا مقتنع أنه بمقدورنا أن نربي أبناءً ليكونوا أنقياء أخلاقيًا حتى في ثقافة أساءت إلى الجنس بكل طريقة ممكنة.

عندما تقرأ سفر الأمثال يوميًا فهذا يمنحك جوًا طبيعيًا جدًا للنقاش حول الطهارة الأخلاقية. في أمثال ٥ هناك مناقشة مطولة عن النجاسة وآثارها، وكذلك عن فوائد الملذات الجنسية عندما تمارس بطهارة. ويحذر النص بقوة من خطر السقوط في فخ الخطية وحبائلها. القراءة المتكررة لسفر الأمثال يوفر عشرات الفرص للتفكير في مخاطر الخطية الجنسية ومباهج الحرية الجنسية داخل الزواج.

يصف أمثال ٧ المرأة الزانية، ويصور الإغواء ونتائجه. هذه النصوص توفر سياقًا للنقاش الصريح في الجانب الجنسي من الإنسان. هذه النصوص مكتظة بالتحذيرات

والتمييز والتوجيه.

شاهدت أبناءً فهموا هذه الأمور يدخلون مرحلة المراهقة وهم متسلحون بالحذر والاحتراس. وكانوا مقتنعين بأن الله منحهم الملذات الجنسية وأعطاهم السياق الذي تختبر فيه هذه الملذات.

من الهام أن يتعرّف أبناءك على حقيقة أن هناك جانبًا جنسيًا في العلاقة بين بابا وماما. بعض المسيحين لديهم فكرة مغلوطة بأن الأبناء لا ينبغي أبدًا أن يشاهدوا بابا وماما يحتضان بعضهما بعضًا في جو من الحميمية. والنتيجة تكون أن التعبيرات الوحيدة عن الجنس التي يرونها هي علاقات الخيانة على التليفزيون في أحياة أشخاص أشرار. لا أتحدث هنا عن رؤية الأطفال لما يحدث في حجرة النوم، ولكني أتحدث عن أهمية أن يعرفوا أن هناك جانبًا جنسيًا في العلاقة بين بابا وماما.

علاوة على هذا الدور التثقيفي، لابد أن تكون مستعدًا لمعالجة المفاهيم المغلوطة عن الجنس التي ترى آثارها في حياة أبناءك. على سبيل المثال، تتعلّم الكثير من الفتيات الصغار أن يمشين ويجلسن بطريقة غير لائقة. بطريقة أو بأخرى يعتقد الكبار أن البنت عندما تكون كامرأة مغرية صغيرة فهذا شيء جميل، ويأكدون على هذا السلوك. على النقيض، هناك فرصة ذهبية لنعلّم الفتاة الصغيرة كيف تتصرف بشكل محتشم وأسباب ذلك.

الأوقات التي يشترك فيها الصغار في مغازلات جنسية هي فرص رائعة لمساعدتهم على اكتساب مفاهيم كتابية عن الجنس. هذه أوقات جيدة لتتحدث عن الأشياء العجيبة التي يدخرها الله لشعبه، الذين بمقدورهم أن يتمتعوا بالحياة حتى الملء وبالتمتع بالجانب الجنسي. وهو وقت رائع أيضًا للتحدث عن الدمار الرهيب الذي يمكن أن يُجلب على الشخص الذي يُقبل على التجارب الجنسية خارج السياق الذي عيّنه الله.

وبينما يبدأ الأبناء في الإيمان بهذه الحقائق، فإنهم يكتسبون رادعًا داخليًا ضد الخطية الجنسية. ويدركون أن الاستغلال الجنسي ليس كالشيء الحقيقي، لكنه شيء مزيف للمتعة الجنسية التي وهبها الله.

بالرغم أننا قمنا بتحليل جانبين من تنمية الشخصية، فإن الأساليب التي شرحناها يمكن أن تتفق مع أي جانب من نمو الشخصية.

ترجمة السلوك في ضوء الشخصية

لدينا مشكلتان في التفكير بوضوح عن الشخصية. أحدهما الإخفاق في رؤية الأمور التي ذكرناها سابقًا. هذا الإخفاق ينتج عن عدم النضال من أجل أهداف طويلة المدى لتنمية الشخصية. المآزق الأخر هو العجز عن العمل على السلوك وصولاً إلى الأمور المتعلقة بالشخصية. هذا يؤدي إلى رؤية جوانب منعزلة من السلوك. والنتيجة مرة أخرى هي إخفاق في تحقيق أهداف طويلة المدى في بناء الشخصية.

يميل الآباء والأمهات إلى رؤية سلوك أبنائهم من منظور ساذج جدًا. نحن نرى الشجار على الدمية على أنه شجار بسيط على دمية، بينما هو في الواقع إخفاق في تفضيل الآخر عن أنفسنا. إنها أنانية. هذا السلوك يقول للآخرين «لا أهتم برغباتك، أريد أن آخذ ما أريده». إنه تصميم على العيش في عالم بطريقة تستغل كل فرصة لخدمة الفرد لذاته.

لا أقول أن يُقدَّم هذا التحليل لأبناءك في شكل خطبة لاذعة، ولكن أن تفهم هذا جيدًا بينما تسعى لرعاية أبناءك ومساعدتهم على فهم أنفسهم واحتياجاتهم.

هل تميل إلى رؤية جشع أبناءك في «التملك» كنوع من عبادة الأشياء كأصنام؟ أم تظن أن هذا أمر طبيعي- شيء سيتجاوز قريبًا؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنت تخفق في مساعدة أبناءك على استيعاب الحقيقة الروحية. ولن تواجه أبدًا الميل الشرير للبحث عن المعنى والقيمة في الأشياء. إن الحياة لا تتكون من وفرة المقتنيات.

كان Suzie تقيم عيد ميلادها. ولأنها كانت منتظرة كل الأموال التي ستحصل عليها من الخالات والعمات والأعمام والأخوال، فقد بدأت في التخطيط لما ستقوم بشرائه بعد ذلك. وكانت تشعر بالسعادة بسبب انتظار أشيائها الجديدة. وكانت تحدد مَنْ ستريهم الأشياء الجديدة، وكانت تتخيّل ماذا ستقول لهم.

كان والدا Suzie مهتمين بأن تتعلّم ابنتهما أن تكون شاكرة على سخاء الله. وبحكمة ورفق بدآا في مواجهة هذا الأمر. وبدآا بالتحدث عن مقدار استمتاعها بالأشياء الجديدة التي تنتظرها. ثم بدآا في الرجوع إلى كل شيء من هذه الأشياء والمتعة المؤقتة التي تجلبها. استطاعت Suzie أن تتذكر أوقاتًا حين حصلت على أشياء جديدة وبدا أنها تجلب متعة لها. ومعًا لاحظوا أنه بمقدورنا أن نكون شاكرين على الأشياء الجديدة، ومع ذلك فإن هذه الأشياء سرعان ما تفقد بريقها. وصنعوا قائمة بكل الأشياء التي سعدت بها Suzie لامتلاكها في يوم من الأيام. وسرعان ما صنعوا قائمة طويلة وكان الوقت ملائمًا لأن يتوقفوا ويصلّوا شاكرين الله على كل عطاياه. وبرفق كانا يرعيان قلب ابنتهما بعيدًا عن الكبرياء في المقتنيات إلى نظرة كتابية وواقعية أكثر عن البركات الإلهية.

رؤية طويلة الأمد

لابد أن تكون شخصًا صاحب رؤية طويلة المدى. لابد أن ترى احتياجات أبناءك لرعايتهم ليس فقط في الوقت الحاضر، ولكن في ضوء رؤية على المدى البعيد.

ربما يكون السلوك شيئًا شائعًا مثل الشخص المعاند باكرًا في الصباح. لابد أن تفكر في هذا السلوك المعاند والنكد ليس كحدث منعزل في صباح أحد الأيام، ولكن في ضوء تأثير يدوم مدى الحياة. عندما أتحدث مع الناس بهذه الطريقة، عادة ما أسمع تعليقًا مثل «أنا أيضًا لم أكن شخصًا يكون رائقًا في الصباح». ربما هذا يكون صحيحًا . لكن السؤال هو.. هل كانت هذه العادة التي تتعلق بالطبع بركة أم لعنة عليك؟

عندما تهتم بالشخصية فهذا ينقلك من التعامل مع أبناءك في عمر المدرسة ليس على أنهم في سن المشي. أنا أسمع أناسًا يردون على أبناء في عمر المدرسة كما لو كانوا صغارًا في الثالثة من العمر. إنهم يصدرون الأوامر فجأة. وأبناؤهم يسمعون نفس الأوامر القديمة، ولا ينمون في الفهم والتمييز. ويكونون غير مجهزين للمرحلة التالية من النمو - مراحل المراهقة.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٧

١- هل تتذكر مواقف أظهرت شيئًا يتعلق بالشخصية يمثل خطرًا على نمو طفلك، وشعرت بأنك لا تعرف ماذا تفعل بالضبط؟

اعمل خطة للتعامل مع هذه المواقف. اسعَ إلى تحديد الأمور طويلة الأمد وكيفية معالجتها في ضوء ما شرحناه في هذا الفصل.

٢- هل يمكن أن تحدد مواقف كنت تميل فيها إلى إعطاء طفلك معيارًا سلوكيًا يمكن تنفيذه لأنن هذا كان سيجعل الأمور أكثر يسيرًا؟

٣- هل كنت مستعدًا في وقت من الأوقات لقبول سلوك ما كنت تريده بالرغم أنك تعرف أن الطفل لم يكن يتصرف من قلبه؟

٤- كيف يمكنك أن تصف الفرق بين «متى»، و «ماذا»، و«لماذا» فيما يتعلق بالسلوك؟

٥- أيهم أكثر أهمية؟

٦- هل يمكنك أن تعطي أمثلة عن فكرة الاحتكام للضمير؟

٧- إذا أردت أن تكتب خمسة أهداف تتعلق بتنمية شخصية ابنك أو ابنتك، ما هي هذه الأهداف؟

الفصل الثامن عشر

المراهقون: أهداف التربية

«آلو، بابا؟»

أدركتُ بالطبع الصوت على الناحية الأخرى. كان ابني الذي وقف في مكتبي باكرًا ليقترض مني السيارة ليذهب إلى المتجر.

سألته: «أهلاً، ما الأمر؟» محاولاً أن أبدو طبيعيًا وواثقًا أمامه. كان جوابه بتوتر: «لقد أغلقت السيارة والمفاتيح بداخلها». هنا قاطعته: «حسنًا. لديّ نسخة أخرى في حافظتي. سآتيك و....».

«بابا.. بابا، قبل أن أغلق على المفاتيح في السيارة، عملت حادثة. حادثة صغيرة. ليست كبيرة جدًا. لا أعتقد أنه خطأي.. وأنا بخير يا بابا.»

هناك شيء يجب أن تعلمه عن المراهقين الذين يقودون السيارات أن الحوادث دائمًا ما تكون «حوادث بسيطة»، وليس خطأهم على الإطلاق!

كثيرون يعيشون في خوف من الأيام التي سيكبر فيها أبناؤهم ويصيرون مراهقين. ليس الأمر حوادث فقط ـ لقد تعلّمنا الآن أن السيارات يمكن الاستغناء عنها. يعيش الآباء والأمهات في خوف من مرحلة المراهقة بسبب خوفهم من الاغتراب الذي تجلبه إليهم هذه السنوات. إنهم يخافون من هذا النوع من العلاقات التي يشاهدونها بين مراهقين آخرين ووالديهم. لقد سمعنا كلنا المثل البسيط الذي يقول «**تكبر العيال وتكتر مشاكلهم**».

علامات الأزمنة

علامات هذه الفترة من الحياة هي بداية البلوغ وبداية ترك الطفل للبيت ليؤسس بيتًا لنفسه.

إن سنوات المراهقة هي سنوات من الخوف الشديد. الشاب ليس طفلاً وليس بالغًا أيضًا. إنه غير متأكد كيف يتصرف. إذا تصرف كطفل، فإنه يُنتهر ليتصرف «وفق سنه». وإذا تصرف مثل شخص بالغ، يقال له إنه ينتفخ ويبالغ في «شعوره بالأهمية». أحيانًا يبدو العالم كله مثيرًا وجذابًا. ويجب المراهق أن يكون مراهقًا. وفي أحيان أخرى، يبدو العالم مرعبًا وقاسيًا وشؤمًا- ويتمنى لو أنه لو لم يواجه هذا العالم يومًا.

أحد أبنائنا كان يحب أن يكون في عمر السابعة عشر. بالنسبة له كان السابعة العشرة هو العمر المثالي. في عمر السابعة عشرة لا تكون حديث العهد بقيادة السيارات (الآن اختبرت بعض الحوادث)، ولكنك لا تكون بالغًا من الناحية القانونية أيضًا. كانت ابنتنا، التي تواجه الجامعة وكل القرارات التي بدت جادة جدًا، تحتضن بابا وماما وتقول لم ترغب أبدًا يومًا في ترك المنزل. كانت تريد أن تظل صبية- كبيرة بما يكفي لتفعل الأشياء، وصغيرة بما يكفي لتتمتع بالملاذ والحماية في البيت.

يشعر المراهقون بأنهم عرضة لكل شيء. إنهم يقلقون بشأن مظهرهم. هل يرتدون الملابس المناسبة؟ هل يرتدونها بطريقة صحيحة؟ كيف سيرى أصدقاؤهم القميص والفستان والقصة الجديدة للشعر؟ ماذا لو ذهب إلى مكان ما ووجد الجميع يرتدون شكلاً مختلفًا؟

إنهم يشعرون بالقلق بشأن فهمهم للحياة. هل سيعرفون القول أو التصرف الصائب في المطعم؟ ويقلقون بشأن هل رصيدهم من المعرفة كبير بما يكفي ليجتازوا المواقف التي يتوقون لاختيارها.

إنهم غير مستقرين في عالم الأفكار. لقد جعلنا مائدة العشاء مكانًا للنقاش في السياسة والأحداث الجارية والأفكار الشائعة على ألسنة الناس. لا أحد يملك قدرة المراهق على الجدال في كل جوانب الفكرة الواحدة في نفس الحوار. ما السبب في ذلك؟ إنه

لأول مرة يحاول أن يشكل هُوية مستقرة له في عالم الفكر. إنه يعرف بما يكفي ليشترك في حوار، ولكن أفكاره لم تنضج بعد.

يشعر المراهقون بعدم الثقة تجاه أجسامهم ومظهرهم. يقضي المراهقون نصف حياتهم أمام المِرآة. ويقلقون بشأن هل يسير نضوجهم بانتظام وفقًا للجدول الزمني أم لا.

ويشعر المراهقون بالتوجس تجاه طباعهم. ويتساءلون هل يتحلون بما يكفي من الجدية والهزل والإبداع والتحرر من الهموم. قد يستنكر على مائدة الإفطار أنه قرر أن يغيّر طباعه. وفي بعض الأحيان يغيّر طباعه أكثر مما يغير ملابسه. لا يعرف بعد أن الطباع عنيدة، وما يظهره بالفعل هو عدم التأكد من هُويته.

وبالرغم أن هذه فترة من عدم الاستقرار والقلق والضعف، فمن المفارقة أنها فترة يسعى فيها الأبناء لبناء شخصيتهم المستقلة- إذ يريد المراهق أن يكون نفسه. وبالرغم أنه يحتاج إلى التوجيه أكثر من أي وقت آخر، فإنه يقاوم المحاولات المباشرة لوضع سياج حولهم.

التمرّد

كثيرًا ما تكون سنوات المراهقة فترة من التمرد. بعض هذا التمرد هو ببساطة محاولة غير هادفة للتأكيد على الفردانية. ولكن كثيرًا ما يكون لتمرد المراهق جذور أعمق. بالنسبة لبعض الأطفال يكون تعبيرًا عن تمرد كامن لفترة طويلة.

في بعض الأحيان يخفق الأبوان في فهم هذا الشيء. لقد تحدثت مع عشرات منهم ممَن كانوا ينسبون التمرد إلى انتقال العائلة إلى مكان آخر، أو أن الأطفال تعرفوا على أصدقاء جُدد سيئين، أو أنهم بدأوا الاستماع إلى أشكال معينة من الموسيقى. وبينما أعترف بأن انتقال العائلة إلى مكان آخر يمكن أن يسبب ألمًا نفسيًا، وأن الأصدقاء يمكن أن يكون لهم تأثير سيئ، وأن بعض الموسيقى تعبر عن التمرد، لكن المشكلة أعمق من هذا بكثير.

أتذكر أبًا كان يؤدب ابنه الذي يدرس في الصف الرابع الابتدائي. كان الصبي يُوبخ (أمام الآخرين) ويُجبر على إطاعة والده. وبالرغم أنه أطاع، لكن تجهُّم وجهه

أظهر غضبه وعدوانيته الشديدة تجاه والده. ما الشيء الذي منعه من التمرد الصريح في هذا الوقت؟ ببساطة هو: أنه كان صغيرًا جدًا، ولا يزال يخاف من والده لدرجة لا تجعله يتجرأ على التعبير عن الغضب الذي شعر به. هذا ظهر فقط في تكشيرة وجهه.

بعد عدة سنوات، تمرد الصبي. بالفعل تعرف على رفقة من أصدقاء السوء. لم يكن يستمع إلى موسيقى مناهضة للمجتمع. ولكن بذور التمرد لم يذرعها الأصدقاء المتمردون. وأفكاره العنيدة لم تبدأ بسبب الكلمات المناهضة للمجتمع لموسيقى البوب. لكن تمرد قلبه كان تعبيرًا عن أوقات كثيرة عانى فيها من الإهانة بسبب توبيخه أمام الآخرين.

أندهش دائمًا بسبب كيف يجد المراهقون المتمردون بعضهم البعض بهذه السرعة المذهلة. إن المراهق المتمرد الذي يدخل المدرسة حديثًا سيجد رفقاءه المتمردين قبل الفسحة الأولى. ما السبب في ذلك؟ يصاحب المراهق رفقة متمردة لأنه متمرد مثلهم. إنه لا يصبح متمردًا بسبب الرفقة التي يمشي معهم.

أنا مقتنع بأن الأطفال المتمردين قد يجرأون بعضهم البعض، لكن نادرًا ما يصبح المراهق المستعد للخضوع في قلبه متمردًا بفضل تأثير سيء لشخص آخر.

بينما يكون الطفل صغيرًا، قد يتصرف بتمرد في بعض الأحيان. وقد يعبّر عن التحدي من حين لآخر. وطالما كان صغيرًا جدًا ومعتمدًا بالكامل على بابا وماما، لا يمكنه التمرد بشكل صريح؛ فهو لا يزال يحتاج إلى بابا وماما. ولا يزال الأبوان لديهم الكثير من السلطة. ومع ذلك بمجرد أن يتخيل الصبي أنه يعيش لحاله بدون والديه، يبدأ في التعبير عن تمرده. كثيرًا ما يبدو الأبوان مأخوذين بالدهشة، بينما كان التمرد خاملاً لسنوات طويلة.

ثلاثة أساسيات للحياة

ما هي أهدافنا التربوية لهذه المرحلة؟ ما الذي ترجو تحقيقه؟ ما هي أحجار الأساس التي يمكنك أن تضعها لتكون أكثر صلابة من أفكارك الشخصية؟ ما هي الأهداف التي يمكن تذكرها بسهولة، ومع ذلك تكون أهدافًا شاملة توفر توجيهًا له تطبيقات واسعة؟

يوفر لك سفر الأمثال ١: ٧-١٩ مثل هذا التوجيه. هناك ثلاثة أساسيات للحياة في هذا النص. مخافة الله (ع ٧)، إطاعة إرشاد الوالدين (ع ٨-٩)، والانفصال عن الأشرار (ع ١٠-١٩).

أفترض أن التربية كانت تُجرى وفقًا للنموذج الذي يقدمه هذا الكتاب. وخلال هذه الفترة، أنت ترغب في رؤية ما تعلمه كل يوم يظهر في حياة طفلك ويترسخ بداخله.

مخافة الرب

الأساس الأول للحياة هو السير في مخافة الله. يقول أمثال ١: ٧ «**مَخَافَةُ الرَّبِّ رَأْسُ الْمَعْرِفَةِ، أَمَّا الْجَاهِلُونَ فَيَحْتَقِرُونَ الْحِكْمَةَ وَالأَدَبَ**». إن طفلك المراهق على شفا حياة مستقلة عنك. إنه بالفعل يصنع اختياراته التي تؤثر بشكل كبير على حياته. إنه يتخذ قرارات هامة كل يوم.

تذكر شكل (٣). هذا الرسم الذي يعكس اتجاه الفرد نحو الله. إنه شكل منقسم إلى نصفين؛ لأن كل شخص لديه توجه نحو الله: إمّا أن يعبد الله أو الأصنام. كل شخص يعيش بنوع ما من المخافة سواء لله أو للأوثان.

لابد أن يُحفز ابنك المراهق بإحساس من الانبهار والخشية لله. أنت تريد أن القرارات التي يتخذها تعكس فهمًا متزايدًا لمعنى العبودية لله. لأن القضية ليست هل سيعبد طفلك شيئًا، وإنما ما الذي سيعبده. لابد أن تواجهه بصراحة بسخف عبادة أي شيء أقل من الله.

إن العيش في خوف الله يعني العيش بإدراك أننا سنحاسب أمامه. إنه العيش في ضوء حقيقة أنه هو الله ونحن خليقته. إنه يرى كل شيء. كل شيء مكشوفٌ أمامه. إن العيش في خشية الله يعني العيش في نور الله الكامل كإله قدوس يدعو شعبه للقداسة.

احرص على قراءة هذه الفكرة من خلال أسفار الأنبياء الصغار والكبار مع أبناءك خلال مرحلة المراهقة. إن أبناءك جزء من ثقافة إنجيلية معاصرة تعاني من نظرة متدنية لله. ولكن عندما تقرأ أسفار الأنبياء ستتقابل مع إله قدوس مهيب ومستعد لمحاسبة شعبه. لقد تحدثت مع أبنائي المراهقين عن الاحتياج إلى ملصق على السيارة ليواجه الملصق

الشهير «ابتسم، الله يحبك». هذا الملصق يقول «ارتعد، إلهنا نار آكلة». أيقظ أبناءك بإدراك بأن الفكرة العامة لأكثر من ثلث أصحاحات الكتاب المقدّس (أي الأنبياء الصغار والكبار) هي فكرة الدينونة.

ومثل أي جانب آخر من الحقائق اللاهوتية، فإن سر النضوج ليس في المعرفة الفكرية للحقيقة، وإنما في فهم العلاقة الوثيقة لهذه الحقيقة بالحياة اليومية. لابد أن تدرك ويدرك أبناؤك مخافة الله بطريقة تجعلكم تعيدون تنظيم حياتكم.

لابد أن تجعل مخافة الله فاعلة في الحياة اليومية. على سبيل المثال، يصارع المراهقون مع الخوف من الإنسان. إنهم يقلقون بشأن ماذا سيظن أصدقاؤهم فيهم. ويصنعون قرارات مبنية على خوفهم من عدم رضا أقرانهم. إن ضغط الأقران هو ببساطة العيش بالخوف من الإنسان بدلاً من الخوف من الله.

ما يجب أن تفعله هو أن ترعى أبناءك المراهقين نحو الحياة في مخافة الله بدلاً من الخوف من البشر. لابد أن تساعدهم على إدراك أهمية معرفة الله كنار آكلة.

عليك أن تتحدث معهم، لتساعدهم على رؤية أنهم يخافون من الناس. ثم بعد ذلك لابد أن تساعدهم على فهم العبودية الناتجة عن العيش من أجل استحسان الآخرين. ساعدهم على إدراك عبث ووثنية تنظيم حياتنا حول الرغبة في الحصول على الاستحسان. ساعدهم على إدراك الحرية الحقيقية الموجودة في عدم مبالاة مقدّسة لرأي الآخرين.

كثيرًا ما تكون طريقة تعليم هذه الأشياء هو بمشاركة خبراتك الشخصية. كان أبنائي كلهم في مرحلة المراهقة عندما بدأتُ التحضير للدكتوراه بمعهد ويستمنستر اللاهوتي. كنت أعمل راعيًا لكنيسة وأحضر محاضرات يومًا في الأسبوع. كانت هذه المحاضرات في يوم الثلاثاء. وفي كل مساء يوم الأربعاء، كنت أسهر في المذاكرة. وفي إحدى الليالي في الثانية بعد منتصف الليل، كنت أخربش بشكل جنوني في بعض الأوراق. وكانت زوجتي مربوطة في الآلة الكاتبة، حتى تنظم لي شخبطاتي. وفجأة بدأت أتأمل ما كنت أفعله. وكنت أحرمهم من النوم. وكانت زوجتي الصبورة تعمل خلال الليل. وفي الصباح، كانت تواجه فصلاً كاملاً من الصغار لأنها تعمل كمُدرّسة. وكانت منهكة للغاية. وأنا كنتُ أجازف بقيادة السيارة على الطريق إلى فيلادلفيا.

وكان عليّ أن أسأل نفسي «لماذا أفعل هذا؟». هل كنت معتقدًا بأن الله أراد مني أن أحرم نفسي وزوجتي من النوم؟ هل كنت موقنًا بأن الحق والبر الإلهي يتطلب مني أن أعمل خلال الليل؟ لا! لم أكن مدفوعًا بالخوف من الله، بل كنت مدفوعًا بالخوف من البشر. كنت أريد أن ينظر إليّ الأساتذة الجامعيين كراعي كفؤ وضليع. وكنت أخاف من عدم استحسانهم. بل كنت أتوق إلى قبول استحسانهم. وفي كبريائي وخوفي من الإنسان، كنت أصنع خيارات مبنية على إرضائي للناس، وليس إرضائي لله. صليت في تلك الليلة، واعترفت بخطاياي لزوجتي والله. وندمت على العيش بخوف من الإنسان.

عندما شاركت هذه التجربة مع أبنائي في عمر المراهقة توفّرت أوقات كثيرة من الحوار المثمر. كان بإمكانهم أن يشعروا بالخيارات التي كنت أفعلها. وكان بإمكانهم أن يروا متى فعلوا أشياءً مشابهة. وكان بإمكانهم أيضًا أن يروا أن التحرر من هذا يكون من خلال الخوف من الله بدلاً من الخوف من الناس.

أشعر بالفزع من النزعة الشكوكية التي يظهرها الناس بشأن مساعدة المراهقين على إدراك أهمية مخافة الله. ويفترضون كثيرًا أن الشباب لا يمكن أن تحركهم دوافع مقدّسة.

لا أعرف لماذا هذا التشكيك الكبير. هل يستطيع المراهقون معرفة خوف الله، أو هل يستطيع الآباء والأمهات أن يعلموا مخافة الله؟ أنا أقدّم هذا التشجيع: إذا أراد الله أن يتعلم أبناؤك مخافة الله، فمن المؤكد أن مَن كلفهم الله (الأبوين) بإرشادهم يستطيعون تعليمهم هذا.

إن المراهق الذي يفهم مخافة الله سيُنقذ من الخطر. وسيمتلك حكمة. وسينمو في معرفة الله.

الالتزام بإرشاد الوالدين

الأساس الثاني للحياة هو الالتزام بإرشاد الوالدين. يقول سفر الأمثال ١: ٨-٩ «**اِسْمَعْ يَا ابْنِي تَأْدِيبَ أَبِيكَ، وَلاَ تَرْفُضْ شَرِيعَةَ أُمِّكَ، لأَنَّهُمَا إِكْلِيلُ نِعْمَةٍ لِرَأْسِكَ، وَقَلاَئِدُ لِعُنُقِكَ**». يقدِّم سفر الأمثال أصحاح ٦ تكرارًا مطولاً لهذه الدعوة للسير في طريق الحكمة.

«يَا ابْنِي، احْفَظْ وَصَايَا أَبِيكَ وَلاَ تَتْرُكْ شَرِيعَةَ أُمِّكَ. اُرْبُطْهَا عَلَى قَلْبِكَ دَائِمًا. قَلِّدْ بِهَا عُنُقَكَ. إِذَا ذَهَبْتَ تَهْدِيكَ. إِذَا نِمْتَ تَحْرُسُكَ، وَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَهِيَ تُحَدِّثُكَ. لأَنَّ الْوَصِيَّةَ مِصْبَاحٌ، وَالشَّرِيعَةَ نُورٌ، وَتَوْبِيخَاتِ الأَدَبِ طَرِيقُ الْحَيَاةِ.» (أمثال ٦: ٢٠-٢٣).

الشاب (أو الشابة) الذي يلتزم بإرشاد والديه سيُبارك بغنى. كثيرًا ما يُفترض أن المراهقين سيجدون والديهم غير متصلين بالواقع. ومعظم الناس يتوقعون أنه بمجيء مرحلة المراهقة فإن العلاقة بين المراهق ووالديه هي علاقة سلسة وحتمية، وليس مسألة اختيار.

يتمسك سفر الأمثال برؤية فحواها أن الأبناء يرون في والديهم مصدرًا للحكمة والتعليم. ويؤكد على أن الأبناء سيباركون وسيستفيدون بكل هائل من الالتزام بالقيم والإرشاد الذي يتلقونه من والديهم. وبدلاً من ترك الشباب لرؤية والديهم بحجة أنها بعيدة عن الواقع، فإن سليمان ينصحهم بتبنّي رؤيتهم.

هل يجب أن يُدهشك هذا؟

مَن الذي يفهم أبناءك أكثر؟ أنت تعرفهم. أنت تعرف الفوارق غير الواضحة في طباعهم. أنت تعرف نقاط ضعفهم وقوتهم. أنت تعرف خبراتهم الحياتية. أنت تفهمهم. وأنت أيضًا تعرف الله، ولديك كلمة الله. وأنت تعرف طرق الرب، وأنت جاهدت وحاربت لتعيش الحياة المسيحية. أنت تفهم تدريبات ومخاطر الحياة المسيحية. أنت تفهم العالم الذي يعيشون فيه. وتفهم الضغوط التي يواجهونها الآن. وأنت ملتزم تجاههم وتجاه الله، وليس هناك أحد يحبهم أكثر منك، وأنت ملتزم تجاههم بشدة، وتقدّم لهم قبولاً غير مشروط. ولا يوجد أحد سيكون أمينًا أو رفيقًا بهم أكثر منك. وبالتالي عندما يترك الأبناء إرشاد وتعليم الأب والأم فهذا هو الخبل.

إذا كنت تعيش في استقامة مع الله وتجاه أبناءك، فليس شيء مما سبق يمكن المبالغة فيه. وإذا كنت تشارك بصدق خبرتك الحياتية، وكيف عرفت الله بأكثر عمق، وكيف اختبرته مشبعًا لك أكثر فأكثر، فأنت تريهم قدرة الإيمان المسيحي على الحياة.

لابد أن تتسم علاقتك بأبناءك بالصدق. يجب ألا تقدم نصيحة أبدًا تريحك أنت، أو توفر عليك التعب أو الإحراج. ولابد أن تكونوا آباء وأمهات أثبتوا بأنهم لا يستغلون أبناءهم بأية طريقة. وإذا وضعت هذه الأشياء في نصابها الصحيح، لن يرغب طفلك غالبًا في الابتعاد عن إرشاد والديه.

عندما كان ابننا في الجامعة فكَّر أن يأخذ أجازة طويلة ليذهب في رحلة بالدراجة لمسافة ما يقرب من مائتي ميلاً. كان على بُعد ٦ ساعات. لم نبحث في صحة ما يقول، ومع ذلك احتاج منا نصيحة. كان قد قام بعمل رائع في مراجعة كل التفاصيل الضرورية ذات الصلة ليتخذ قرارًا صائبًا. ومع ذلك أراد أن يأخذ رأي بابا وماما في الفكرة. لماذا فعل ذلك؟ ليس لأننا طلبنا ذلك. وليس بسبب إنه كان غير واثق من اتخاذ القرار، ولكن بسبب أنه كان مقتنعًا بأننا مرشدان يمكن الثقة فيهما. كما أنه يعرف أيضًا أننا لن نتخذ القرار عوضًا عنه. لكننا ببساطة كنا سنساعده على مراجعة كل المعلومات الهامة.

عندما تظل متاحًا لتقديم النصيحة فهذا جانب واحد فقط من الالتزام بتقديم التوعية كوالدين. هناك مكون آخر هام جدًا. الالتزام بإرشاد الوالدين يتطلب أيضًا الإبقاء على منظومة الحق الذي تعلمت فيها. هذا يعني أن تحيا وتعمل بداخل إطار الحق الذي حصلت منه على الإرشاد.

كان Aaron مثالاً جيدًا على ذلك. في فصل اللغة الإنجليزية أجري تدريب على تصنيف القيم. وعُرضت معضلة أخلاقية لإثبات نسبية القيم والطبيعة الهشة للقيم التي كان الطلبة يظنون أنها صلبة. قدّمت المعلمة المعضلة الأخلاقية، وفتحت النقاش للطلاب. وبعد أن عجزت المجموعة كلها عن فهم المعضلة الأخلاقية، قدّم Aaron رأيه. وكان في رأيه حلاً للخلاف. ولأنه مدعوم بتوعية من أبويه، قدّم حلاً كتابيًا أسكت المعلمة سكوتًا مطبقًا. ودمدمت المعلّمة قائلاً: «هذا حل ممتاز يا Aaron. هذا الحل أفضل من الحلول الواردة في الكتاب المدرسي».

استفاد Aaron من الالتزام بإرشاد والديه. ولم يعوقه المناخ الفكري الخالي من القيم في عصرنا هذا، وكان قادرًا على حل المعضلة. إن الطفل المهيأ بالتعليم الكتابي

يقف على أرض ثابتة في البنية التعليمية التي يغرق فيها حتى المعلّم في بحر من انعدام المبادئ والقيم المطلقة (انظر مزمور ١١٩: ٩٩-١٠٠).

حدود توعية الوالدين

الإطار الأول لتوعية الوالدين نراه في تثنية ٦. إنه السياق الاعتيادي للحياة اليومية. يرى أبناؤك قوة حياة الإيمان بينما يرونك تعيشها. لست مضطرًا بأن تكون كاملاً. بل ببساطة تحتاج إلى أن تتشبه بمن يعيش حياة الاستقامة الذين يعيشون في الحق الغني والقوي لكلمة الله.

وسواء كنت تشاهد فيديو أو تلعب مباراة، وسواء كنت تقوم بالعمل، أو ترد على التليفون، أو سواء كنت ناجحًا أو تتألم من الفشل- في السياق العادي للحياة اليومية، أنت تظهر قوة الإيمان المسيحي وقدرته على الحياة.

العبادة العائلية

توفر أوقات العبادة العائلية سياقًا خاصًا للتوعية. هناك ميل بأن تجعل وقت العبادة العائلية إلزامًا. عرفت رجالاً كانوا يعيشون حياء فاجرة وكانوا يفتخرون بأنه لم يفوتهم مرة واحدة من أوقات العبادة العائلية.

لابد أن تربط العبادة العائلية بين العالم وبين الحياة كما يختبرها أبناؤك المراهقون. لابد أن تخاطب العبادة العائلية بطرق جذابة الأمور التي يواجهها أبناؤك المراهقون.

تعيش Donna كأم بلا زوج. ولديها ثلاثة أبناء في سن المراهقة. الابنة الكبرى أصبحت مهتمة بالصبيان. أو بالتحديد أكثر أصبح الصبيان مهتمين بها. وكانت Donna قلقة بشأن العلاقة التي بدأت تتكون بين ابنتها وبين صديق ابنتها. لم تظهر العلاقة على أنها شيء سلبي، لكنها كانت قلقة. وكانت تخشى أن ابنتها لا تلتزم بمعيار سلوكي مرتفع في علاقتها مع ذلك الشاب الصغير.

كان Donna تعرف أن كلمة الله تتسم بالدقة في وصفها للأشخاص واحتياجاتهم. وعرفت أن وعود وتحذيرات كلمة الله مناسبة جدًا لاحتياجات كل الناس. وعرفت

أن أعمق الاحتياجات، لبنتها ولهذا الشاب، يمكن أن تسدد في سياق معرفة طرق الله. وعرفت أن الحق الإلهي صادق بذاته، وأنه سيلبّي اشتياقات هذا الشاب وابنتها.

حصلت Donna على مساعدة لتعد درس كتاب متعمق حول موضوع العلاقات. درست هي وأبناؤها والشاب الكتاب المقدّس معًا. استمتع الأبناء بذلك كثيرًا حتى أنها كانت تتعب في إعداد نفسها بسرعة لتظل متقدمة في تحضيراتها للأوقاف المنتظمة لدراسة الكتاب.

القصة السابقة هي مثال للعبادة العائلية التي تربط بين أفراد العائلة. العبادة العائلية التي تخاطب اهتمامات واحتياجاته المراهقين. لم تكن Donna مضطرة بأن تجري وراءهم بالكتاب المقدّس- بل هم مَن كان يسعون وراءها. ليتنا نتذكر دائمًا أن كلمة الله قوية. وأن الإيمان يأتي بالاستماع لكلمة المسيح.

الانفصال عن الأشرار

الأساس الثالث نجده في أمثال ١: ١٠ «**يَا ابْنِي، إِنْ تَمَلَّقَكَ الْخُطَاةُ فَلاَ تَرْضَ**». يدعو سليمان ابنه بالانفصال عن الأشرار. إن الله يدرك جيدًا مشكلة التأثير. مَن يعيش في رفقة الأشرار سيتعلم طرقهم الشريرة.

وبالرغم من صحة ما كتبته سابقًا فإنه لا يستطيع أن يصل إلى عبقرية هذا النص. هذا النص لا يخبرنا فقط بأن ننفصل عن الخطأة. لكنه يخبرنا بسبب انجذاب أبنائنا إلى مثل هذه التحالفات. في الأعداد من ١٠ – ١٩ من هذا الأصحاح، هناك أكثر من ضمير بصيغة الجمع. لاحظ هذا معي:

«**هَلُمَّ مَعَنَا.. نَمْلأَ بُيُوتَنَا غَنِيمَةً.. تُلْقِي قُرْعَتَكَ وَسْطَنَا.. يَكُونُ لَنَا جَمِيعًا كِيسٌ وَاحِدٌ**».

ما هو الشيء الذي يجمع الشباب حسب أمثال ١؟ إنه الانتماء. الميل إلى الاستسلام إلى الأشرار يتمثل في الألفة. هذا يلبّي احتياجًا أصيلاً للإنسان وهو مشاركة المنافع مع الآخرين. يحتاج أطفالك إلى الانتماء.

كنتُ قد عُينت حديثًا كشيخ للكنيسة، وكنتُ أقوم بزيارة رعوية مساء أحد أيام الصيف. وبينما كنت ارتشف الشاي، وأدردش مع زوجين في منتصف العمر، نزلت ابنتهما السلم. وكنت ترتدي ملابس مبهرجة بشكل غير محتشم. وبينما دخلت حجرة العيشة، تحدث أبوها بغلاظة، وسألها بصوت يمكن أن يخثر اللبن «أين تظنين أنكِ ذاهبة، يا بنت؟». وكانت الاستجابة الوحيدة للأب: «اخرجي.. لن تذهبي إلى أي مكان بهذه الملابس. أنتِ تبدين كعاهرة». وأغلق الباب وراءها. وذهبت.

ليس لديّ فكرة عما حدث فيما تبقى من هذه الأمسية. ولا أتذكر كم قضيت من الوقت معهم أو فيما تحدثنا. كل ما أتذكره هو الاغتراب الذي كانت تعانيه هذه العائلة التي أزورها.

لا عجب أن الابنة كانت ستغادر البيت بقدر ما تستطيع قدماها من سرعة. ولم أكن أريد البقاء هناك أيضًا.

أقوى طريقة لتمنع أبناءك من الانجذاب إلى ما تقدمه الألفة من الأشرار هو أن تجعل البيت مكانًا جذابًا للوجود فيه. الشباب عادة لا يهربون من أماكن يشعرون فيها بالحب والقبول غير المشروط، ولا يهربون من بيوت بها علاقات قوية. ولا يهربون من بيوت لا تخطط فيها العائلة لأنشطة وعمل أشياء مثيرة معًا.

أشرت سابقًا إلى رحلة بالدرجات لمسافة ٦٥٠ ميلاً قطعناها معًا كعائلة. كانت الرحلة محفزًا للتفاعل الأسري لمدة ما يقرب من عامين. خططنا للأمر سويًا. وعملنا قوائم بالأدوات التي نحتاج إليها. اشترينا الدرجات، ونسقنا أدوات التخييم. درسنا الخرائط لنحدد مسارنا. وقرأنا كتبًا عن رحلات بالدراجات لنتعلّم من الآخرين. وتمرنا حتى نكون مستعدين جسمانيًا. الأبناء أخبروا أصدقاءهم عن خططنا. وشعروا بأنهم ينتمون إلى عائلة متميزة تقوم بأشياء غير عادية. لقد وفرت هذه الرحلة شعورًا بالهدف الموحد. ووفرت شعورًا بالانتماء خلال وقت حرج في حياة ثلاثة من الأبناء.

الفكرة هي: الدعوة للانضمام إلى الأشرار تصل إلى أطفالنا. ولابد أن نعمل لكي نجعل بيوتنا أماكن جذابة. يجب أن يكون البيت ملاذًا يُفهم فيه المراهق وينال الحب، ويجد مَن يشجعه ويعلّمه مسارات الحياة المختلفة.

هذه الأساسات الثلاثة للحياة لابد أن تظهر في كل حوار مع أبناءك المراهقين. مخافة الرب، والالتزام بإرشاد الوالدين، والانفصال عن الأشرار. وعندما يحدث هذا، يمكننا أن نتوقع نعمة الرب تحل على جهودنا.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٨

١- ما هي الأمور التي يمكن التفاوض فيها والتي يمكن أن تمكن ابنك المراهق ليعبّر عن استقلالية عنك بطريقة بناءة؟

٢- هل ترصد أي تمرد قد يكون له علاقة بأخطاء سابقة في تربيتك؟ ماذا يمكنك أن تفعل لتفتح نقاشًا حول هذه الأمور؟

٣- هل ترتاح لمساعدة طفلك على إدراك أن الله إله مهيب ومخوف؟ كيف تستغل مضامين العبرانيين ١٢: ٢٩ التي تذكر أن «**إلهنا نار آكلة**»؟

٤- أي أجزاء من كلمة الله يمكن أن تقرأها معهم للتأكيد هذا الجانب من شخصية الله؟

٥- ماذا يمكن أن تفعل لتوفر (كأب أو أم) سياقات للإرشاد والتوعية التي يحتاجها أبناؤك المراهقون بشدة؟

٦- هل أنت مستعد لمشاركة خبرتك الشخصية كوسيلة لمساعدة أطفالك على التفكير في طرق الله؟

٧- ما هي الموضوعات التي يمكن أن ندرسها في الكتاب المقدّس وقد تكون نافعة لك ولأبناءك المراهقين؟

٨- هل توفر بيتًا يشعر فيه ابنك المراهق بالحب والقبول؟ هل يُرحب بأصدقائه في بيتك، سواء كانوا يحبون الله أم لا؟

٩- ماذا يمكن أن تفعل لتوفر شعورًا متميزًا بالانتماء لأبناءك؟

الفصل التاسع عشر

المراهقون: أساليب التربية

ذهبت إلى مؤتمر في نهاية الأسبوع عن تربية المراهقين. وكان أبنائي على حافة مرحلة المراهقة، لذا كنت أتمنى أن أتعلّم كيف أستعد لما هو آت. كان الرجل متحدثًا جيدًا، وكان حاضر البديهة. وكانت محاضراته مكتظة بتوضيحات مستخدمًا العديد من القصص الطريفة المستمدة من خبرته الخاصة.

لكنني لم أشعر بالارتياح بعد نهاية المؤتمر. وكل القصص بدت لي عن محاولة هذا الأب وابنه لخداع أحدهما الآخر. وعلاقتهما كانت تشبه إلى حد ما جاسوسًا يتلصص على جاسوس آخر.

أتذكر أنني فكرت أنه إذا كان انضباط أبنائي يعتمد على أن أكون أذكى منهم، فربما سأفشل. أنا الآن مقتنع أن تربية المراهقين ليست لها علاقة بالتفوق عليهم في المناورة. بل هي مسألة أكثر إثارة وإشباعًا من هذا.

ترسيخ روح الإنجيل بداخلهم

إن ترسيخ رسالة الإنجيل داخل النفس يمثل عملية قبول أبناءك للأمور الإلهية كإيمان يعيشون به. إن أمنيتك خلال هذه الفرصة هو أن ترى أبناءك يكتسبون هويات مستقلة كأشخاص تحت سلطان الله.

من الواضح أن ترسيخ روح الإنجيل بداخلهم يتطلب عمل الروح القدس في الطفل. لا يوجد أب أو أم يستطيع عمل هذا، ولا تستطيع تحقيق هذا الأمر بمجهودك.

ومع ذلك فأنت بمجهودك ترجو أن يتمم الله وعده ويعمل من خلالك كواسطة. وبالرغم أنك لا تجرؤ على أن تستغل رحمة الله المتعالية، بمقدورك أن تتعب متوقعًا عمل الإنجيل القوي.

إن رغبة قلبك في كل مرحلة من تربية الأطفال هي أن ترى روح الإنجيل يترسخ في نفوسهم. والهدف من كل ما تقوم به من تربية، وفي كل مناشداتك، وفي كل تقويمك وتأديبك، هو أن ترى أبناءك يصلون إلى مرحلة تبنّي تصريحات الإيمان المسيحي.

السبب في رعاية قلوبهم- والاحتكام إلى الضمير، والتركيز على أمور لها علاقة بالشخصية في التقويم والتأديب، ومخاطبة القلب كمنبع للحياة، ورفض إعطائهم معيارًا سلوكيًا يمكن تنفيذه ويلغي احتياجهم للمسيح- هو أن تراهم يعرفون الله. أنت تريدهم أن يدركوا احتياجهم للرب، وأن يقبلوا المسيح، وأن يروا حياتهم في ضوء ملكوت الله.

وثمر كل ما نراعيه هو ترسيخ روح الإنجيل بداخلهم. تذكر شكل رقم ٣ الذي يوضح التوجه نحو الله. وهذا يتحقيق عندما يصل أبناؤك إلى مرحلة نضوج كأشخاص يعرفون الله ويعبدونه.

يسألونني كثيرًا هل كنت أتوقع أن يؤمن أبنائي بالمسيح. يسعى الآباء والأمهات باستماتة ليجدوا وعدًا من الكتاب المقدّس أن أبناءهم سيؤمنون. لا أعتقد أن هذا الوعد موجود في كلمة الله.

سؤلت مرة: «ألا تعتقد أنه إذا ربيت أبناءك بالطريقة الصحيحة، فإن الله يعد بأن يخلّصهم؟» إذا وجد مثل هذا الوعد، فلن يعزيني. فأنا لم أربيهم بشكل جيد وكافٍ. وعندما أنظر إلى حياتهم، أريد أن أنضم إلى زمرة الآباء والأمهات الذين يتمنون أن يعيدوا التربية من جديد. أنا مدرك جدًا قصوري ومحدوديتي.

يجب أن أكون واضحًا هنا بأنني لا أتحدث عن «خلاصهم» كحدث كرازي. وإنما أتصور قيادتهم في طريق فهم متعمق لله والالتزام نحوه. التوبة إلى الله والإيمان بالرب يسوع المسيح سيشكّلان جزءًا من حياة هذا الفهم المتعمق لله والالتزام نحوه.

لدينا رجاء كأب وأم يرغبان في رؤية أبنائهما يؤمنون بالله. الرجاء هو قوة رسالة الإنجيل. رسالة الإنجيل متناسبة مع الحالة الإنسانية. رسالة الإنجيل جذابة. لقد أظهر الله بالفعل رحمة عظيمة لأبناءك. لقد أعطاهم مكانة وامتيازًا عظيمًا. ووضعهم في بيت يسمعون فيه عن حقه الإلهي. لقد رأوا قوة النعمة على التغيير في حياة شعبه. وصلاتك وآمالك أن تغلب رسالة الإنجيل مقاومتهم كما فعلت معك.

معظم الكتب عن المراهقين تفترض التمرد، أو على الأقل اختبار حدود سلطة الأبوين. أنا أفترض العكس. أفترض أنك قمت بمهمة التربية بأمانة، وأن كل واحد من أبناءك حسب كلمات تيطس ١: ٩ «**مُلاَزِمًا لِلْكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي بِحَسَبِ التَّعْلِيمِ**».

إذا كنت تشعر بالإحباط أو أن أبناءك المراهقين جامحون، وأنك بالفعل في مشكلة كبيرة في علاقتك معهم، أنا أحيلك إلى ما قلناه سابقًا. التوجه إلى الله في توبة مع عائلتك، ووضع أهداف جديدة سيؤديان بنعمة الله إلى مصالحة. اطلب من الله الذي يصير المعوج مستقيمًا.

لقد تمتعت برؤية عائلات يعملون خلال أوقات من الألم الشديد، وحالة من المخاض في مرحلة مراهقة أبنائهم. لكن الله أعطاهم نعمة واستقامة قلب ليطلبوه خلال ليل معاناتهم الطويلة وظهر فجر يوم جديد من البهجة والسلام. الآن يمكنهم أن يعملوا في ملكوت الله في اتحاد مع أبنائهم الذين كانوا يومًا متمردين.

رعاية رسالة الإنجيل بداخلهم

دورك خلال هذه المرحلة هو دور رعوي لتشجيع الطفل والسعي إلى ترك أثرًا في نفسه من خلال عملية ترسيخ رسالة الإنجيل بداخله.

أنت علَّمت طفلك عن الله، وعرفته بشخص الله. وأعلنت مجد الله، ووضعت أمامه بركات العيش في مظلة رعاية الله وحمايته. وتحدثت معه عن الغاية العليا للإنسان: «**تمجيد الله والتلذذ به إلى الآبد**». وحذرته من مخاطر عدم محبة الله والوثوق به. وفي بساطة الأطفال، قبِل طفلك ما أخبرته به.

وفي سنوات مراهقته، يحصل على معرفة جديدة. يبدأ في وعي أكبر بخطيته وانكساره. لقد قبل المعايير التي علّمتها إياه. الآن ومع تزايد وعيه بذاته، يواجه عجزه لفعل ما يجب عليه فعله. لم يصبح أكثر سوءًا مما كان عليه طيلة حياته، لكنه ببساطة أصبح أكثر وعيًا بضعفه واحتياجه.

ويواجه أيضًا إدراكًا متزايدًا بأن ليس الجميع يؤمنون بما تعلّمه هو. إنه يقرأ كتبًا، ويسمع، ويتعلم أشياءً تتحدى كل شيء تعلَّم أنه يجب أن يؤمن به.

ومهمتك كأب أو كأم هو أن ترعى وتهتم بتفاعله مع رسالة الإنجيل. السؤال هو: ما الذي سيمكنك من الدخول إلى هذا المراهق الذي ينمو في اتجاه البلوغ؟

بناء علاقة رعاية مع المراهقين

أنا أفترض أنك تعاملت بنجاح مع المرحلتين الأولتين من نمو طفلك، وأن الروح القدس عمل خلال تلك الوسائل، وبالتالي فإن دورك ليست علاجيًا، بل توجيهًا. لقد أكدت على دورك وحقك في الانخراط في حياة طفلك. هذا ببساطة جانب من الوكالة التي تمارسها كأب أو أم التي أوكلك الله عليها. وأن ابنك أو ابنتك يعترف بالفعل بسلطتك عليه.

إذا لم تتأكد سلطتك على ابنك المراهق، لابد أن تقضي وقتًا تطلب فيه الرب وتراجع حياتك مع ابنك المراهق. اعترف، وراجع تفكيرك، وأكّد على سلطتك ومسؤولية ابنك أو ابنتك بناءً على كلمة الله لكل منكما. ليس هناك طريق مختصر لتحصل على حقك كراعٍ لهم، أو ليرغبوا في أن يتلقوا رعايتك. الطريق الوحيد لذلك هو التوبة والإيمان.

إن اهتمامك بأن تمثل قوة بنّاءة في حياة طفلك تم التأكيد عليه، وظهر هذا الاهتمام بينما تسعى للتعامل مع الأمور التي لها علاقة بالشخصية في السنوات المتوسطة من الطفولة. ورعايتك الآن هي ببساطة امتداد للأدوار السابقة في حياة طفلك.

السلطة في مقابل التأثير

أحد العناصر الأساسية للرعاية هي التأثير. تذكر هذا الشكل من الفصل العاشر:

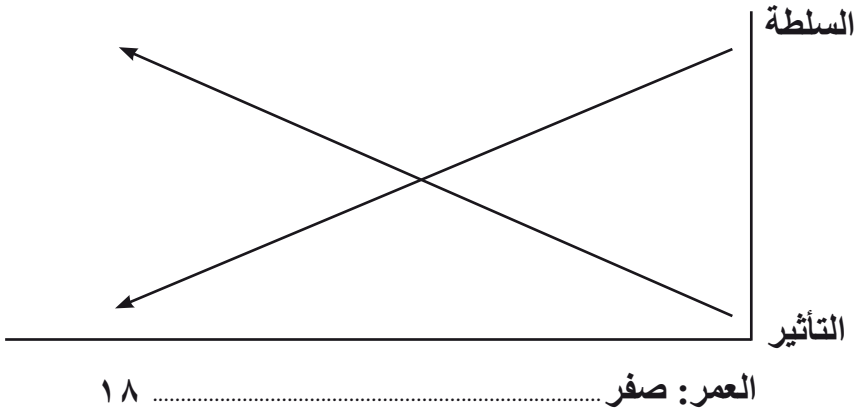

شكل (٦) العلاقة بين السلطة والتأثير

السلطة في هذا الرسم تشير إلى ما يمكن إنجازه مع طفلك بسبب أنك الأقوى والأسرع والأكبر وهكذا. ويمثل التأثير استعداد طفلك، ليخضع نفسه تحت سلطتك لأنه يثق بك. دورك كصاحب تأثير يمثل دورًا مساعدًا له ليعرف احتياجاته وليكون أمينًا مع نفسه.

على سبيل المثال، إذا كانت ابنتك في عمر المراهقة ويستحيل العيش معها؛ فهي دائمًا ما تنفجر في وجه كل مَن يقف في طريقها. وإذا كنت تحاول أن تطبّق السلطة، فربما تفرض رأيك. «لا أريد أن أسمع هذا مرة أخرى.. أنت معاقبة لمدة شهر.. ليس مسموح لك بالتحدث في التليفون.. لن أسمح بهذا في بيتي!»

في المقابل، إذا أردت أن تترك أثرًا، ستتجه نحوها وتوبخها برفق. «أرى أنك تجدين صعوبة في أن تكوني شخصية لطيفة. أنا أحبك وأريد أن أساعدك على تعلّم التحدث بطريقة بنّاءة.»

التصرف الأول يزيد من الشعور بالاغتراب، ويدفع المراهق نحو جماعات قد تكون ضارة جدًا. أمّا الطريقة الثانية تتجه للطفل في حب وتوبيخ رقيق. إنها تقبل وتحتضن. وتشجع الطفل على تقبل التقويم كشخص حكيم. ولا تجعل الطفل يشعر بأنه أحمق. والإهانات الشخصية لا يجب أن تكون الشرط الذي نوبخ أبناءنا على أساسه.

وأنت كوالد يسعى لرعاية أبنائه، يجب أن تؤثر في طفلك ليتجاوب مع أشياء معقولة، مستمدة من معرفة بالشخصية الإنسانية، وهذه المعرفة مبنية على الكتاب المقدّس. أنت تسعى لتؤثر وتقدّم مشورة. لا يمكنك إنجاز شيء له قيمة دائمة عندما تمارس السلطة فقط. لابد أن تسعى لتنصح وتؤثر.

جاء ابني البالغ من العمر السادسة عشرة متأخرًا في أحد الأمسيات. كان يومًا أجازة من المدرسة بسبب عاصفة ثلجية عنيفة.

الابن: «أبي، هل أستطيع أن أذهب للتزحلق لساعتين مع جيراني؟»

الأب: «حسنًا يا ابني، أنت كنت معهم لعدة ساعات، وهناك واجبات في غرفتك تحتاج أن تنجزها»

الابن: «فكرت أن أنجزها فيما بعد. أستطيع فعل ذلك في الليل، ولكن لا أستطيع التزحلق في الليل.»

الأب: «أنا مهتم بشيء. أرى أن الواجبات التي في غرفتك كشيء بدأت في العمل عليه منذ أسابيع ولم تنجزها. هذا شيء يشغلني، لأني أظن أنك تترك واجباتك غير مكتملة في مرات أكثر مما ينبغي. أنت ممتاز في تعاملك مع أي شيء أطلبه أنا أو والدتك منك، ولكن المهمات طويلة المدى التي تحتاج منك أن تنظم وقتك لتنجزها فإنك تجد صعوبة في فعل ذلك.»

الابن: «أنا مشغول أكثر من اللازم. بعد أن أعود من المدرسة وأذهب إلى تمرينات المصارعة، لا يتبقى أي وقت لذلك».

الأب: «أنا أعرف أنك مشغول، ولكن اليوم يوم عطلة، وأنت لم تبدأ في مهماتك. لا أظن أن هذا شيء جيد منك. أحب أن أراك تتغلب على نفورك من المهمات طويلة المدى. أنا فقط منشغل بشأنك، يا ابني.»

الابن: «أستطيع أن أقبل ما تقوله يا بابا، ولكني أظن أنه بإمكاني الذهاب إلى التزحلق، وفي نفس الوقت أستطيع إنجاز عملي.»

الأب: «حسنًا يا ابني. أنت تعرف ما يجب عليك أن تفعله.»

لاحظت بعد عدة دقائق أن ابني لا يزال في البيت؛ فسألته: «ألا تنوي الذهاب إلى التزحلق؟»

«نعم، لكني قررت أن أقوم بواجباتي أولاً»

كان هذا كل ما في الأمر. لا صياح، لا تهديدات، لا كلام مهين. لماذا قرر أن يبقى؟ ظن أن رأيي سديد، لذا بقي لنكمل حديثنا. كان مستعدًا ليتأثر بكلامي.

أنا مقتنع بأنه في حالات قليلة يتطلب من الأب أو الأم أن يأمر المراهق بفعل شيء أو بعدم فعل شيء ما. أمّا في الحالات التي يمر فيها اليوم كله بالطلب والإلحاح، فإن الوالدين لا يمارسان المبادئ الكتابية. فالابن أو الابنة التي يتوقع منها التجاوب مع الطلبات والأوامر على الأرجح تراوغ وتفعل ما ترغب فيه في النهاية.

الرعاية في وقت الشك

سيكون هناك وقت للشك والتساؤل في حياة أي شاب (أو شابة) تربى في بيت مسيحي. كل شاب أو شابة يمر بفترة يراجع فيها ادعاءات الإيمان المسيحي بنوع من التحفظ.

لابد أن يستوعب كل مراهق هل آمن بنفسه أو انجذب في تيار عائلته. سيمر بأوقات يشك في صحة الكتاب المقدّس. وعليك أن تقوّي تمسّكه بالحقائق الرئيسية للإيمان.

في بعض الأحيان يميل الآباء والأمهات إلى الفزع عندما يكون لدى أبناءهم أسئلة.

ويتجاوبون بشيء مثل «لا أصدق أنك تشكك في وجود الله»، أو «عليك فقط أن تؤمن»، أو «الأفضل ألا تسأل في هذه الأمور».

شجع أبناءك ألا يهربوا من تساؤلاتهم. ليس على الجميع أن يكون لديهم كل الأسئلة، ولكن كل واحد عليه أن يجد جوابًا لأسئلته. الإيمان المسيحي قوي بما يكفي ليتحمل التمحيص الدقيق.

في بعض الأحيان سيكون عليك أن تساعد أبناءك المراهقين على إيجاد حلول لمشكلات لم تشعر أبدًا أنها مشكلات صعبة. وقد تحتاج لتثقيف نفسك.

احتجت أن أتعلم بعض أساسيات الفيزياء لكي أساعد أبنائي على النظر إلى هذا العِلم من منظور كتابي. قد تضطر إلى مساعدتهم على إيجاد كتب أو أي مطبوعات دفاعية.

يمكنك مشاركة خبرتك الخاصة في التعامل مع الأسئلة المتعلقة بالإيمان. يمكنك أن تبيّن لهم الفلسفة غير المسيحية التي تفتقر إلى الإجابات الكافية والمتماسكة عن الأسئلة الفلسفية الكبرى عن الجنس البشري والكون.

كذلك عرّضنا أبناءنا لعلاقات مع أشخاص يفهمون عالم الأفكار من خلال منظور الإيمان المسيحي. إن إقامة علاقات عائلية مع أشخاص مسيحيين لديهم اهتمامات مشتركة مع أبنائنا المراهقين يُعد شيئًا هامًا لأبنائنا. لقد استفاد أبناؤنا كثيرًا من العلاقات مع أشخاص مسيحيين أكبر منهم سنًا بكثير. هذه العلاقات دعمت من تعليمنا، وقوّت من تأثيرنا.

فوق كل هذا، لا تفزع خلال هذه الأوقات. قُم باجتيازها مع أبناءك، ومستودعًا إياهم وتربيتك لهم وخلاصهم في يد الله القدير.

تفاعل إيجابي

لابد أن تحافظ على علاقة إيجابية مع أبناءك المراهقين. ولابد أن يكون هدف تفاعلك هو الخدمة. كُنْ بمثابة قوى بنّاءة في حياة طفلك. يجب عليك أن تكون مصدرًا للتشجيع والإلهام.

هذا ليس شيئًا سهلاً دائمًا. المراهقون قادرون على ارتكاب أخطاء جسيمة. هناك فجوة هائلة بين رغبة المراهق في الاستقلالية من جهة وفهمه للحياة من جهة أخرى. وهناك تربة خصبة لأخطاء بشعة. ومن السهل على الأب أو الأم أن يفقد تركيزه.

في أحد أيام الصيف، كان ابننا يستخدم سيارتنا الأخرى للانتقال إلى عمل مؤقت في فصل الصيف. وجاء إلى البيت بعد الظهر ذات يومًا واكصدام السيارة الخلفي مربوط بحبل. طبيعي أن يكون لديّ فضول. بدا أنه بينما كان يلف في انحناء في الطريق، وقع قلم من «التابلو» على أرضية السيارة. فسقط الاكصدام عندما كان ينحني محاولاً التقاط القلم وحدث اصطدام بسور حديدي!

كان لدينا في ذلك الوقت «سيارة قديمة»، لذا قال ابني انه سيصلح الاكصدام. في تلك الليلة أزال الاكصدام المكسور، لكنه لم يجد وقتًا يستبدله باكصدام من السيارة القديمة.

في اليوم التالي رجع إلى الوراء فاصطدم مرة أخرى. وكان يحتمل ألا يحدث ضرر كبير للسيارة لو كان الاكصدام الخلفي موجودًا..

في مثل هذه الأوقات التي تتضمن لحظات إخفاق، يحتاج أبناؤك المراهقون إلى التفاعل الإيجابي. ويجب أن تجعل عينيك على الأهداف التي ترجوها لأبناءك. فهم يحتاجون لأب وأم بنائين ومبدعين. ويجب أن تتحلى بحسّ سليم لتقدير الأمور، متذكرًا أن قيمة ابنك أو ابنتك أكبر من سيارة.

لا أقصد هنا إعفائهم من المسؤولية. ولا أتحدث عن عزلهم عن نتائج أخطائهم في حكمهم على الأمور. هذه دروس هامة عندما تقدّم بشكل بناء. ما أتطلع إليه هو تفاعل من الوالدين مملوء بالأمل والشجاعة. هذا التفاعل سيقدر على تحويل الفشل إلى فرصة للتعلُّم والتقدُّم.

ليس مسموحًا لنا بأن نوبخ أبناءنا المراهقين بكلام هدام. الشاب أو الشابة الذي يُقال له «أنت عديم القيمة، بلا فائدة، فاشل، ساذج، متسكع» ، غالبًا ما يتصرف حسب توقعات أبويه منه.

يخبرنا سفر الأمثال أن الكلمات العذبة تشجع التعليم. «**حَكِيمُ الْقَلْبِ يُدْعَى فَهِيمًا، وَحَلاَوَةُ الشَّفَتَيْنِ تَزِيدُ عِلْمًا**» (أمثال ١٦: ٢١). إن الكلمات العذبة بمثابة الشحم لعجلات التعليم. وآية تالية تؤكد نفس الدرس: «**اَلْكَلاَمُ الْحَسَنُ شَهْدُ عَسَلٍ، حُلْوٌ لِلنَّفْسِ وَشِفَاءٌ لِلْعِظَامِ.**» (أمثال ١٦: ٢٤).

لا عجب إذن أن كثيرين من المراهقين لا يقبلون إرشاد والديهم. فهم يعانون تحت قسوة الكلمات الفظة لوالديهم. أي تعليم بعد ذلك سيضيع بسبب الروح المجروحة والشعور بالاغتراب العميق.

«**قَلْبُ الْحَكِيمِ يُرْشِدُ فَمَهُ وَيَزِيدُ شَفَتَيْهِ عِلْمًا.**» (أمثال ١٦: ٢٣).

في كل تعاملاتك، ليكن تركيزك على أن يجد أبناؤك المراهقون التعزية والقوة في معرفة الله.

يختبر المراهقون إخفاقات من وقت لآخر. وكأب (أو أم) مسيحي لابد أن تكون خبيرًا في أخذ طفلك إلى الصليب ليجد الغفران والقدرة على العيش. ستسبب ضررًا بالغًا لأبناءك إذا كشفت عن كل مبررات الفشل وأجبرتهم على رؤية خطيتهم كما هي بدون أن تقدم لهم الطريق إلى الصليب. لا عجب إذن أن المراهقين المسيحيين يعانون من نظرة متدنية للنفس! لقد تعلموا أن يتعاملوا مع محاولاتهم الباطلة للتعامل مع الشعور بالذنب، ولكن لم يتعلموا بما يكفي أين يذهبون بهذا الذنب.

حتى المواقف التي تحذّر فيها لابد أن تحتوي على دفعة إيجابية. لدينا طريقة جيدة في رسالة العبرانيين. في العبرانين ٦ بعد تقديم تحذير شديد ومباشر، يصف الكاتب هذه الكلمات: «**لكِنَّنَا قَدْ تَيَقَّنَّا مِنْ جِهَتِكُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، أُمُورًا أَفْضَلَ...**» (العبرانيين ٦: ٩).

بناء علاقة ناضجة

تشبيه جيد لعلاقة الأب/ الأم مع المراهق يتمثل في علاقات الكبار فيما بينهم. هناك عدة عناصر في العلاقة بين الكبار تتوازي مع علاقتك مع أبناءك المراهقين. هذا لا يشير

إلى خروج الطفل من تحت رعاية والديه، وإنما يدلل على مراعاة الوالدين لنمو الطفل نحو البلوغ.

فكّر في علاقتك بطفلك من هذه الزوايا. في رعايتك بعلاقاتك مع أصدقائك البالغين كيف تسعى لهذه الصداقة؟ ما هي المسموحات والممنوعات في العلاقات مع الكبار؟

انتظار الوقت السليم

في العلاقات المعتادة مع الكبار، لن تهبط على صديقك أبدًا في اللحظة التي تراه يفعل شيئًا تظن أنه تعوزه الحكمة، أو تظن أنه خطأ. وطالما أن حياته ليست في خطر، لن تهبط عليه في كل شيء تراه يفعله أو تسمع أنه يقوله. وإنما ستتأني وتنتظر الوقت المناسب. هل أبناؤك المراهقون يحتاجون لمراعاة أقل من هذا؟

شعرت بالإحراج في بعض المواقف عندما تواجدت مع آباء وأمهات لمراهقين وسمعتهم يوبخون أبناءهم على كل غلطة صغيرة. ليس لديك إلزام كتابي بانتقاد أبناءك على كل شيء يفعلونه ويكون مستفزًا لك. لابد أن تترك مساحة متزايدة لاختلاف ابنك المراهق عنك في أسلوبه وسلوكه الحياتي، محتفظًا بالتقويم للإخفاقات التي لها علاقة بالأخلاق والآداب.

وعندما تقرر التصدي لبعض الأمور مع أبناءك، لابد أن تبحث عن توقيت جيد. وإذا كان لديك موضوع هام لتناقشه، من المفيد أن تتمشا قليلاً أو تمارسا العدو الخفيف، أو ركوب السيارة لتوفير بعض الوقت بدون مقاطعة لحوار فعّال.

زد من مراعاتك لأبناءك. أحيانًا يكونون كثيري الكلام. وفي أحيان أخرى، يكونون أقل انفتاحًا. فعندما يسهل الدخول إليهم، لابد أن تستعد للدخول إلى عالمهم. هذا قد يكون غير مريح بالنسبة لك، ولكنه شيء في غاية الأهمية لعلاقتك بهم.

تعامل مع الأفكار العامة

في العلاقات مع الكبار، أنت لا تتصيّد الأخطاء لأصدقائك في كل شيء يفعلونه يحتاج إلى انتباهك. وإنما أنت تبحث عن الأفكار العامة للتجاوب معها. وتحاول أن تفهم أنواع الاستجابات الممكنة وهذا ما تتحدث عنه.

في المثال السابق عن واجبات ابني، الفكرة العامة كانت هي الالتزام بالمهمات طويلة المدى. لأن المشروع الذي في غرفته يعبّر جيدًا عن أشياء أخرى. لذلك ذكرته، ولذلك تجاوب كما فعل. وما قلته وجد صدىً بداخله. وفهم الأمر لأنه رأى أسلوبه عندما لفت نظره إلى ذلك. لم يقاوم ذلك، لأنه ليس مضطرًا للتعامل مع غضبي أو عدم استحساني. كان سهلاً (بالمقارنة مع بدائل أخرى) ليتجاوب مع توجيهي له.

ترك مساحة للاختلاف

في العلاقات مع الكبار، من الممكن أن نختلف سويًا ونبقى أصدقاء. يجب أن ينطبق هذا على علاقاتك مع أبناءك. ليس عليهم أن يتفقوا معك في كل شيء لكي يظهروا الاحترام لك.

في بعض الأحيان يخفق الآباء والأمهات في التمييز بين ما هو كتابي وما يعكس ذوق شخصي. في أمور مثل الملبس، وقصة الشعر، وهكذا، من الممكن أن يختلف عليها الأشخاص بنية صادقة. هناك جوانب كثيرة تحتاج فيها أن تتوقف وتقدّم توجيهًا واضحًا لأبناءك المراهقين. لا تضيع تأثيرك على أشياء لا تهم. هذا قد يعني أنهم سيرتدون أزياء غريبة نوعًا ما من وقت لآخر. لا تقلق- سينسى الناس وسيهدأ استغرابهم بمرور الوقت. ليس عليهم أن يكونوا نسخًا كربونية منك ليرضوا الله!

ما بعد ترسيخ رسالة الإنجيل

حتى عملية ترسيخ رسالة الإنجيل ليست غاية في حد ذاتها. إنما ببساطة تفتح الباب للنمو المستقبلي لأبناءك. تذكّر أنك تريد أن تراهم يحتلون مكانهم كأفراد مستقلين

خاضعين للرب. هذا سيتضمن الآتي:

١- اكتساب طريقة تفكير مسيحية: يحتاج أطفالك أن يكتسبوا القدرة على التفكير بطريقة مسيحية. ويحتاجون أن يتعلموا تحليل أي فكرة ويخضعونها للتقييم الكتابي.

كان علىHeather أن تكتب ورقة بحثية. وكان موضوعها هو الإيذاء الذي يتعرض له الأطفال. واختارت مصادرها، بعضها يتبنّى منظورًا مسيحيًا. وعندما أكملت الورقة، أحضرتها لنا لإبداء رأينا. ابتهجنا عندما رأينا أن النتائج التي وصلت إليها تمثل تقييمًا مسيحيًا للمشكلة والحلول التي تعكس أن الإيمان المسيحي هو المصدر الوحيد والعميق للشفاء الكامل.

٢- بناء صداقات مع الكبار. هناك عاملان لذلك:

أ- عمل صداقات مع كبار داخل الكنيسة والمجتمع.

ب- عمل صداقات وعلاقات نافعة وبنّاءة مع أقرانهم.

٣- اكتشاف وتطوير مكانهم المتميز في الخدمة. هذا يتضمن فهم كيف أعدهم الله ليساعدوا شعبه. وهذا يتضمن أيضًا شعور متعمق بالتبادلية مع الآخرين، وتقوية اتحادهم مع شعب الله. ليس بمقدورك أنت أن تفعل هذا. فقط كل ما ترجوه هو أن ترعى هذه العملية.

٤- تحديد وظيفة من خلالها ينفذون التزامهم تجاه المجتمع ووصية الله بأن يدعموا أنفسهم ويشاركوا الآخرين من المحتاجين. دورك هنا أن تسهل من فهمهم لنقاط قوتهم وضعفهم. قاوم الرغبة في جعلهم كما تريد أنت أن يكونوا. ساعدهم ليحددوا خيارتهم التي ستجلب لهم النجاح فيما يريدون أن يكونوا عليه.

٥- تأسيس بيت وعائلة خاصة بهم كجزء من المجتمع وجزء من كنيسة المسيح. يمكنك أن تساعدهم على الحفاظ على سلامة علاقاتهم العائلية الجديدة. مارس حكمة مقدّسة في توقعاتك منهم. اترك هذا الجزء الخاص بعلاقتك السابقة معهم. لابد أن تتغير

علاقاتك معهم بحيث يؤسسون بيتًا وعائلة أمام الله. تذكر أن العلاقة بين الأبوين والأبناء هي علاقة مؤقتة. بينما العلاقة بين الزوج والزوجة هي علاقة دائمة. «**لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ (علاقة مؤقتة) وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا (علاقة دائمة)**» (تكوين ٢: ٢٤).

٦- بناء علاقة ناضجة مع الوالدين. هذا يتضمن علاقة من التبادلية، وإذا دبّر الله، مشاركة في الخدمة.

ائتمان أبناءك في يد الله

تأتي مهمة التربية إلى نهايتها. ولا نعد الرعاة المباشرين. ينتهي هذا الدور من علاقتنا بهم. هذا سينطبق سواء تزوجوا أو أخذوا مكانهم كبالغين في مجتمعهم. إن الله أراد من التربية أن تكون مهمة مؤقتة.

في التحليل الأخير، لابد أن تئتمن أبناءك في يد الله. أمّا كيف سيصبحون فهذا سيعتمد على أكثر مما فعلته أنت في توفير تأثيرات تشكل شخصياتهم. وإنما سيعتمد على طبيعة التزامهم تجاه الله. في النهاية، أنت تتركهم لله، عالمًا أنك تستطيع ائتمان أبناءك لله الذي أظهر نعمته عليك.

أسئلة للتطبيق في الفصل ١٩

١- إذا وجدت علاقتك بأبناءك متوترة، ماذا تفعل لتعزز التفاهم والشفاء؟ هل هناك أشياء لابد أن تندم عليها وتطلب الغفران لأجلها؟

٢- هل تستخدم توبيخات رقيقة وكلامًا عذبًا للتأثير على ابنك المراهق بأفكار مستمدة من الكتاب المقدّس؟

٣- هل تعلّمت أن ترعى ابنك المراهق خلال فترات الشك والارتياب عن الإيمان؟ هل أنت مستعد لمساعدتهم على استكشاف أسئلتهم وارتباكهم؟

٤- ما هي الأوقات الجيدة لك لتتعامل مع أشياء في حياة ابنك المراهق؟ متى تجد انفتاحًا وقبولاً للتفاعل؟

٥- هل تربي أبناءك واعيًا بأنهم سيتركونك؟ هل رؤيتك للرعاية تتسم بعلاقة من التبادلية مع أبناء كبار؟

مكتبة المشورة الكتابية

آباء أُمناء حسب قلب الله

تربية الأبناء بحسب المنظور الكتابي

الدليل الكتابي لتنشئة الأطفال

الكلمة الافتتاحية بقلم "Tedd Tripp"
مؤلف كتاب "ارعَ قلب طفلك"